# مُنْيَةُ الطَّالِبِينَ

في

# تفسيرِ القرآنِ المبين

تفسير علمي أدبي يحتوي على أبحاث كلامية وعقائدية وتأريخية وروائية

المجلد الثالث والعشرون

الفقيه المحقق

الشيخ جعفر السبحاني

دار جواد الأئمة

الفهرس

| منية الطالبين في تفسير القرآن المبين الجزء الثالث والعشرون |
|---|
| الجزء الثالث والعشرون ويشتمل على تفسير : يس، الصافات، ص |
| تفسير علمي، أدبي، يحتوي على أبحاث كلامية وعقائدية وتاريخية وروائية |
| تأليف: الفقيه المحقّق: جعفر السبحاني |
| نشر: مؤسسة الإمام الصادق (عليه السلام) |
| (الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَ قُرْآنٍ مُبِينٍ) الحجر: ١. |
| مقدمة الجزء الثالث والعشرين من أجزاء القرآن الكريم |
| جذور التكفير وسُبل تجفيفها |

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، والداعي إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة محمد وآله الأخيار الّذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، وعلى الّذين سلكوا سبيلهم واهتدوا بهداهم من الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم القيامة.

أمّا بعد:

نحمد الله تعالى على ما وفّقنا له من تفسير الجزء الثالث والعشرين من أجزاء القرآن الكريم، ويشتمل على السور التالية: يس، الصافات، وسورة ص ؛ ونحن إذ نقدّم هذا الجزء إلى المطبعة، يحوطنا الأسى والحزن لما يجري على الإسلام والمسلمين من مصائب وويلات تستهدف تقويض هذا الصرح الحضاري الشامخ الّذي أُقيم على العلم والإيمان، وتعالى بالتآزر والتعاون بين أبناء الأُمّة الواحدة.

إنّ أعداء الإسلام وفي مقدّمتهم القوى الاستكبارية والصهيونية العالمية المتمرّسة بأساليب المكر والحيلة وحياكة الفتن، قد شحذوا سيوفهم لمحاربة الإسلام من الداخل بعد أن لم يبلغوا ما كانوا يأملون في محاربته من الخارج عبر الغزوين: الثقافي، والعسكري، مستخدمين وسائل جديدة تفضي إلى تشويه صورة الإسلام للحدّ من انتشاره في حياة غير المسلمين، وإلى نشر الفوضى والخراب والدمار في بلاد المسلمين، وذلك من خلال استغلال الشباب الّذي شحنته بالغيظ والحقد بعض المؤسسات الدينية المعروفة، الّتي تتّهم أغلب المسلمين بالكفر والخروج عن الدين، وتحلّ لهم قتلهم وانتهاب ممتلكاتهم وسبي ذراريهم، فخربوا البلاد وأهلكوا العباد، وسيطروا على مساحات من أراضي المسلمين ومدنهم، مستدلّين بقوله تعالى: (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ)غافلين (أو مستغفَلين) عن أن الله سبحانه إنّما أمرنا بإرهاب عدو الله وعدو المسلمين، وهؤلاء هم يرهبون المؤمنين والمؤمنات، صغيرهم وكبيرهم، نساءهم ورجالهم، ويرتكبون بحقّهم جرائم فظيعة يشيب لهولها فود الرضيع .

ولا أظن أنّ مَن كان له أدنى إلمام بالكتاب والسنّة فيما يرجع إلى التكفير يبرر أعمالهم ولو واحداً بالمئة، وأنّ الفتك الجماعي والاعتداء على الأرواح والممتلكات الخاصّة والعامّة وتخريب المنشآت والمساجد واستخدام الأطفال بشدّ الأحزمة الناسفة لقتل المصلّين في المساجد والميادين العامّة، لا ينسجم مع قول رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «لم يدخل الرفق في شيء إلاّ زانه ولم ينزع من شيء إلاّ شانه». صحيح مسلم: ٨ / ٢٢، باب فضل الرفق، كتاب البر والصلة.

وبما أنّ جرائم الإرهابيّين ليست بأمر خفيّ حتّى نقوم ببيانها، فقد وقف عليها العالم لحظة بلحظة، وعرف تفاصيلها عن طريق

وسائل الإعلام المتنوّعة، الّتي قسم منها في تصرّف المتطرّفين، غير أن الّذي يبشِّر بمستقبل زاهر أنّ هذا السرطان قد بدأ يتفشّى في البلدان الّتي كانت تمهّد له الطريق، وتمدّه بالمال والسلاح والفتاوى، فصاروا يقيمون المؤتمرات حول التكفير وطرق مكافحة الإرهاب، قائلين بأنّ الإرهاب لا يستثني أحداً لا من الشعوب ولا من الحكومات، وأنّ شرره سيحيط بالعالم كلّه بشتّى ألوانه، فلا يبقى أمان للمسلم في بيته ولا للمسيحي في بيئته، حتّى ولا ولا، فالمهم كيف نواجه الإرهاب ونعالج هذا السرطان الطاغي الّذي لا يميّز بين العدو والصديق، وهذا هو المهم الآن.

ولذا يجب على العلماء وقادة المسلمين:

أوّلاً: التفتيش في جذور فكرة التكفير وتبلورها شيئاً فشيئاً حتّى لا يتّسع الخرق على الراقع. ولاشكّ أنّ هذه الفكرة تبثّ في المدارس والمؤسسات الّتي تشتمل على تعاليم دينية تتبنّى الحكم بإسلام فرقة وتكفير الآخرين، فيلقيها المعلم على الناشئ دون وعي لنتائجها الّتي تُنذر بالخطر، فلا المعلم يدرك معالم التكفير وشروطه، ولا الناشئ ممّن يميّز الحقّ عن الباطل، ثم تتجذّر هذه الفكرة شيئاً فشيئاً في المجتمع حتّى وصل الحال إلى ما ترى.

فعلى علماء الإسلام تطهير مناهج التعليم من بذور التكفير، حيث نجد أنّ المناهج الدراسية لها تأثير خاص في نمو هذه الفكرة في أذهان الناشئة، وممّا يؤسف له أنّ مناهج التعليم في عدد من الدول الإسلامية في المنطقة تتّجه نحو بذر هذا الانحراف في أذهان الطلاب.

فما دام يُتلى في المعاهد والمدارس الدينيّة قول ابن عبدالوهاب: إنّ شرك الأوّلين أخفّ من شرك أهل زماننا كشف الشبهات: ١١ . ،

فالإرهاب يبقى سائداً ما دامت الدراسة مبنيّة على هذه الآراء المنحرفة.

كما أنّ الإرهاب يبقى سائداً متجذّراً ما دامت المناهج الدراسية تؤكّد ـ مثلاً ـ على أنّ التوسّل بالأنبياء والأولياء هو الشرك الأكبر، أو مادمنا نرى أنّ وزارات الإعلام تُجيز نشر الكتب الّتي تروّج للأفكار المتشدّدة الّتي تُذكي نار الخلاف، وتدعو إلى التفرقة الطائفية.

ثانياً: تصحيح المفاهيم وتبيينها عبر وسائل الإعلام المختلفة، نظير التوحيد والشرك والإيمان والكفر والبدعة، فهذه المفاهيم أُخذت تُفسّر بشكل فوضوي لا يتوقّف عند حدّ، وإليك ما ذكره أحد علماء السنّة من أهل العراق، قال: جاءني رجل يبكي وتعجبت لبكائه لأنّي أعرفه أنّه صلب، فما الّذي جعله ينهار؟! قال: استمعت لولدي الصغير ذي الاثني عشر عاماً ـ وكنت فرحاً أنّه يذهب للمسجد ليصلّي فيه ـ وهو يقول لأُمّه: لا تنامي مع والدي في غرفة واحدة لأنّه مبتدع فهو يستعمل معجون الأسنان ولا يستعمل السواك، وكلّ بدعة ضلالة وكلّ ضلالة في النار!!

فانظر إلى مبلغ علم هذا الّذي يتصدّى للوعظ في المسجد، كيف يفسّر البدعة، ولا يميّز بين اللغوي والشرعي منها، حتّى صار استعمال معجون الأسنان بدعة موجبة للكفر ثم القتل، وتفكّك الأُسرة!!

ومع الأسف أنّ كثيراً من خطباء الجُمع يصرّون على أن يصدّروا خطبهم في كلّ جُمَعهم، بهذه الفقرة من قول رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «إيّاكم ومحدثات الأُمور، فإنّ شرّ الأُمور محدثاتها، وإنّ كلّ محدثة بدعة، وإنّ كلّ بدعة ضلالة».

لاشكّ أنّ هذه الخطبة كسائر خطب النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)من أروع الخطب ولكن التركيز عليها دون تبيين حدود البدعة وإطلاقاتها اللغوية والشرعية يؤدّي إلى نتيجة مفادها أن يقتصر المسلمون على ما كان في زمان النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)من وسائل الحياة، لأنّ كلّ جديد بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، ومن ثم الحكم عليهم بأن يحرموا أنفسهم من كلّ أسباب التقدّم والازدهار في حياتهم المادّية.

لقد ألّف العالم السوري المغفور له الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي كتاباً أسماه: «السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي» عرّف فيه البدعة وبيّن فيه حدودها وتطبيقاتها على الوقائع والجزئيات، فأثار كتابه هذا غضب المتعصّبين حتّى راح ضحية هذا التأليف قتيلاً في محراب عبادته مع عدد من الّذين كانوا يأتمّون به.

ثالثاً: إنّ الإرهابيّين كانوا فيما مضى لا يملكون شيئاً من أدوات الحرب خفيفها وثقيلها، وقد صاروا اليوم ينتظمون في شبه دولة، ويمتلكون أكثر وسائل الحرب ومعدّاتها، فمن أين حصلوا عليها؟!

لاشكّ أنّ هناك دولاً إقليمية تدعمهم وترسل إليهم ـ بمباركة وتشجيع من قوى الاستكبار ـ بالسلاح والعتاد، لغايات باتت معروفة لكلّ ذي عينين، فعلى العلماء المخلصين والأحرار من رجال الصحافة والإعلام القيام بوجه هذه الدول الخاطئة، وفضح دورها الّذي تسبّب في إراقة الدماء الطاهرة وإزهاق الأرواح البريئة في ا لدول الإسلامية حتّى بلغ الأمر أن يقتل الأب ابنه، والأخ أخاه، وأن تخرج هذه الحرب عن كونها حرباً طائفية إلى حرب ضدّ الإسلام باسم الإسلام.

رابعاً: بذل الجهود من أجل تعميق الحوار والتقارب والتواصل بين قادة المذاهب وزعامات الأُمّة الإسلامية والحوزات العلمية والجامعات الإسلامية، ومراكز الدراسات العليا، فإنّ ما يجمع المسلمين أكثر ممّا يفرّقهم، كما قال شاعر النيل:

إنّا لتجمعنا العقيدة أُمّة *** ويضمنا دين الهدى أتباعاً

ويؤلّف الإسلام بين قلوبنا *** مهما ذهبنا في الهوى أشياعاً

خامساً: لاشكّ أنّ بين المسلمين فوارق في مسائل عقدية وفقهية، ولكلّ دليله على ما يعتقد أو يفتي به، ولكن الواجب عند التعرّف على مذهب ما، هو الرجوع إلى مصادره الأصلية المؤلّفة بأقلام علمائه، وعدم الاتّكال على كلّ كتاب أُلف باسم المذهب، فإنّ الاعتماد على نقل الآخرين هو من الأسباب الأساسية للابتعاد والتفرقة، ومن الواضح جدّاً أن كثيراً من الفوارق المترسّخة في الأذهان أو على صفحات الكتب، قد نشأت من التساهل في التعرّف على حقيقة المذاهب من مصادرها الأصلية.

سادساً: نشر ثقافة الإسلام وتعاليمه التي تدعو إلى التآخي والمحبّة والتسامح بين المسلمين، بل بين أبناء البشرية جميعاً، فالناس كما قال الإمام علي (عليه السلام): «صنفان: إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق» ولكلّ حقّ على الإنسان المسلم، ولكن فتنة التكفير وما رافقها من عمليات إجرامية بشعة نفّذها الإرهابيون قد شوّهت ـ مع الأسف الشديد ـ وجه الإسلام الحنيف في عيون غير المسلمين، بل حتى في أذهان الضعفاء من المسلمين، فكأنّ الإسلام دين دموي قد جُرّد من الرحمة والرأفة.

سابعاً: من المخجل جدّاً وما يندى له الجبين التباعد في معرفة الله سبحانه بين طائفتين من المسلمين إلى حدّ بينما نرى أنّه قام أحد علماء تونس بنشر كتاب باسم «مجموع الرسائل التونسية في علم العقائد السنيّة» فطبع ثمان رسائل حول تنزيه الحقّ عن الجهة والمكان والحركة، وفي مقابل هؤلاء نرى أنّ طائفة أُخرى تصرّ على الجهة وتقعد الله تعالى على سرير في العرش أو العرش سريره.

يقول ابن تيمية في تفسير سورة العلق: إنّ عرشه أو كرسيّه وسع السماوات والأرض، وإنّه يجلس عليه فما يفضل منه إلاّ قدر أربعة أصابع، وإنّه ليئط أطيط الرحل الجديد براكبه. مجموعة التفسير: ٣٥٤ ـ ٣٥٥.

فإذا كان هو الإله الذي يعبده ابن تيمية ومقلّدو منهجه، إلٰه يتحرّك وينزل، محدود بحدود، له جهة ومكان، وأنّه يجلس على العرش، وعرشه يزيد عليه بأربعة أصابع، فإذا كان هذا إله العالَم وخالق البرايا، فرفض هذا الإله أفضل من إثباته، ثم إذا كان عرش الإله المعبود يئط أطيط الرحل الجديد، فياموت زُر إنّ الحياة ذميمة... هذا هو جزاء من أعدم العقل وأكبّ على النقل بلا وعي، وتلقّى روايات الصحيحين وغيرها كأوثق ما يكون، دون إخضاعها للنقد والتمحيص. وإذا كان هذا شيخ الإسلام وحجة الدين فعلى

الإسلام السلام!!

فمع هذا التباعد بين فرق المسلمين، هل يمكن تقريب الخطى بينهم وعقد أواصر الأُخوّة بين الرؤوس والمرؤوسين؟ ولذا نؤكّد على ضرورة إيجاد التواصل، وعقد المؤتمرات، للتعارف والتآزر، لا للتنافر والتخاصم.

أسال الله تعالى أن يوفّقنا وجميع العاملين المخلصين لنشر الوئام والسلام بين المسلمين، وغرس الحبّ والصفاء في نفوسهم، اتّباعاً لأمره، وابتغاءً لمرضاته، إنّه خير مسدّد ومعين.

جعفر السبحاني

قم، مؤسسة الإمام الصادق (عليه السلام)

٥ ربيع الأوّل ١٤٣٦ هـ

## ٣٦-سورة يس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤) تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥) لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ
فَهُمْ غَافِلُونَ (٦) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٧) إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (٨)
وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (٩) وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ
(١٠) إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (١١) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا
وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ (١٢) وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ
فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا
تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٧) قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا
لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨) قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (١٩) وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى
الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي
وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ
مُبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ
الْمُكْرَمِينَ (٢٧) وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ (٢٨) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ
خَامِدُونَ (٢٩) يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٠) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ
إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ (٣١) وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٣٢) وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ
(٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٣٥)
سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ
مُظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩)
لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ
الْمَشْحُونِ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢) وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ (٤٣) إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا
إِلَى حِينٍ (٤٤) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥) وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا
عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤٦) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا

فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٤٧) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩)
فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (٥٠) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (٥١) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ
بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٥٣) فَالْيَوْمَ
لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٤) إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ
عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ (٥٧) سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (٥٨) وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ
(٥٩) أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ
أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤)
الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥) وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ
فَأَنَّى يُبْصِرُونَ (٦٦) وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ (٦٧) وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا
يَعْقِلُونَ (٦٨) وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (٦٩) لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧٠)
أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا
مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ (٧٤) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ
مُحْضَرُونَ (٧٥) فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٦) أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ
(٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ
(٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ
يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ
شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣)

## خصائص السورة

### تسمية السورة

سُميّت السورة في المصاحف بسورة«يس» لوقوع هذين الحرفين أو هذا الاسم في أوّل السورة، ويظهر من بعض الروايات أنّ تسميتها بهذا الاسم قد ورد عن النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)، فقد روي عن معقل بن يسار، عنه(صلى الله عليه وآله وسلم)أنّه قال:«أقرأوا يس على موتاكم» مسند أحمد:٥/٢٦؛ سنن أبي داود:٥٩٨، كتاب الجنائز، برقم ٣١٢١، تحقيق صدقي جميل العطّار.. روى هذا الحديث الحفّاظ من المحدّثين كالطبراني والبيهقي والنسائي وغيرهم كثير، وهو يدلّ على أنّ الميّت ينتفع بقراءة القرآن عليه، والرواية مطلقة غير مقيّدة بوقت دون وقت وبمحل دون محل، فإذا زار الإنسان قبر أبيه وقرأ سورة «يس» يكون مثاباً بحكم هذه الرواية، خلافاً للوهابية الذين منعوا انتفاع الميّت بقراءة القرآن عليه.

وروي عن أنس بن مالك عن النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه قال: «إنّ لكلّ شيء قلباً وقلب القرآن يس». سنن الترمذي:٨١٩، كتاب فضائل القرآن، برقم ٢٨٩٦، تحقيق صدقي جميل العطّار.

وروي عنه أيضاً، عن النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) قال:«مَن دخل المقابر فقرأ سورة يس خفّف عنهم يومئذ وكان له بعدد مَن فيها حسنات». مجمع البيان: ٨ / ٢٥٤ ؛ تفسير نور الثقلين:٤/٣٧٣.

وروي عن أبي بصير عن أبي عبد الله[الصادق](عليه السلام) قال:«إنّ لكلّ شيء قلباً، وإنّ قلب القرآن يس، من قرأها قبل أن ينام أو في نهاره قبل أن يمسي، كان في نهاره من المحفوظين والمرزوقين حتى يمسي ... إلى آخر الرواية». ثواب الأعمال للصّدوق:١٣٨، ثواب قراءة السور، رقم ١. ولاحظ : تفسير نور الثقلين:٤/٣٧١، وفيه روايات أُخرى وردت فيها تسمية السورة بسورة «يس».

| عدد آياتها ومحلّ نزولها |
|---|
| يبلغ عدد آيات هذه السورة ثلاثاً وثمانين آية في عدّ الكوفي، واثنتين وثمانين في عدّ الباقين، والاختلاف في عدّ «يس» آية مستقلّة عند الكوفيين. والسورة مكّية، وتدلّ على ذلك مضامينها. |

| أغراض السورة |
|---|
| تركّز السورة على محاور ثلاثة:<br>١. الدعوة إلى التصديق بنبوّة النبيّ محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) وتصديق دعوته، وهذا ما تركّز عليه السورة في أوائلها.<br>٢. التأكيد على التوحيد، فتذكر من الآيات الكونية ما يستدلّ به على توحيده سبحانه، وتبدأ في ذلك من قوله:(وَ آيَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا...).<br>٣. الدعوة إلى الإيمان بالبعث والنشور وإقامة الأدلّة التي تثبت قدرته تعالى على حدوثه، وتبدأ في ذلك من قوله:(وَ ضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ).<br>وفي ثنايا السورة أُمور لها علاقة بأحد المحاور المشار إليها.<br>ومن غرر الآيات فيها قوله تعالى في آخر السورة:(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ).<br>وقد جاءت السورة على غرار سورة الفاتحة، حيث قرّرت أُمهات أُصول الدين بأبلغ الوجوه وأتمّها، ولأجل ذلك صارت جديرة بأن تُسمّى قلب القرآن، إذ كما أنّ الشرايين تتشعّب من القلب إلى سائر الأعضاء، فهكذا هذه السورة يتشعّب البحث منها إلى غيرها من السور حول الأُصول الثلاثة، والله العالم. |

| سورة يس: الآيات ١ ـ ١٢ (يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ... وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ). |
|---|
| الآيات: الاثنتا عشرة الأُولى |
| (يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ * لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ * إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ * وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ * إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ * إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ). |

| المفردات |
|---|
| أغلالاً: جمع غُلّ، وهو ما تشدّ به اليد إلى العنق للتعذيب والتشديد، بمعنى وجود حلقة في اليد وأُخرى في العنق ويربط بينهما بسلسلة، بحيث لا يتمكّن الإنسان من تحريك يده ورأسه.<br>الأذقان: جمع ذقن، وهو مجتمع اللَّحيين من أسفلهما.<br>مقمحون: المُقمَح: الذي يرفع رأسه ويغض بصره، يقال: قمح البعير إذا رفع رأسه عن الحوض ولم يشرب.<br>إمام: هو ما يؤتم به، وأُطلق هنا وأُريد به الكتاب بمناسبة أنّ المكتوب فيه يُعمل به ويُقتدى به. |

| التفسير |
|---|
| ١.(يس):<br>هل هو من الحروف المقطّعة الواقعة في أوائل السور، أو أنّه من أسماء النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)؟ وجهان. |

والوجه الثاني هو المرويّ عن الأئمّة: عليّ بن أبي طالب، ومحمد الباقر، وعلي الرضا(عليهم السلام). انظر: التبيان في تفسير القرآن:٨/٤٤١؛ وأمالي الصدوق:٣٨١، المجلس (٧٢)، برقم ١؛ وعيون أخبار الرضا:١/٢١٤، الباب (٢٣)، برقم ١.

روى الشيخ الصدوق بإسناده عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر ]الباقر[(عليه السلام) قال:«إنّ لرسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) عشرة أسماء، خمسة منها في القرآن...: محمد، و أحمد، و عبدالله، ويس، و نون». الخصال:٤٢٦، باب العَشَرة، برقم ٢.

ويؤيد هذا الوجه ورود الخطاب للنبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ بعد قوله:(يس) ـ : (إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ* عَلَى صِرَاط مُسْتَقِيم).

ويظهر من شعر السيد الحميَري اشتهار ذلك في القرن الهجري الثاني، حيث قال:

يا نفس لا تَمحضي بالودّ جاهدة *** على المودّة إلاّ آل ياسينا

و قد قرأ بعضهم قوله سبحانه: (سَلاَمٌ عَلَى إِلْيَاسِينَ) الصافات:١٣٠.: «سلام على آل ياسين»، وهي قراءة نافع، وابن عامر، ويعقوب، وزيد.

ثمّ إنّ المكتوب في المصاحف هو بصورة حرفين (يس) ولكن إذا سمّي به الإنسان كُتب بهذه الصورة: «ياسين» أي باسم الحرفين.

٢.(وَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ):

الواو: للقسم، والمقسم به هو القرآن، والمقسم عليه ما سيأتي بعده.

وقد أقسم سبحانه بالقرآن في ثلاث سور، إحداها ما في المقام، وثانيتها قوله: (ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ) سورة ص:١.، وثالثتها قوله: (ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ). سورة ق:١.

ويكفي في عظمة المقسم به أنّه فعله سبحانه حيث أنزله لهداية الناس وإنقاذهم من الضلالة، وما هذا شأنه فهو أمر عظيم جليل يليق أن يقسم به، وكيف لا يكون كذلك وهو نور كما يقول سبحانه: (قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ) المائدة:١٥. وفي الوقت نفسه (هُدًى لِلْمُتَّقِينَ)( البقرة:٢.) إلى غير ذلك من الأوصاف التي يوصف بها القرآن الكريم في نفس ذلك الكتاب ومن أفاضل صفاته ما في هذه الآية:(وَ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْء). النحل:٨٩.

وقد وصف سبحانه القرآن بالحكيم مع أنّه من صفات الله سبحانه من حيث إنّه يشتمل على المعارف والشرائع والأخلاق والعبر والمواعظ الحكيمة.

٣. (إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ):

هذا هو المقسم عليه، والصلة بينه وبين المقسم به واضحة، لأنّ القرآن أداة تبليغه ومعجزته الخالدة.

٤. (عَلَى صِرَاط مُسْتَقِيم):

خبر ثان لـ(إنّك) فقد أخبر سبحانه بأنّه(صلى الله عليه وآله وسلم) من المرسلين وأنّه على صراط مستقيم يوصله إلى ما هو المقصود، فإنّ الطريق المستقيم هو الطريق الموصل، وأمّا الطريق الذي فيه اعوجاج فلا يوثق به. ومن يسلك الصراط المستقيم يصل إلى السعادة الدائمة عقيدة وعملاً.

والغاية من تنكير (صِرَاط) هي تفخيمه وتعظيمه.

٥. (تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ):

قوله:(تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ) منصوب بتقدير أعني. وهو وصف للقرآن الكريم، والمصدر بمعنى المنزَّل، أي المنزَّل من الله العزيز الرحيم، فالله سبحانه جمع بين العزة والرحمة وذلك من خصائصه، لأنّ العزة في غيره تقارن القسوة غالباً، وهو سبحانه مع كونه عزيزاً رحيم، فلا تكون عزّته سبباً لعدم رحمته ويمكن أن يكون الوجه في وصفه بهما بيان أنّه عزيز قاهر غالب غير مغلوب، فلا

يعجزه إعراض المشركين عن عبادته، ومع ذلك فهو رحيم، يتدارك المشرك برحمته لو عاد عن شركه إلى التوحيد.

٦.(لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ):

وصف سبحانه نبيّه بأنّه من المرسلين، والإرسال من المفاهيم ذات الإضافة، فالله سبحانه هو المرسِل، والنبيّ هو المرسَل، وأمّا المرسل إليه فهو ما بيّنه في هذه الآية وهو قوله: (لِتُنْذِرَ قَوْمًا): أي قريشاً ومن يلحق بهم (مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ) و «ما» نافية، والمعنى: لم يُنذَر آباؤهم قبلهم، وهو كقوله تعالى: (لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ) القصص:٤٦.هذا حال الآباء، وأمّا الأبناء فهو ما يذكره بقوله: (فَهُمْ غَافِلُونَ).

والمراد بالآباء هنا هم العرب العدنانيون (من ذريّة إسماعيل(عليه السلام))، حيث كانوا في زمان الفترة، فلم يبعث فيهم نبيّ قبل النبيّ الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) . نعم

لم يدَعْ سبحانه الأرض بغير حجّة، والحجج بعد الأنبياء هم أوصياؤهم. وممّا تقدّم يُعلم أنّه لا منافاة بين قوله: (مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ)ووجود الرسل كشعيب وهود وصالح، فإنّهم بعثوا في غير العدنانيّين. كما أنّ ذكر العرب وحدهم هنا لا ينافي القول بعموم الرسالة، لأنّ الخطاب هنا كان موجّهاً إليهم.

هذا حال الآباء، وأمّا الأبناء فوصفهم سبحانه بقوله: (فَهُمْ غَافِلُونَ): أي يعيشون في جهالة وضلالات مطبقة.

وربّما يتصوّر أنّ «مَا» في قوله: (مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ) موصولة، وهو بعيد.

٧. (لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ):

اللام للقسم، والمراد بالقول: كلمة العذاب الواردة في قوله سبحانه: (قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ). سورة ص:٨٤ـ ٨٥.

نعم حقَّ القول أي ثبت ووجب العذاب على أكثرهم لا على جميعهم، كما يقول: (لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ) وما ثبوت العذاب لهم إلاّ لأجل قوله: (فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ).

يُخبر سبحانه عن استمرار أكثرهم على الكفر حتى يروا العذاب الأليم، وفي الوقت نفسه يُخبر عن إيمان قليل منهم.

٨ . (إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ):

يظهر من الجبّائي أنّ في الآية تشبيهين وتمثيلين:

الأوّل: تشبيه حال المشركين برجل غُلّت يداه إلى عنقه لا يمكن أن يبسطهما إلى خير.

الثاني: رجل طامح برأسه لا يبصر موطئ قدميه. مجمع البيان:٨/٢٨٦.

وبما أنّ الأيدي غير مذكورة في الآية عاد الطبرسي إلى تأويل الآية، قائلاً: قوله: (إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ) يعني أيديهم، كنّى عنها، وإن لم يذكرها، لأنّ الأعناق والأغلال تدلاّن عليها، وذلك أنّ الغُلّ إنّما يجمع اليد إلى الذقن والعنق، ولا يجمع الغُلّ العنقَ إلى الذقن. مجمع البيان:٨/٢٨٥. أي لا يرجع الضمير إلى الأعناق (بل يرجع إلى الأيدي المعلومة من السياق)، إذ لا تجمع الأغلال الأعناق إلى الأذقان،بل تجمع الأيدي إليها، وعلى هذا إذا شُدّت الأيدي بالأغلال إلى الأعناق ارتفع الرأس إلى الأعلى، واستحال على المغلول أن يلتفت يمنة ويسرة أو ينظر إلى الأمام فهو أبداً ينظر إلى السماء.

غير أنّ الظاهر من بعض المفسّرين أنّ هنا تمثيلاً واحداً، أي إنّا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي واصلة إلى الأذقان ملصقة بها، فهم من جرّاء ذلك مقمحون أي مرفوعو الرؤوس، إذ أنّ طوق الغُلّ الذي في عنق المغلول يكون في ملتقى طرفيه تحت الذقن حَلْقة فيها رأس العمود خارجاً من الحلقة إلى الذقن، فلا يمكّنه من أن يطأطئ رأسه فلا يزال مقمحاً. تفسير المراغي:٢٢/١٤٦. ونحوه في تفسير

الكشاف:٣/٢٨١.

وقال السيد الطباطبائي في تأويل الآية: قد ملأت الأغلال ما بين صدورهم إلى أذقانهم فبقيت رؤوسهم مرفوعة إلى السماء لا يتأتّى لهم أن ينكسوها فينظروا إلى مابين أيديهم من الطريق فيعرفوها ويميّزوها من غيرها. الميزان في تفسير القرآن:١٧/٦٥.

وذكر الشريف الرضي: أنّ الآية بصدد ذكر أوصاف القوم في الدنيا بشهادة قوله تعالى بعد ذلك:(وَ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ). وأضاف: وإذا كان الكلام محمولاً على أحوال الدنيا دون الآخرة، وقد علمنا أنّ هؤلاء القوم الذين ذهب الكلام إليهم كان الناس يشاهدونهم غير مقمحين بالأغلال ولا مضروباً عليهم بالأسداد] كما في الآية التالية [علمنا أنّ الكلام خرج مخرج التمثيل. انظر: تلخيص البيان في مجازات القرآن:٢٢٨.

هذا حال المشبّه به، وأمّا المشبّه فهم المشركون الذين طوّقوا أنفسهم بطوق التقليد الأعمى وربطوا أعناقهم بسلسلة العادات والأفكار الخرافية، فصار ذلك سبباً لبقائهم مقموحين، رافعي الرؤوس، لا يلتفتون إلى اليمين واليسار ولا ينظرون إلى الأمام حتى يبصروا طريق الحق، الذي يهديهم إليه القرآن، كيف؟ وقد أعرضوا عنه ولم يستمعوا إلى دلائله وبيّناته.

وإن شئت قلت: إنّ أفكارهم الخرافية واقتداءهم بآثار آبائهم والخوف من نتيجة سوء أعمالهم في الآخرة، كلّها صارت سبباً لأن تغلّ أفكارهم حتى لا يتدبّروا محاسن القرآن وحقائقه ويستمعوا إلى إنذار واعظ وتبشير آخر، فهم واحدي النظر، وهذا لا يوصل الإنسان إلى المقصد.

قال الشريف الرضي: فكأنّ ذلك ] أي التمثيل في الآية[ وصف لما كان عليه الكفّار عند سماع القرآن من تنكيس الأذقان وليّ الأعناق، ذهاباً عن الرشد، واستكباراً عن الانقياد للحق، وضيق صدورهم بما يردُ عليهم من صوادع البيان وقوارع القرآن. تلخيص البيان في مجازات القرآن:٢٢٨.

فإن قلت: إنّه سبحانه ينسب جعل الأغلال في الأعناق إلى نفسه، فعندئذ فأي ذنب لهم في هذا التشبيه؟

قلت: إنّه سبحانه ربّما ينسب نتيجة أعمالهم إلى نفسه في غير واحدة من الآيات نظير:

١.قوله تعالى: (فَبِما نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً) المائدة:١٣.ترى أنّه سبحانه ينسب إلى نفسه جعل قلوبهم قاسية، مع أنّها أثر أعمالهم، أعني: نقض الميثاق يتلوه ابتعادهم عن رحمة الله، وصيرورة قلوبهم قاسية.

٢. قوله تعالى:(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ). الصف:٥.فقد نسب زيغ قلوبهم إلى نفسه مع أنّه نتيجة عملهم، أعني: الزيغ والابتعاد عن هداية الله تبارك وتعالى.

وهكذا المقام، فإذا كان المراد بالأغلال التي عمّت كلَّ وجودهم هو التقاليد الباطلة والعادات الضارّة، فهي عمل أنفسهم حيث صدّوا عن الهدى الذي جاء به الأنبياء، وأقبلوا على تقاليد وأفكار الآباء، فصار كلّ ذلك أغلالاً على أعناقهم، ولذلك يصف سبحانه النبيّ الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم)بأوصاف عشرة منها: (وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ) الأعراف:١٥٧..

ومن المعلوم أنّ الرسول حينما بُعث لم تكن على أعناقهم أغلالاً مادّية، فدلّ هذا على أنّ المراد هو التقاليد الباطلة والأفكار الساقطة، وإلى هذا المعنى أشار الأفوه الأوْدي هو صَلاءة بن عمرو، من بني أود، من مَذْحِج، أحد الحكماء والشعراء في العصر الجاهلي. بقوله:

كيف الرشاد إذا ما كنت في نفر *** لهم عن الرُّشد أغلالٌ وأقيادُ

ثمّ إنّ السبب في عناد المشركين إذا كان من أنفسهم صحّ أن ينسبه تعالى إلى نفسه أيضاً، كما قال:(إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً) إذ يصحّ نسبة فعل الإنسان إلى الله سبحانه بنحو من النسب لأجل القول بالأمر بين الأمرين.

٩. (وَ جَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ):

وهذا تمثيل آخر يشبّه كفّار قريش بمن كان أمامه وخلفه سدّاً وجداراً، فلا يرى ما قدّامه ولا ما خلفه. هذا هو المشبه به، وأمّا المشبّه فماذا يُراد بالسدّ؟ وما هما السدّان اللّذان حوصروا بينهما؟ وكيف هم محاصرون بين سدّ من أمامهم وسدّ من خلفهم كما يقول: (وَ جَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ): أي ألقينا غطاء على أبصارهم، وعندئذ (فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ)؟ لعل المراد بالسدّ هو استكبارهم عن اتّباع الرسول وعدم خضوعهم لما جاء به، فهم سدّوا أبواب النظر فيما يتلوه عليهم، ومن ثمّ حبسوا أنفسهم بين حواجز الغيّ والجهل، وأصبحوا صمّاً بُكماً لا يعقلون.

وعلى هذا فليس هناك إلاّ حقيقة واحدة وهي تلقّي الخرافات والتقاليد أمراً حقيقياً فصارت سدّاً محيطاً بهم من قدّامهم ومن خلفهم، فتكون الآية تبييناً للآية السابقة، والمعنى: أنّ تلك الحواجز تكون سدّاً مانعاً من التوجّه إلى الأمام أو الخلف، ومثل هذا الإنسان غير قابل للهداية، لأنّه سدّ كافّة مآخذ الشعور والعلم.

ونتيجة التمثيل أنّه سبحانه يصوّرهم بأنّهم أُناس متكبّرون مغرورون بما عندهم، لا يستضيئون بنور العقل والوحي، ولا يقبلون شيئاً سوى ما هم عليه، فيصبحوا ضالّين ومضلّين، فالإنذار والترهيب لا يؤثر فيهم شيئاً كما يقول:

١٠. (وَ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ):

أي أنّ الإنذار وعدم الإنذار في حقّهم سيّان، لأنّ من أقفل أبواب الإدراك دون الحقّ فلا ينفذ فيها الوحي والإنذار والتهديد، ولذلك قال:(وَ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ).

وإن شئت أن تكتشف حال هؤلاء، فتأمّل في حال الأرض السبخة، فمهما هطل عليها من المطر أو سطعت عليها الشمس، فلا ينبت فيها شيء، لفقدانها الاستعداد، على عكس الأرض الخصبة فعندما تشرق عليها الشمس وتهطل عليها الأمطار، تراها تنبت بألوان الأزهار والثمار، قال سبحانه: (وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا) الأعراف:٥٨..

فإن قلت: إذا كان حالهم حال الأرض السبخة فلماذا أنذرهم الله وأرسل إليهم الرسل؟

قلت: إنّ هؤلاء قادرون على خرق الحجب وأسوار التقليد الأعمى، والإصغاء إلى الوحي، فصحّ إرسال الرسل إليهم إتماماً للحجّة.

ويمكن تقريب المعنى بهذا المثال، وهو أنّ الإنسان المريض على قسمين:

تارة يكون بذاته مستعداً للعلاج، فينقل إلى المستشفى ويتلقّى العلاج فيها، لماذا؟ لأنّه قابل للعلاج باستعمال الدواء.

وأُخرى يكون المريض على حال لا يقبل العلاج حيث إنّ البدن فقد عامة الاستعداد للبقاء، فهو أشبه بمصباح انتهى زيته، ومثل هذا المريض، يرى الأطباء أن لا جدوى من وصف الدواء له، وينصحون أهله بعدم إدخاله إلى المستشفى، لأنّ سمات المريض ونتائج التحليلات تحكي عن اليأس من علاجه وشفائه.

ونظير هذا الإنسان، العاصي الذي يوصف بالمريض الروحي، فتارة لم يكن متوغّلاً في العصيان بحيث لا يمكن علاجه بالتوبة والعمل الصالح، وأُخرى يكون متوغلاً فيها على نحو لاتبقى أيُّ نكتة بيضاء في قلبه وروحه، وهذا هو أحد الذين يقول سبحانه في حقّهم: (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ).

١١. (إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَة وَأَجْر كَرِيم):

أي إنّما ينتفع بالإنذار من طلب الحقّ لوجه الحق واستعدّ لقبول الحقيقة أمام ما ورث من التقاليد عن الآباء، فهؤلاء هم الذين يصفهم سبحانه بقوله:(إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ) اجتمع فيه وصفان:

١. (اتَّبَعَ الذِّكْرَ): أي القرآن الكريم وأذعن أنّه كلامه سبحانه، فيصبح القرآن منذراً له.

٢. (وَ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ): أي في حال غيبته عن الناس، خلافاً للمنافق.

ويحتمل أن يكون المعنى: خشي الرحمن فيما غاب عنه من أمر الآخرة، فمن اجتمع فيه الوصفان هو الذي أمر الله رسوله أن يبشّره بقوله: (فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَة) فيما تقدّم من الذنوب (وَ أَجْر كَرِيم): أي الثواب الأفضل. وذكر الرحمن بدل الرحيم تنديداً بإنكار المشركين حيث كانوا لا يؤمنون بالرحمن.

ثمّ إنّه سبحانه يذكر في الآيات الأخيرة من هذه السورة أنّ الإنذار إنّما ينفع من كان حيّاً، قال تعالى: (لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا) ولا شكّ أنّ الحياة المادية هي مشتركة بين المشرك والمؤمن، وهذا دليل على أنّ المراد من الحيّ هو من كمل عقله وسما إدراكه فهذا هو الحيّ، وأمّا من فقد ذلك فهو ميّت الأحياء، والحيّ عندئذ ينطبق على قوله في المقام (مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ) فهذان هما الوصفان اللذان يتحلّ بهما من كمل عقله وتمّ إدراكه بحيث يكسر قيود التقليد والعصبية، وينفتح على الدلائل والبراهين.

١٢. (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْء أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَام مُبِين):

لمّا تقدّم في الآية السابقة أنّه إنّما ينتفع بالذكر من (خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ)، وقلنا إنّه يحتمل أنّه يراد بالغيب ما غاب عن حسّه في حياته الدنيوية وهو يوم القيامة يوم البعث والجزاء، صار ذلك سبباً لذكر الأُمور التالية، الّتي تتوقّف عليها المجازاة في يوم القيامة:

أ. (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى).

ب. (وَ نَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ).

ج. (وَ كُلَّ شَيْء أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَام مُبِين).

أمّا الأوّل: فيُعدّ مثالاً لما تقدّم، أعني قوله: (وَ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ)فإنّ الإحياء في يوم القيامة للحساب والجزاء من مصاديق الغيب. وفي قوله:(إِنَّا نَحْنُ) المؤكّد بحرف «إنّ» وبضمير الفصل، إشارة إلى أمر عظيم،وهو القدرة، التي يتفرّد بها سبحانه، على إحياء الموتى جميعاً.

وأمّا الثاني: فهو إشارة إلى إحاطة علمه سبحانه بالأعمال، التي يتوقّف عليها الجزاء، والمعنى: إنّنا نسجّل أعمالهم التي ارتكبوها في الدنيا، من خير وشرّ، لنجزيهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر، والتعبير بقوله: (قَدَّمُوا)يوحي وكأنّ الأعمال بنفسها تتقدّم إلى يوم القيامة فلا تبقى محبوسة في الدنيا. ولعل المراد بالآثار هو الأعمال التي تبقى آثارها بعد موت صاحبها من غير فرق بين السنّة الحسنة والسنّة السيئة، فتُكتب منافع الأُولى، ومضارّ الثانية. ونحو هذه الفقرة، قوله تعالى: (يُنَبَّؤُا الإِنْسَانُ يَوْمَئِذ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ). القيامة:١٣.

ويظهر أنّ المراد بالكتاب الذي تكتب فيه ذوات الأعمال وآثارها هو صحيفة أعمال كلّ إنسان، فإنّها تحصي كلّ ما صدر منه صغيراً كان أو كبيراً، قال سبحانه:(اِقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا) الإسراء:١٤.، وفي آية أُخرى:(يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً)، الكهف:٤٩.والظاهر هذا هو المراد لا اللوح المحفوظ، وهو الكتاب الجامع لكافة الحوادث العالمية ومنها أعمال البشر.

إنّ الإيمان بوجود كتاب يحصي أعمال الإنسان صغيرها وكبيرها، يدفع الإنسان إلى الاحتياط في حياته، وذلك أنّه ربما يحقّر الذنب الذي يصدر عنه يوماً، وهكذا الذنب الذي يصدر عنه بعد ذلك، ففي النظرة

الأُولى تتراءى له معاصيه قليلة ولكن عندما يجتمع كلّ ما يصدر عنه، طوال حياته، من معاصي، فإنّها تتراءى له عند ذاك كالبيدر. ويعجبني أن أنقل في المقام ما روي عن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) في التحذير من استصغار المعاصي.

روى الكليني بسنده عن ثعلبة عن زياد، قال :قال أبو عبد الله]الصادق[(عليه السلام): «إنّ رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) نزل بأرض قرعاء أرض قرعاء: لانبات فيها. فقال لأصحابه: ائتوا بحطب، فقالوا: يا رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) نحن بأرض قرعاء ما بها من

حطب، قال: فليأت كلّ إنسان بما قدر عليه، فجاءوا به حتى رموا بين يديه، بعضه على بعض، فقال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): هكذا تجتمع الذنوب، ثم قال: «إيّاكم والمحقَّرات من الذنوب، فإنّ لكلّ شيء طالباً، ألا وإنّ طالبها يكتب ما قدّموا وآثارهم وكلّ شيء أحصيناه في إمام مبين». الكافي:٢/٢٨٨، كتاب الكفر والإيمان، باب استصغار الذنب، برقم ٣.

والحديث يدلّ على عدم جواز تحقير الذنوب الصغار، فإنّها إذا اجتمعت تصير ذنباً كبيراً أو ذنوباً كبيرة.

وأمّا الثالث: فيظهر أنّ هذه الكتابة غير الكتابة السابقة، لأنّ تلك الكتابة تختصّ بما يقدّم الإنسان من الأعمال والآثار، وهذه تعمّ كلّ شيء يتّصل بأفعال وأحوال كلّ الموجودات، فيكون المراد بالإمام هنا هو اللوح المحفوظ، فهو يحصي كلّ شيء. ولعلّ تسميته بالإمام لأجل اشتماله على القضاء المحتوم الذي يكون إماماً متّبعاً للناس.

ولا بُعد في أن يكون الكتاب موصوفاً بالإمام، وقد وُصفت به التوراة، قال سبحانه: (أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَة مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً) هود:١٧..

وذلك لأنّ التوراة صارت هي القدوة لأنبياء بني إسرائيل في كلّ ما يحتاجونه من الأُمور الدينية.

ولا مانع من وصف اللوح المحفوظ بالإمام بهذا الملاك، وكأنّ الإنسان يسير على ضوئه.

## الآيات ١٣ ـ ٣٢ (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا..... وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ).

الآيات: الثالثة عشرة إلى الثانية والثلاثين

(وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ * إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِث فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ * قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْء إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ * قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ * وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ * قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ * وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا مَنْ لاَ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ * وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرّ لاَ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلاَ يُنْقِذُونَ * إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلاَل مُبِين * إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ * قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ * وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْد مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ * إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ * يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُول إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ * وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ).

المفردات

اضرب: الضرب: اختلفت كلمات المفسرين في تفسير كلمة (اَضْرِبْ) في هذا المقام، وقد ذكروا لها وجوهاً نذكر منها. وجهين:

الأوّل: أنّ الضرب في هذه الموارد هو التمثيل، وهو خيرة ابن منظور، واستشهد بقوله:(وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ): أي مثّل لهم مثلاً وهو حال أصحاب القرية.

الثاني: أنّ الضرب بمعنى الوصف والبيان، وقد حكي هذا عن مقاتل بن سليمان، وفسّر به قوله سبحانه:(ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً عَبْدًا مَمْلُوكًا لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْء) النحل:٧٥..

ولعلّ هذا هو الظاهر بشهادة قوله سبحانه: (وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُورًا)فقد وصفوا النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) بقولهم: (رَجُلاً مَسْحُوراً) ثمّ قال: (اُنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً) الفرقان:٨ـ٩.: أي انظر كيف وصفوك.

ومنه يظهر معنى قوله سبحانه: (كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ) الرعد:١٧: أي كذلك يصف الله الحق والباطل.

المَثَل: المماثل والنظير، وبذلك يعلم أنّ الأمثال القرآنية ليست بمعنى المثل السائد بين الناس، وإنّما هي تمثيلات لبيان حال إنسان أو طائفة، ولذلك يستعمل تارة في تشبيه إنسان أو طائفة بإنسان آخر أو طائفة أُخرى كما في قوله سبحانه: (وَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ) التحريم:١١..

وأُخرى في بيان حال طائفة دون أن يقصد به التشبيه، ويكون معنى:(وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً)أي بيّن لهم حال طائفة شبيهة بحال كفّار قريش.

القرية: اسم للموضع الذي يجتمع فيه الناس، وربّما تطلق ويراد أهلها، كما في قوله تعالى:(وَ اسْأَلِ الْقَرْيَـةَ) يوسف:٨٢..

المرسلون: إمّا من جانب عيسى(عليه السلام) من الحواريين، أو من الله سبحانه.

فعزَّزنا: فقوّينا وشدّدنا.

البلاغ المبين: الكلام الواضح الذي لا شبهة فيه.

تطيّرنا: تشاءمنا.

لنرجمنّكم: لنرمينّكم بالحجارة.

طائركم: سبب شؤمكم.

يسعى: يمشي مسرعاً.

لا تغني: لا تنفع.

لا يُنقِذون: لا يخلِّصون.

جُند: الجُند: العسكر.

خامدون: الخمود: انطفاء النار، وهو كناية عن الموت.

حسرة: الحسرة: الغمّ على ما فات والندم عليه.

القرون: أهل الأعصار.

لمّا: بمعنى إلاّ.

التفسير

لا شكّ أنّ لأسباب النزول دوراً خاصّاً في تفسير الآيات بحيث يرفع إبهامها ويوضح مفاهيمها ومقاصدها، ولكن المذكور في كتب أسباب النزول أو التفاسير في المقام شيء لا يمكن الاطمئنان إليه والاعتقاد بصحّته كلّه ، خصوصاً أنّ القسم الكبير منه ينتهي إلى وهب بن منبّه، ونحن نذكر ملخّص القصة التي لها دخل في إيضاح الآيات معرضين عن التفاصيل الواردة فيها.

قالوا: بعث النبيّ عيسى(عليه السلام) رسولين من الحواريين إلى مدينة أنطاكية قيل اسمهما: يوحنا و بولس وكان الدين السائد هناك هو الوثنية، ولذلك كُذّب الرسولان وضربا، ثم بعث عيسى(عليه السلام)رسولاً ثالثاً يسمى «شمعون» لينصرهما، فلم ينفع وأجمع القوم على قتل الرسل، فبلغ ذلك الخبر حبيب النجار وهو الذي التقى بالرسولين عند ورودهما المدينة، فآمن بهما وأكرمهما، فجاء يسعى إلى قومه يذكّرهم ويدعوهم إلى طاعة الرسل، ولكن القوم قابلوه بالعنف، فقتلوه، فصار ذلك سبباً لدخوله الجنة لأنّ الرجل باع نفسه لله، فكانت الجنة هي الثمن، والقوم الذين قتلوا حبيب النجار لم يمهلهم الله سبحانه فأهلكهم بالصيحة.

هذا هو حاصل قصة الرسل. وفي أسباب النزول ما يدلّ على أنّ القوم آمنوا بالرسل، والعجب أنّ الطبرسي ينقل ذلك حيث يقول: فلمّا علم شمعون أنّ قوله أثّر في المَلك دعاه إلى الله فآمن وآمن من أهل مملكته قوم وكفر آخرون. مجمع البيان:٢٩٣/٨. وهذا ما ينافي صريح الآيات وهو أنّ الله أهلكهم بالصيحة.

ولذلك يقول السيد الطباطبائي: سياق آيات القصة لا يلائم بعض هذه الروايات.( الميزان في تفسير القرآن:٨٤/١٧.) نعم ما نقله الطبرسي عن ابن إسحاق هو أكثر انطباقاً على سياق الآيات، إذ جاء فيه: بل كفر الملك وأجمع هو وقومه على قتل الرسل، فبلغ ذلك حبيباً وهو على باب المدينة الأقصى فجاء يسعى إليهم يذكّرهم ويدعوهم إلى طاعة الرسل. مجمع البيان:٢٩٣/٨.

١٣. (وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ):

أي اجعل أصحاب القرية مثالاً و شبيهاً لهؤلاء القوم، كما قال: (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ)ووجه الشبه ما جاء في قوله:(إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ) وكان اللائق بهؤلاء القوم الذين جاءهم الرسول أن يؤمنوا به، ولكنّهم، مع الأسف، قد تعصّبوا للباطل واقتفوا آثار الآباء فأخذوا يكذّبونه كما يقول:

١٤. (إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِث فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ ):

وظاهر الآية ـ أعني قوله: (إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ)ـ أنّ الرسولين كانا رسولين من الله سبحانه، ولكن أسباب النزول تحكي عن أنّهما كانا رسولَي رسول الله ـ أعني: المسيح(عليه السلام)ـ فصحّ أن ينسبا إلى الله سبحانه؛ لأنّ رسول الرسول رسول من المرسِل أيضاً. نعم ذهب عدد من العلماء إلى أنّ الرسل كانوا رسل الله أرسلهم تعالى ردءاً لعيسى(عليه السلام) مقرّرين لشريعته كهارون لموسى (عليهما السلام)، ولا يهمنا تعيين ذلك، إذ المهم أخذ العبرة من القصة ونكاتها. وعلى كلّ تقدير (فَكَذَّبُوهُمَا) ولأجل تعزيزهما وشدّ أزرهما أرسل رسولاً آخر كما قال:(فَعَزَّزْنَا بِثَالِث)فكان منطق الثلاثة أمراً واحداً كما يقول:(فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ).

وفي «الكشّاف»: لِمَ قيل (إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ) أوّلاً؟ و(إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ) آخراً؟

والجواب واضح: لأنّ الأوّل ابتداء إخبار، والثاني جواب عن إنكار، فناسب التوكيد. . تفسير الكشّاف:٢٨٢/٣.

١٥. (قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْء إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ):

لا شكّ أنّ الرسل كانوا أصحاب معاجز وكرامات، لأنّ سنّة الله جرت على إعزاز الرسل بالبراهين والبيّنات والتي منها الإعجاز، ومن المعلوم أنّ المعجزة المعروفة للمسيح(عليه السلام) هي إحياء الموتى وإبراء المرضى، فطبيعة الحال تقتضي أنّ هؤلاء الرسل الثلاثة كانوا مزوّدين بإحدى المعاجز التي تقطع الطريق أمام المعاند الجاحد، وتبعث الإنسان المحايد على التصديق والإيمان، ومع ذلك نرى أنّهم قابلوا الحجّة بالسفسطة وذكروا ردّاً عليهم أُموراً ثلاثة:

أ. (قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا) فلا تصلحون للرسالة، كما لا نصلح نحن لها، وكأنّهم كانوا يعتقدون بأنّ المرسَل من جانب الله سبحانه يجب أن يكون من غير سنخ البشر حتى تكون له منزلة فوق منزلة البشر، لكنّهم غفلوا عن أنّ الغاية من إرسال الرسل هي هداية المرسَل إليهم إلى التوحيد والمعارف والأخلاق والأحكام، وأساس ذلك وجود التجانس والتآنس بين الرسول والمرسل إليهم، ليحصل بينهما التفاهم، والمَلَك مهما كان له من مقام رفيع عند الله تعالى يفقد تلك الخصوصية.

ب. (وَ مَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْء) ظاهر هذه الفقرة أنّهم كانوا يعتقدون بالرحمان غير أنّهم يعبدون الأصنام، وعندئذ ينكرون أنّ الرحمان هو الذي أرسلهم، وأمّا ما هو الدليل على هذا الإنكار فليس إلاّ الادّعاء الخاوي.

ج. (إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ) وهذا الوجه الثالث كالثاني نابع عن عناد، حيث ينسبون الكذب إلى الرسل المؤيَّدين بالمعاجز والكرامات التي تثبت أنّهم مرسلون من قبل الله سبحانه.

١٦ و ١٧. (قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ * وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ):

إنّ الرسل أجابوا عن تكذيبهم في المرحلة الأُولى بقولهم: (إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ) وأمّا في هذه المرحلة فقد أجابوهم بجواب يتضمن تأكيداً أكثر، لأنّه يحمل معنى القسم، كما يقول: (قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ) يشهد (إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ) فتضمنت الفقرة التأكيد بقولهم:(رَبُّنَا)وقولهم: (يَعْلَمُ).

ثم أُكّد الجواب بآية أُخرى وهي:(وَ مَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ): أي ليس علينا أن نحملكم على الإيمان، فإنّنا لا نقدر عليه أوّلاً، وليس لمثل هذا الإيمان قدْر ولا قيمة ثانياً.

والإمعان في الآيات يثبت أنّ الرسل كانوا في غاية البلاغة، إذ كلّما ازداد الإنكار عليهم ازداد التأكيد من جانبهم على المدّعى، كما مرّ.

إلى هنا تمّ حوار الرسل مع أصحاب القرية.

ولمّا عجز القوم عن إفحام الرسل وردّ حججهم، توسّلوا بالعنف، كما هو منطق جميع الجبابرة الذين إذا عجزوا عن البرهان توسّلوا بالإرهاب والعنف، وهو هنا التهديد برجم الرسل ورميهم بالحجارة والذي يعدّ عذاباً أليماً.

ومن المحتمل أن يكون قوله:(وَ مَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ) إشارة إلى الدلائل التي أقامها الرسل لإتمام الحجّة على أهل القرية، وهي إمّا دلائل عقلية، وإمّا كرامات زوّدهم الله تعالى بها، إذ من البعيد أن يُبعث الرسل إلى قوم غارقين في الوثنية دون أن يؤيّدوا بالكرامات، أو بالدلائل الباهرات. هذا ومن عادة الجهّال والمعاندين حينما يعجزون عن مواجهة منطق المصلحين وحججهم الساطعة، أن يعمدوا أوّلاً إلى إثارة الشبهات حولهم ورميهم بشتى التُّهم، ثم محاولة القيام بتصفيتهم جسدياً ثانياً، والتاريخ يحدثنا في القرن الرابع عشر أنّ المصلحين في الأقطار العربية والإسلامية لما نادَوا بإصلاح المجتمع وتحريره من سلطة الأجنبي، رموهم أوّلاً بالجاسوسية والماسونية إلى غير ذلك من التهم، ثم دخلوا من باب آخر وهو قتلهم وتصفيتهم، وكأنّهم جعلوا الأمر الأوّل مقدّمة لتهيئة الأجواء والأفكار العامّة لأجل قبول الأمر الثاني، وهو قتل هؤلاء وخنق صوت الحق المنطلق من حناجرهم. ونحن نرى في الآية التالية كلا الأمرين، حيث اتّهموهم بأنّهم شؤم قد حلّ في أوساطهم، ثم أخذوا في تهديدهم بالقتل رمياً بالحجارة، كما قال:

١٨.( قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ):

لقد اعتاد الجهّال أن يتفاءلوا بكلّ شيء قبلته طباعهم، ويتشاءموا من كلّ شيء كرهتْه، فإن أصابتهم نعمة قالوا هذا أثر ما تفاءلنا به، وإن أصابهم بلاء قالوا هذا ممّا تشاءمنا منه، وعلى هذا الأساس خاطبوا الرسل بقولهم: (إِنَّا تَطَيَّرْنَا): أي تشاءمنا (بِكُمْ) فوجودكم شؤم نخاف منه (لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا)من الدعوة إلى التوحيد والإعراض عن عبادة الآلهة (لَنَرْجُمَنَّكُمْ)نرميكم بالحجارة (وَ لَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ) وهو القتل.

١٩.(قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ):

وهنا ردّ عليهم الرسل بوضوح وقوّة يعبّران عن شجاعة في الموقف واستعداد للتضحية ابتغاء مرضاة الله، وأجابوا عن هذا التشاؤم بأمرين:

أ. (قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ): أي سبب شؤمكم معكم كامنٌ في نفوسكم، وهو الإعراض عن الله سبحانه والالتجاء إلى ما لا يَرى ولا يَسْمع، ويتبيّن ذلك إذا ذكِّرتم ورجعتم إلى عقولكم وفطرتكم.

ب. (بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ): أي متمادون في غيّكم.

وليس في الآيات ما يشير إلى مصير الرسل هل قُتلوا أو لا؟ ولكن الآيات تشير إلى جانب آخر من القصة، وهو أنّ الرجل الذي استجاب لدعوة الرسل عند ورودهم المدينة لمّا وقف على عناد قومه وتهديدهم الرسل، أقبل إلى داخل المدينة ليدعو قومه إلى الحقّ، ويرشدهم إلى اقتفاء أثر الرسل كما صرّحت بذلك الآية التالية:

٢٠. (وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ):

الآية تركّز على موقف هذا الرجل وحرصه الشديد على تحمّل مسؤوليته في دمغ الكفر والضلال بكلمة الحق والإيمان، حيث جاء إلى المدينة من أبعد مواضعها، يمشي مسرعاً كما يقول: (وَ جَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى)ولم يذكر اسم الرجل لأنّ المهم عمله وأقواله، غير أنّ بعض الروايات تسمّيه بـ«حبيب النجار» فخاطب قومه بقوله:(قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ) ثم استدلّ على وجه لزوم اتّباع الرسل:

٢١. (اتَّبِعُوا مَنْ لاَ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ):

استدلّ الرجل على لزوم اتّباع الرسل بالوجوه التالية:

الأوّل: أنّهم لا يطلبون أيّ أجر وجزاء إزاء ما قدّموه من جهد في النصح والتبليغ، ولا يستهدفون أية مصلحة شخصية في دعوتهم، وإنّما هم رجال رساليّون يريدون الخير والصلاح لجميع الناس، وهذا يدلّ على أنّ دعوتهم دعوة روحية محضة لا علاقة لها بالدنيا وزخارفها.

الثاني: أنّهم، في ذات الوقت قد هداهم الله تعالى إلى طريق الحقّ وسلكوا سبيله قولاً وعملاً، كما قال: (وَ هُمْ مُهْتَدُونَ).

٢٢. (وَ مَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ):

الثالث: أنّهم يدعون إلى التوحيد وإلى إخلاص العبادة له سبحانه، لكونه تعالى هو الخالق الفاطر. ومن هنا صدّقهم هذا الرجل في دعوتهم، وقال: (وَ مَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي): أي وما يمنعني من عبادة الذي خلقني وأوجدني من العدم (وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ): أي تُردّون إليه يوم القيامة فيجازيكم على أعمالكم. وفي قوله هذا تعريض بقومه الذين أعرضوا عن عبادة الخالق سبحانه، وإنّما ابتدأ قوله بإسناد الخبر إلى نفسه، ولم يقل: «وما لكم لا تعبدون...» مداراة لهم وخوفاً من أن يثير شعورَهم بالكبرياء فتأخذهم العزّة بالباطل.

ثمّ تقدّم هذا الرجل خطوة في التعريض بسلوكهم وعبادتهم، فقال:

٢٣ و ٢٤. (أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لاَ تُغْنِ عَنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلاَ يُنْقِذُونَ * إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ):

هذا هو الاستدلال الرابع إذ أنّه تعرض في الآية الأُولى لأوثانهم وحكم عليها بأنّها ليست بآلهة وقال: (أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً) مشعراً بأنّ آلهتهم ليس لها من الألوهية إلاّ الاسم. ثم استدلّ على سلب الأُلوهية عنها بقوله: (إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ): أي الواسع الرحمة، وهو الله الخالق الذي اتّفقنا عليه (بِضُرٍّ لاَ تُغْنِ عَنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلاَ يُنْقِذُونَ): أي لم يقدروا على إنقاذي.

ثمّ إنّه وصف عبّاد الأصنام بالضلال، ولكنّه ـ مداراة لهم ـ نسب الضلال إلى نفسه فقال: (إِنِّي إِذًا) لو عبدت الأصنام (لَـ)كنت (فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ): أي واضح.

والحقّ أنّ دعوة هذا الرجل واحتجاجه كان من أقوى الاحتجاجات، حيث مزج فيه بين الترغيب والترهيب، وأمّا آخر كلامه معهم فهو صرخة الإيمان في وجه الضلال، وإعلان جريء لموقفه مهما كلّفه ذلك من ثمن:

٢٥. ( إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ):

أي إنّي آمنت بربّ الرسل، وليكن الحضور شاهدين على إيماني وسامعين لكلامي.

إلى هنا تمّ احتجاج نصير الرسل الذي جاء من أقصى المدينة، ولكنّ قومه لم يرحموه وصمّموا على قتله، وهو وإن لم تذكره الآية ، ولكن يعلم من خطاب الله سبحانه له بدخول الجنة وغفران ذنوبه، أنّ القوم قتلوه.

٢٦. (قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ):

تدلّ هذه الآية والآيات التالية على أنّ نصيب هذا الرجل يضادّ نصيب القوم الذين قتلوه، أمّا نصيب هذا الرجل المنادي بالتوحيد المستعدّ للشهادة فهو ما يلي:

أ. (قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ) خوطب بالأمر بدخول الجنة دفعة دون أن تتوسّط فترة بين شهادته ودخول الجنة، والرجل وإن تحمّل العذاب الأليم حيث ورد أنّهم قتلوه رجماً بالحجارة ولكن باع نفسه واشترى الجنة. ثم إنّه أرسل من الجنة هذا البلاغ إلى قومه:(قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ): أي يُخبَرون:

٢٧. (بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ):

أي تمنّى علم قومه بالمصير الذي انتهى إليه وهو أنّ الله سبحانه غمره بالرحمة أوّلاً بغفران ذنوبه كما قال: (بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي). وثانياً: شمول كرامة الله له حيث صار من عباده المكرمين كما قال:(وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ).وهكذا هو حال المؤمن.. روحاً متسامحة محلّقة في آفاق المكارم، ونفساً متسامية في المشاعر والعواطف، وقلباً مشرقاً بحب الخير للناس، مطهّراً من دنس الأحقاد والأضغان.

هذا هو نصيب الرجل في طريق الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: الغفران، والكرامة، وأمّا نصيب قومه فسيوافيك بيانه بعد ذكر أمر مهمّ، وهو:

أنّ الآية تدلّ على وجود الحياة البرزخية حيث إنّ الرجل بعدما خوطب بدخول الجنة أرسل بلاغاً منها إلى قومه وأنّه سبحانه فعل في حقّه كذا و كذا، ومع ذلك كيف يمكن لمؤمن متعبّد بظواهر القرآن أن ينكر الحياة البرزخية؟

إنّ هذه الآية كقوله سبحانه في حقّ الشهداء:(بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) آل عمران:١٦٩. شاهدة على الحياة المسمّاة بالحياة البرزخية أي حياة متوسطة بين الحياة الدنيوية والحياة الأُخروية، فهذا الرجل كسائر الشهداء حيّ عند ربّه يرزق كما أنّ الشهداء يرزقون، والمراد من قوله: (عِندَ رَبِّهِمْ): أي في الجنّة التي أُعدت لهم قبل يوم القيامة.

والحقّ أنّ الرجل من مصاديق قول الإمام علي(عليه السلام):«أَيُّهَا النَّاسُ لاَ تَسْتَوْحِشُوا فِي طَرِيقِ الْهُدَى لِقِلَّةِ أَهْلِهِ».( نهج البلاغة: الخطبة ٢٠١.) حيث نهض بمفرده في وجه القوم وهو يعلم أنّ مثل هذا العمل يعرّضه لخطر عظيم.

ثمّ إنّ الذكر الحكيم لم يُشر إلى مصير المرسلين، فهل قُتلوا كما قُتل ناصرهم أو أنّه سبحانه نجّاهم من أيديهم؟ الله أعلم بذلك.

هذا، وإنّ في قوله: (قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ) دليل على وجود الصلة بين البرزخيّين والدنيويّين حيث إنّه (قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ) وهذا إن دلّ على شيء فيدلّ على وجود الصلة بين الشهداء وغيرهم، وأنّ الموت لا يكون سدّاً مانعاً عن الاطّلاع، ويؤيد ذلك قوله سبحانه:(فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ) آل عمران:١٧٠، فمعنى قوله: (وَ يَسْتَبْشِرُونَ): أي يبشرون بالذين لم يلحقوا بهم، بقرينة قوله: (أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ)، فما عن الوهابيّين من انقطاع الصلة بين الأحياء والشهداء والأنبياء والأولياء يخالف صريح الآيتين. ولا أدري كيف يمكن لمسلم أن ينكر الصلة وهو في كلّ يوم يخاطب نبيّه عدّة مرّات في صلاته ويقول: السلام عليك أيّها النبيّ ورحمة الله وبركاته؟!

ويشهد لذلك أيضاً أنّ النبيّ الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) كلّم صناديد قريش من قتلى بدر الذين أُلقيت أجسادهم في قليب بدر.

روى البخاري عن أبي طلحة: أنّ نبي الله(صلى الله عليه وآله وسلم) أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش، فقُذفوا في طَوِيٍّ من أطواء بدر خبيث مُخبِث... إلى أن قال: فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم، «يا فلان بن فلان، ويا فلان بن فلان، أيَسُرُّكُم أنَّكُم أطعْتُمُ الله ورسولَه، فإنّا قد وجدنا ما وعدنا ربّنا حقّاً، فهل وجدتم ما وعد ربّكم حقّاً؟» قال: فقال عمر: يا رسول الله ما تُكلّم من أجساد لا أرواح لها؟ فقال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم):«والذي نفس محمد بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم». صحيح البخاري:٩٧١، كتاب المغازي، برقم٣٩٧٦.

وقد روى غير واحد من المحدّثين أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) قال: «سبّاق الأُمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين: علي بن أبي طالب(عليه السلام)، وصاحب ياسين، ومؤمن آل فرعون».وفي رواية أنّه(صلى الله عليه وآله وسلم)قال: الصدّيقون ثلاثة... ثمّ عدّ الثلاثة المذكورين.

والحديث المذكور (مع اختلاف في ألفاظه) مرويّ عن الصحابة: جابر الأنصاري، وابن عباس، وأبي ليلى الأنصاري. انظر: تفسير القرطبي:١٥/٢٠؛ وتاريخ مدينة دمشق:٤٢/٤٣؛ وتخريج الأحاديث و الآثار للزيلعي:٣/١٦٣؛ والدر المنثور:٧/١٥٢ـ١٥٣.

ثمّ إنّ ابن كثير وصف الحديث بأنّه منكر.

أقول: ما وصفه بالنكارة إلاّ لوجود عليّ(عليه السلام) من ضمن الثلاثة، وإلاّ لو كان مكانه أحد الثلاثة لوصفه بأعلى درجة من الصحّة، و إلى الله المشتكى!!

٢٨ و ٢٩. (وَ مَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْد مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ * إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ):

## مصير أصحاب القرية

عاد البيان القرآني إلى ذكر أنّ استئصالهم لم يكن بإنزال جند من السماء لأنّ شأن العاصين أدون وأهون من أن يحتاج إلى ذلك، كما قال:(وَ مَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ): أي قوم الرجل المقتول (مِنْ بَعْدِهِ): أي من بعد قتله (مِنْ جُنْد مِنَ السَّمَاءِ) وهم الملائكة (وَ مَا كُنَّا مُنْزِلِينَ): أي ليس من ستّتنا إهلاك واستئصال المكذّبين بالملائكة، وإنّما نهلكهم بأسباب أُخرى. وهؤلاء ما كان إهلاكهم إلاّ بالصيحة، كما يقول: (إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ) والصيحة هي الصوت الشديد، والظاهر أنّ المراد بها الصاعقة. ولفظة «إذا» الفجائية، تدلّ على عدم الفاصل الزماني بين الصيحة وخمودهم، فشبّه سرعة هلاكهم بخمود النار.

٣٠. ( يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُول إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ):

ثمّ إنّه سبحانه بعد أن ذكر مصير القوم الذين أُرسل إليهم الرسل الثلاثة، عاد إلى إعطاء الضابطة لكلّ من يشاركهم في تكذيب الرسل وأنّ كلّ أُمّة كذّبت الرسل يلحقها أشدّ الندم على موقفها هذا، وهم أحقّاء بأن يتحسّروا على أنفسهم في الحياة الدنيا إذ فوّتوا عليها السعادة الأبدية وتعرّضوا للعذاب الأليم كما قال: ( يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ)ويحتمل أن يكون المراد حسرتهم وتلهفهم يوم القيامة، وما ذلك إلاّ لأنهم (مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُول إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) وقد كانت نتيجة ذلك الاستهزاء هي استئصالهم وهلاكهم كما يقول:

٣١. (أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ):

الضمير في قوله:(أَلَمْ يَرَوْا) يرجع إلى العباد المذكورين في قوله: (يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ)، وهم عامّة الناس، كما أنّ الضمير في (قَبْلَهُمْ) يرجع إليهم أيضاً، لكنّ الضمير في (أَنَّهُمْ)يرجع إلى القرون باعتبار أنّ المراد هم أهل الأعصار، وأمّا الضمير في (إِلَيْهِم) فيرجع إلى العباد، فصارت الضمائر الثلاثة راجعة إلى العباد غير أنّ واحداً منها يرجع إلى القرون.

قوله تعالى:(أَلَمْ يَرَوْا): أي هؤلاء العباد (كَمْ أَهْلَكْنَا): أي كثرة إهلاكنا مَن (قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ): أي أهل الأعصار الذين كذّبوا

رسلهم مثل قوم نوح وهود وصالح (أَنَّهُمْ) أي المكذّبين (إِلَيْهِمْ)إلى هؤلاء العباد (لاَ يَرْجِعُونَ)، فلماذا لا يعتبرون بهم؟

وحاصل الآية: ألم يروا أنّ القرون التي أهلكناهم لا يرجعون إليهم أي لا يعودون إلى الدنيا، أفلا يعتبرون بهم؟ أي إنّكم ستصيرون مثل حالهم فانظروا لأنفسكم واحذروا أن يأتيكم الهلاك وأنتم في غفلة وغِرّة، كما أتاهم. مجمع البيان:٨/٢٩٨.

وهنا أودّ الإشارة إلى معنى كلمة «القرن» في حديث ورد عن النبيّ الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم)، فقد روي عنه(صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه قال: «خير الناس قرني، ثم الذين يَلُونَهم، ثم الذين يَلُونهم...». صحيح البخاري:٢/١٧٠، كتاب الشهادات، الباب ٨ ، برقم ٢٦٥٢.

وقد جعل ابن تيمية وممّن يسمّون أنفسهم بالسلفيّة ـ اعتماداً على هذا الحديث فتح الباري في صحيح البخاري:٦/٧، باب فضائل أصحاب النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)ـ جعلوا المقياس في تمييز البدعة عن السنّة، هو القرون الثلاثة الأُولى بعد رحيل الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)، فما حدث فيها فهو سنّة وما حدث بعدها فهو بدعة. الهدية السنية، الرسالة الثانية:٥١.

أقول: إنّ القرن ـ لغة ـ هو الأُمّة تأتي بعد الأُمّة، وفسّره غير واحد من علماء اللغة بأهل زمان واحد، وأنّه مأخوذ من الاقتران، فكأنّه المقدار الذي يقترن فيه أهل ذلك الزمان في أعمارهم وأحوالهم، واستشهدوا لذلك بقول الشاعر:

إذا ذهب القرن الذي أنت فيهمُ *** وخُلِّفتَ في قرن، فأنت غريبُ[٣]

[٣]لسان العرب:١٣/٣٣٣؛ مجمل اللغة لابن فارس: ٣ / ٧٤٩؛ مختار الصحاح:٥٣٢، مادة «قرن».

وبهذا المعنى استعمل في القرآن الكريم، قال سبحانه:(فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ) الأنعام:٦.، وأين هذا كلّه من تفسير الحديث ـ فيما لو افترضنا صحّته ـ بثلاثمئة سنة؟!

ثمّ إنّ مضمون الحديث لا ينطبق على الواقع، فكيف تكون هذه القرون الثلاثة خير القرون، وقد ظهر المارقون (الخوارج) بعد التحكيم في سنة(٣٧هـ)؟ وظهرت المرجئة الذين دعوا المجتمع الإسلامي إلى التحلّل الأخلاقي في نهاية المئة الأُولى حتى دبّ الإرجاء بين المحدّثين وغيرهم في المئة الثانية؟ وقد ذكر أسماءهم جلال الدين السيوطي في «تدريب الراوي»، كما ظهر، في هذا العصر، النَّصب (وهو بغض الإمام علي(عليه السلام)) بين عدد من المحدّثين، وقد أورد السيوطي أسماءهم في كتابه المذكور. تدريب الراوي:١/٣٢٨ـ٣٢٩، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف.

هذا إذا كان الميزان في عدّ القرن خيراً هو النظر إلى الحالة الفكرية والعقدية، وأمّا إذا كان الملاك هو صفاء المجتمع من حيث السلم والصلح وشيوع الأمن والعدل، فهذا ما تكذّبه الوقائع التاريخية، فقد شهد عام ٣٥ للهجرة مقتل عثمان في داره، وفي عام ٣٦ وقعت معركة الجمل بسبب قيام طلحة والزبير بنكث بيعتهما لعلي(عليه السلام)، وفي عام ٣٧ وقعت حرب صفين بسبب تمرّد معاوية على الخليفة الشرعي (أعني الإمام عليّاً(عليه السلام) الذي بايعه المهاجرون والأنصار)، إلى غير ذلك من الحوادث المرّة كمقتل الصحابي الجليل حُجر بن عديّ الكنديّ وأصحابه، على يد معاوية الذي أُميتت السنّة في عهده، وعُطّلت الأحكام، وفشا الظلم والجور، حتى قال الشاعر عقيبة بن هبيرة الأسدي:

أكلتم أرضنا وجذذتموها *** فهل من قائم أو من حصيدِ

فهَبنا أُمّةً هلكت ضَياعاً *** يزيد أميرها وأبو يزيدِ

ذَروا جورَ الخلافة واستقيموا *** وتأميرَ الأراذل والعبيد[٤]

[٤]العقد الفريد:٦/١٦٨ـ ١٦٩؛ خزانة الأدب:٢/٢٢٩(وفيه: فَجَرَدْتموها، بدل وجذذتموها).

وفي ذلك العصر، وبالتحديد في سنة (٦١هـ)، وقعت الفاجعة الكبرى، وهي مقتل ريحانة رسول الله الحسين بن علي(عليهما السلام) وأولاده في كربلاء، ووقعة الحَرّة بالمدينة المنوّرة في سنة (٦٣هـ)، والتي استحلّ فيها جيش الشام أعراض المسلمين ثلاثة أيام، إلى

غير ذلك من الحوادث المريرة، التي حفلت بها المئات: الأُولى والثانية والثالثة بعد الهجرة.

فإذا كانت هذه الفترة خير القرون، فما هو حال شرّ القرون؟!

ومن أراد مزيد اطّلاع فليرجع إلى كتابنا «السلفية.. تاريخاً ومفهوماً وهدفاً».

٣٢. ( وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ):

الظاهر أنّ (إنْ) نافية، وأنّ (لمّا) بمعنى إلاّ، أي أنّ أهل الأعصار الغابرة وإن أهلكوا في أزمنة مختلفة لكن الجميع يبعثون في يوم واحد ويحضرون أمام الله سبحانه، كما قال: ( وَإِنْ كُلٌّ): أي كلّ الماضين والباقين(لَمَّا): أي إلاّ (جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ): أي محضرون عندنا، أي كلهم مجتمعون للحساب والجزاء، قال سبحانه: (ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ). هود:١٠٣.

## الآيات ٣٣ ـ ٤٤ (وَآيَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا ... إِلاَّ رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ).

### الآيات: الثالثة والثلاثون إلى الرابعة والأربعين

(وَآيَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ * لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ * سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ * وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ * وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ * وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ * وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلاَ صَرِيخَ لَهُمْ وَلاَ هُمْ يُنْقَذُونَ * إِلاَّ رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ).

### المفردات

نسلخ: السلخ: أصله: كشط الجلد عن الشاة، واستعير هنا لإزالة الضوء وكشفه عن أماكن الأرض التي يغشاها الليل.

مظلمون: داخلون في الظلام.

لمستقرٍّ لها: نحو مستقرها وسكونها بانقضاء أجلها، وكأنّ اللام بمعنى «إلى».

قدّرناه: سيّرنا مسيره في منازل.

منازل: هي مواقع القمر المتتالية في السماء، وهي ثمانية وعشرون منزلاً بعدد الليالي التي يُرى فيها القمر.

عاد: صار.

العرجون: العود الذي عليه شماريخ التّمر، فإذا أتى عليه الحَوْل تقوّس ودقّ واصفرّ.

ينبغي لها: أي لا يتيسر لها أن تدرك القمر.

فَلَك: مدار الكواكب.

يسبحون: السباحة: الجري في الماء، استعير هنا لسير الكواكب في الفضاء في مدارها الخاص.

ذرّيتهم: يطلق على صغار الأولاد، وأُريد به هنا الصغار والكبار.

الفُلك: السفينة.

المشحون: المملوء بالركّاب.

صريخ: مغيث.

### التفسير

تضمّنت هذه المجموعة من الآيات الأربعة عشرة، دلائل وبراهين عقلية تدلّ على أمرين:

أ. إمكان البعث وإحياء الموتى عن طريق إرائة نماذج من الإحياءات في هذه الدنيا، وقد قلنا إنّ الحياة الأُخروية من الأُمور التي كان ينكرها المشركون بجدّ، لأنّهم كانوا يخافون وجود حساب وجزاء لأعمالهم الإجرامية.

ب. توحيد العبادة وأنّه سبحانه هو اللائق بها لأنّه خالق هذا الكون ومبدعه بكلّ ما فيه ومَن فيه، وأمّا غيره فمخلوق لله وخاضع له.

وكانت هاتان المسألتان تشغلان بال المشركين ومن ثم ركّزت الدعوة النبوية عليهما. وإليك رؤوس هذه الآيات الكونية:

١. إنّه سبحانه أحيا الأرض بإنزال المطر، فأنبت فيها الحبّ وأنشأ جنّات من نخيل وأعناب وفجّر العيون بين ثناياها لتُسقى بها الجنّات.

٢. وخلق الأزواج ممّا تنبت الأرض إمّا بصورة أصناف مختلفة، أو أزواج حقيقية على ما يأتي.

٣. وخلق الأزواج من الناس من ذكر وأُنثى.

٤. وخلق الأزواج ممّا لا يعلم الناس حقيقته من المخلوقات.

٥. وينزع نور النهار عن الليل، فتأتي الظلمة.

٦. وخلق الشمس جارية إلى مستقر لها ينتهي إليه سيرها.

٧. وجعل للقمر منازل يسير فيها حتى يكون في نهاية سيره كالعرجون القديم.

٨ . وجعل للشمس مسيراً خاصّاً بحيث لا تدرك القمر فيختل النظام.

٩. وجعل الليل والنهار متعاقبين في التدبير.

١٠. وجعل كلاًّ من الشمس والقمر يجريان في مدار خاص لا يتخلّفان.

١١. وهو الذي حمل ذرية آدم في الفلك المشحون عندما تعلّقت مشيئته بغرق من في الأرض.

إنّ التدبّر في هذه الآيات التي أشارت إلى عدد من الظواهر الكونية، يدفع الإنسان إلى الإذعان بأمرين:

١. أنّ لدار الوجود ربّاً يديرها ويدبّرها، وأنّه يستحيل أن يجري هذا النظام البديع بلا مدبّر، وهو أحكم وأبدع من أن تدبّره هذه الأصنام والأوثان.

٢. أنّ اليد التي أبدعت هذا الكون وأحكمت تدبير كلّ أمر من أُموره، قادرة على إعادة الخلق من جديد، وبعثهم للحساب والجزاء.

إذا عرفت ذلك فلنفسّر هذه الآيات واحدة بعد أُخرى.

٣٣. (وَآيَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ):

البرهان الأوّل: جرت سنّة الله تعالى في كتابه المجيد على الاستدلال على المعارف العقلية بالأُمور المحسوسة الواضحة التي تدلّ على النتيجة المطلوبة لوضوحها، ولا يحوم حول الأدلّة المعقّدة التي تختصّ بالأدمغة الكبيرة إلاّ في موارد نادرة تقتضيها الحال، و الآية تعرض مشهداً رائعاً وهو بثّ الحياة في الأرض الميتة الجامدة الهامدة، حيث تهتزّ وتربو وتخضرّ وتجود بالعطاء بعد أن تشملها الرحمة الإلهية وينزل عليها المطر، يقول سبحانه: (وَآيَةٌ لَهُمْ): أي للمشركين (الأَرْضُ الْمَيْتَةُ) الهامدة (أَحْيَيْنَاهَا)بالمطر وأشعة الشمس (وَ أَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا) من الحنطة والشعير والأرز والذّرة ونحوها (فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ)حيث يشكّل الحبّ، بأجناسه المذكورة، مادّة رئيسية لتغذية الإنسان والحيوان، فلو دام همود الأرض لاختلّت الحياة عامّة، فمن الذي بعث فيها الحياة بعد موتها، وجعلها تهتزّ بعد همودها، وتندى بالخير بعد جفافها؟ فقضية الإحياء إذاً بعد الممات، على وجه الاستمرار ـ كما في إحياء الأرض الميتة ـ

آية وحدة التدبير كما أنّها دليل وحجّة قاطعة على إمكان البعث والإحياء يوم القيامة الذي مرّ الحديث عنه قبل هذه الآيات حيث قال: (وَ إِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ).

ثمّ الظاهر أنّ قوله: (وَ آيَةٌ لَهُمُ) خبر مقدّم للمبتدأ المتأخّر أي (الأَرْضُ الْمَيْتَةُ)، وكأنّه قال: الأرض الميتة آية لهم.

٣٤. (وَ جَعَلْنَا فِيهَا جَنَّات مِنْ نَخِيل وَأَعْنَاب وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ):

تحدّثت الآية السابقة عن الحبوب التي تغذّي الإنسان والحيوان، بينما تحدّثت هذه الآية عن بساتين من نخيل تحمل التّمر بأنواعه المختلفة في الطعم والخصائص، وأعناب بأصنافها المتنوّعة وثمارها المختلفة الألوان من سوداء أو زرقاء أو بنفسجية أو حمراء أو بيضاء، كما يقول:(وَ جَعَلْنَا فِيهَا جَنَّات مِنْ نَخِيل وَأَعْنَاب). ثم ذكر آية أُخرى من آيات قدرته وتدبيره، وهي شقّ الأرض ونبوع الماء منها جارياً على وجهها فيمنحها الحياة ويروي الجنّات، كما قال: (وَ فَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ) .

٣٥.(لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ):

الآية تتضمّن بيان الغاية من إنشاء جنّات النخيل والأعناب وتفجير العيون، وليست هي إلاّ انتفاع الإنسان من ثمار هذه الأشجار، كما يقول:

(لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ). واعلم أنّ النخيل جمع نخلة، وهو اسم للشجرة، ويطلق على ثمرتها الرُّطب والتّمر، وأمّا الأعناب فجمع عنب، وهو اسم للثمرة واسم للشجرة أيضاً (الكَرْم)، ولعلّ المراد بها نفس الشجرة بشهادة قوله:(مِنْ ثَمَرِهِ)والضمير يرجع إلى المجعول من الجنّات ولذا أُفرد وذُكِّر، أو إلى المذكور فيكون المعنى: ليأكلوا من ثمر ما ذكرنا من الجنّات.

ثمّ إنّه سبحانه أشار ـ مضافاً إلى الأكل من ثمرات الجنّات ـ إلى منفعة أُخرى، فقال: (وَ مَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ)وكأنّ الأوّل عبارة عن ثمرات ما للخالق فيها صنع دون غيره، وأمّا المعطوف فأُريد به ما للبشر فيه صنع كالأشربة المتّخذة من التمر والعنب. وعلى كلّ تقدير فاللائق بالإنسان العاقل، بعد أن وقف على هذه الدقّة المدهشة في الخلق وفي التقدير والتدبير، أن يشكر الله تعالى على نعمه بعبادته وطاعته في ما أمر به ونهى عنه كما قال:أَفَلاَ يَشْكُرُونَ).

٣٦. (سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ):

البرهان الثاني: قوله تعالى: (سُبْحَانَ الَّذِي) إنشاء لتنزيهه سبحانه عن الشرك في العبادة أو عن العجز عن إحياء الموتى، فإنّ القادر على خلق الأزواج هو القادر على بعث الموتى. ثمّ إنّه سبحانه تحدّث في هذه الآية عن أُمور ثلاثة:

أ. (خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ).

قسّم سبحانه الأزواج إلى قسمين: أوّلهما: ما يعلمه الإنسان، وحصره هنا بالنبات وبأنفسهم. والثاني: ما لا يعلمه الإنسان، وهو ما في قوله:(وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ).

وهل الأزواج هنا بمعنى الأصناف كما عليه أكثر القدماء حيث يفسّرون الأزواج في النباتات بمعنى الأصناف، أو أنّ الآية تشير إلى نظام الزوجية بمعنى الذكر والأُنثى في عالم النباتات؟ ويؤيد الثاني قوله تعالى:(وَمِنْ كُلِّ شَيْء خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ). الذاريات:٤٩.

إنّه سبحانه يحدّثنا عن وجود الأزواج في النباتات، وكانت العرب في عصر الرسالة تعرف وجود الزوجية في النخيل، ولذلك كانوا يؤبرون النخل لكي يثمر، ولكن لم يكن لهم علم بسعة الزوجية في عالم النباتات، إلاّ أنّ البحوث العلمية أثبتت أنّ الضابطة عامّة في عالم النباتات. ومن الغريب ما أخرجه مسلم في صحيحه عن موسى بن طلحة، عن أبيه طلحة بن عبد الله التيمي قال: مررت مع رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)بقوم على رؤوس النخل، فقال: ما يصنع هؤلاء؟ فقالوا: يلقّحونه يجعلون الذكر في الأُنثى

فيتلقّح.

فقال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): ما أظن يغني ذلك شيئاً، قال: فأُخبروا بذلك فتركوه، فأُخبر رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) بذلك، فقال: إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه، فإنّي إنّما ظننت ظنّاً فلا تؤاخذوني بالظنّ، ولكن إذا حدّثتكم عن الله شيئاً فخذوا به، فإنّي لن أكذب على الله عزّ وجلّ. صحيح مسلم:٧/٩٥، باب وجوب امتثال ما قاله(صلى الله عليه وآله وسلم) شرعاً دون ما ذكره(صلى الله عليه وآله وسلم) من معايش الدنيا على سبيل الرأي.

ونحن لا نعلّق على الحديث إلاّ بشيء مختصر:

أوّلاً: نفترض أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) لم يكن نبيّاً، ولكنّه كان عربياً صميماً عاش بين النخيل في سفره إلى الطائف وإلى الشام، فهل يمكن أن يخفى عليه أنّ النخيل لا يثمر إلاّ بالتلقيح؟ فما معنى سؤاله:(ما يصنع هؤلاء؟ فيجيبونه: أنّهم يلقحونه)؟!

ثانياً: أنّ التلقيح سنّة من سنن الله في الطبيعة، فكيف خفيت على النبيّ، وغابت عنه أبسط السنن الجارية في الحياة؟ وأسوأ من ذلك ما نقلوه من عذر النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) حيث قال ـ كما يدّعون ـ : «إنّما أنا بشر إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإن أمرتكم بشيء من رأيي فإنّما أنا بشر». شرح النووي على صحيح مسلم:٥/١٢٦، الباب ٣٨، كتاب الفضائل.

ب. (وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ) وهو أمر واضح قال سبحانه: (إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَر وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ) الحجرات:١٣..

ج. (وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ) وهو الذي يجهله الإنسان في هذا العالم ممّا لا طريق للإنسان إلى معرفته تفصيلاً، فظاهر الآية وجود الزوجية فيما تنبت الأرض وفي الإنسان وفيما لا يعلم الإنسان كنهه وحقيقته.

ويعجبني أن أذكر قصة حضرتها في مجلس سيد مشايخنا المحقّق البروجردي، إذ أُخبر برغبة طبيب سويدي في لقائه، وكان هذا الطبيب قد عُيّن رئيساً للمؤتمر الذي يقام في تلك السنة حول أخطار المشروبات الروحية. فأذن له السيد، فدخل ومعه المترجم الإيراني ورحّب بهما السيد، ثمّ دار بين السيد والطبيب السويدي حوار هذا إجماله:

الطبيب السويدي: لماذا حرّم الإسلام المشروبات الروحية؟

السيد البروجردي: امتياز الإنسان عن الحيوان بالعقل، والخمر عدوّ العقل.

الطبيب السويدي: المسكر هو الشرب الكثير، فلماذا منع عن شرب القليل؟

السيد البروجردي: طبيعة الإنسان هو طلب المزيد، فلو رخّص بالقليل فهو يتجاوزه شيئاً فشيئاً ويصبح خِمّيراً.

الطبيب السويدي: سيُعقد مؤتمر في أنقرة حول تعاطي المشروبات الروحية، فنطلب منكم بياناً يوضح للمجتمعين في المؤتمر نظر الإسلام فيه.

تأمّل السيد البروجردي قليلاً وأجال بنظره في الحاضرين فرأى العلاّمة الطباطبائي، فقال مشيراً إليه: السيد محمد حسين الطباطبائي التبريزي أحد علماء الإسلام له تفسير، فيمكن أن يحرّر مقالة في هذا المضمار ثم يرسلها إلى المؤتمر.

إلى هنا تمّ الحوار الدائر بين الطرفين، غير أنّ السيد استشعر بأنّ المحاوِر إنسان منصف فأراد إيقافه على بعض معاجز القرآن، فقال بعد كلام: إنّ القرآن الكريم يصرّح بوجود الزوجية في كلّ شيء ويقول: (وَمِنْ كُلِّ شَيْء خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) الذاريات:٤٩.فمن أين وقف النبيّ الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم)الذي عاش بين الأُميّين على تلك الحقيقة الكونية؟! كلّ ذلك ببركة الوحي.

٣٧. (وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ):

البرهان الثالث: انتقل من الآيات الأرضية السفلية إلى الآيات العلوية حيث كان الموضوع في الآيات السابقة عن الأرض وحياتها وما فيها من جنّات وعيون وما فيها من أزواج إلى غير ذلك.

لكنّه في هذه الآية انتقل إلى عوالم فوقانية وابتدأ بذكر ظاهرة التبادل بين الليل والنهار. ولأهمية هذه الظاهرة وعميق دلالتها على عظيم قدرته وكمال حكمته في تدبيره، أشار إليها تعالى في مواضع عديدة من كتابه المجيد بصيغ مختلفة، فتارة يعبّر عنها بالاختلاف، كما في قوله: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ) آل عمران:١٩٠: أي يخلف كلّ واحد منهما صاحبه، وأُخرى بالتكوير، كما في قوله:(يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ) الزمر:٥، وثالثة بالإيلاج، كما في قوله: (يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ) فاطر:١٣.إلى غير ذلك من العبارات. وفي هذه الآية عبّر عنها بسلخ النهار حيث قال: (وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ)والسلخ عبارة عن إزالة الجلد عن جسم الحيوان، وفي هذا التعبير تشبيه رائع، يتّضح من خلال هذا العرض:

لقد أثبت العلماء أنّ طبقة النهار المنيرة عبارة عن حزام رقيق يبلغ سمكه نحو (٢٠٠كم) فوق مستوى سطح البحر، وهو يغلّف نصف الأرض المواجه للشمس، وباقي المسافة بيننا وبين الشمس (المقدّرة بحوالي ١٥٠ مليون كم)، بل باقي الجزء المدرك لنا من الكون، يغرق في ظلام دامس بالنسبة لعين الإنسان التي ترى الشمس خارج نطاق طبقه نور النهار قرصاً أزرق باهتاً في صفحة سوداء، وهذه الحقيقة العلمية لم يدركها الإنسان إلاّ بعد ريادة الفضاء في مطلع الستينات من القرن العشرين. وفي ضوء ذلك تتجلّى لنا روعة التشبيه القرآني حيث شبّه انحسار طبقة النهار الرقيقة عن ظلمة الليل الواسعة، بسلخ جلد الذبيحة الرقيق عن كامل بدنها!! انظر: من آيات الإعجاز العلمي.. السماء في القرآن الكريم:٤١٦، ٤٧٢، ٤٧٩.

ومهما يكن، فإنّ الآيات (على اختلاف صيغها) التي تشير إلى ظاهرة تعاقب الليل والنهار، لها هدف واحد وهو الاستدلال على عظمة الخالق وتفرّده بالأُلوهية والربوبية، وأنّه تعالى كما أوجد هذا النظام المدهش للعقول وتولّى تدبيره بعلمه وحكمته، فهو قادر على إحياء الموتى وبعث الخلق من جديد.

٣٨. (وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ):

البرهان الرابع: الظاهر أنّ الشمس معطوف على الليل في الآية السابقة ومفاد الآية هو: (وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ)... (وَ) آية لهم (الشَّمْسُ)، ولماذا لا تكون آية مع أنّها عبر الزمان تسير سيراً سريعاً في مسافات متباعدة. والظاهر أنّ اللام في (لِمُسْتَقَرٍّ) بمعنى إلى أن تستقرّ ويتوقّف سيرها، لأنّ حركة الشمس حركة محدّدة ولكلٍّ مستقرّ، ويمكن أن تكون اللام للتعليل أي تجري لأجل أن تستقرّ.

وحاصل الآية: أنّ جريان الشمس على نمط واحد حتى تستقرّ وذلك بانهدام النظام الذي يسود هذا العالم (كما عليه كثير من الآيات)، لا يمكن أن يكون هذا النظام بلا مدبّر أو نتيجة أكثر من مدبّر أو نتيجة الأوثان والأصنام، بل ذلك كما يقول: (ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)فهذا النظام منسوب إلى الله (الْعَزِيزِ)، أي القادر الذي لا يُغلَب و(الْعَلِيمِ)بالأسرار والرموز والسُّنن، أو أنّ القادر على إنشاء هذا النظام المدهش للعقول قادر على إحياء الموتى بطريق أَولى.

هذا، وقد أشار سبحانه بقوله:(تَجْرِي) إلى استمرار حركة الشمس، فما هو المراد بتلك الحركة؟ للمفسّرين هنا أقوال أو احتمالات نذكر أهمّها:

١. أنّها إشارة إلى مسار الشمس في دائرة البروج، فلو فرضنا خطاً وهمياً خارجاً من الشرق إلى الغرب، فهذا الخط الوهمي الذي يُسمى خط الاستواء يقسّم السماء عندنا إلى قسمين: شمالي وجنوبي، والشمس تميل تارة عن هذا الخط إلى الجانب الشمالي إلى درجة ٢٣، ويقال له: الميل الشمالي للشمس، ولها في كلّ شهر برجاً خاصّاً تدخل فيه، وهي عبارة عن الأبراج التالية: الحَمَل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة (وصيرورة الشمس في هذه البروج الستة يشكل الربيع والصيف الشماليين) يضمّ كلّ برج من

البروج الاثني عشر مجموعة من النجوم الثابتة، والمراد بصيرورة الشمس في أحد هذه البروج هو مقابلة الشمس في مسيرها لواحد من مجموعات النجوم التي خُيِّل للقدماء أنّها بصورة الأشكال المذكورة من الحيوانات وغيرها.ثم تنتقل الشمس بعد رجوعها إلى خط الاستواء إلى الجانب الجنوبي ولها أيضاً فيه بروجاً ستة تشكل الخريف والشتاء وهي: الميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت، فالثلاثة الأُولى بروج الخريف، والثلاثة الأخيرة بروج الشتاء.

وعلى هذا يمكن أن تكون الآية ناظرة إلى جريان الشمس في هذه البروج التي كان العرب يعرفونها، والتي يعبّر عنها الفلكيّون بدائرة البروج، وكأنّ الشمس حسب الحسّ تدور في هذه البروج ويستغرق دورانها فيها سنة كاملة.

٢. أنّها إشارة الى الحركة الموضعية للشمس، نظير الحركة الموضعية للأرض، فهي تدور حول محورها الوهمي، ويستغرق دورانها هذا مدة شهر تقريباً .

يُذكر أنّ للشمس حركة أُخرى، وهي أنّها تدور حول مركز مجرّة درب اللبّانة (كما تدورالأرض حول الشمس)، ويستغرق دورانها هذا مدة قدرها (٢٢٥)مليون سنة.

٣. أنّها إشارة إلى ما كشفه الفلكيّون حديثاً، وهو أنّ للشمس مع سيّاراتها حركة انتقالية نحو نجم بعيد يُسمّى النسر الواقع يبعد النسر الواقع عن الأرض بنحو (٢٦) سنة ضوئية (والسنة الضوئية تساوي ٩/٤٦ مليون مليون كم). ويظهر النسر الواقع بلون أبيض مائل إلى الزرقة، وذلك لأنّه ساخن جداً، وتبلغ درجة حرارته حوالي (١٠/٠٠٠ م). الموسوعة العربية العالمية:٣٣١/٢٥. وهو أحد نجوم مجرّة درب اللّبانة التي تشكّل الشمس وكواكبها جزءاً منها.

ثمّ إنّه سبحانه ختم الآية بوصفين وقال: (ذلِكَ تَقْديرُ العَزيزُ العَليم)وذلك لأنّ المضمون يناسب ختم الآية بهما، فالآية تتضمّن حركة الشمس التي تبعث إلى الأرض بنورها وطاقتها، وهي بتلك العظمة معلّقة في الفضاء تجري دون أي خطأ أو توقّف في جريانها، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على أنّ الذي جعل سيرها بقدر وانتظام وحساب دقيق عزيز في سلطانه، فلا يُغلب ولا يعجزه شيء عليم بالأسرار والسُّنن وتدبير شؤون الكون.

٣٩. (وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ):

البرهان الخامس: الظاهر أنّ «الواو» عاطفة (وَالْقَمَرَ) مفعول به لفعل محذوف يفسّره ما بعده، والمعنى: وقدّرنا للقمر منازل. هذا على قراءة النصب، وأمّا على قراءة الرفع فحاله حال (وَالشَّمْسُ) أي: وآية لهم القمر.

ثمّ إنّ كون القمر آية للعباد أمر واضح، فهو ينير سماء الأرض، بعد غياب الشمس بمراحله المتتالية، وذلك لِما جعل له سبحانه من القدرة على أن يعكس من أشعة الشمس الساقطة عليه ما قدره (٣ و٧٪). ولمّا كان القمر يدور حول الأرض في نفس الزمن الذي يكمل فيه دورته حول محوره، فإنّه لا يظهر لنا منه إلاّ وجه واحد (أي نصف القمر تقريباً المواجه للشمس)، وأمّا الوجه الآخر غير المقابل للشمس فمظلم.

وبما أنّ القمر يدور حول الأرض في كلّ شهر مرّة واحدة فلا يزال يتغيّر موضع الاستنارة، ففي أوّل الشهر يبدو ضئيلاً ثمّ يزداد حجمه شيئاً فشيئاً حتى تكتمل نصف دائرة القمر في الليلة السابعة، ثم تستمر الزيادة حتى تكتمل الدائرة الكاملة للقمر في الليلة الرابعة عشرة، ويسمى حينئذ بدراً، ثمّ يبدأ بالتناقص تدريجياً حتى الليلة الثامنة والعشرين، وأمّا في الليلة التاسعة والعشرون أو هي والثلاثون فيقع في أثناء دورته، على خطّ واحد بين الأرض والشمس، وعند ذاك يواجه الأرض بوجه مظلم تماماً(وبهذا لا يمكن رؤيته) ويطلق عليه في هذه المرحلة مرحلة المحاق. وفي كلّ ليلة من ليالي الشهر القمري، يقع القمر في دورته على النحو المذكور بين ثوابت من النجوم أو من تجمعاتها الظاهرية، ومواقع القمر هذه هي التي أشار إليها سبحانه بقوله: (وَ

الْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ).

وعلى هذا فالقمر في كلّ ليلة في منزل من منازله وهي ثمانية وعشرون منزلاً بعدد الليالي التي يُرى فيها القمر، وقد ذكر الفلكيّون أسماء هذه المنازل، وهي: الشَّرَطان، والبطنين، والثريّا، والدَّبرَان، والهقعة، إلى آخر ما ذكروه، فهو ينزل كل ليلة في واحد منها، فإذا كان في آخر منازله وهو الذي يكون فيه قبل الاقتران، دقّ وتقوّس (حتّى عادَ كَالعُرجُون): أي عِذق النخلة المعوجّ القديم العتيق.

ثمّ إنّ تشبيه حال القمر في آخر ليالي الشهر بالعرجون القديم لا يخلو عن نكتة، فإنّ العرجون عند يُبسه واصفراره على النخلة ينحني تجاهها، وكذلك هو حال القمر في أُخريات لياليه(الهلال الثاني) فإنّه ينحني بطرفيه تجاه الأرض، بينما الهلال الوليد ينحني بهما بعيداً عنها، فما أروع هذا التشبيه القرآني المعجز!! انظر: بحار الأنوار:٥٥/١٣٥؛ من آيات الإعجاز العلمي.. السماء في القرآن الكريم:٥١٧ـ ٥٢٢.

إلى هنا تمّ الكلام في البرهان الخامس، وهو سير القمر في منازله في كلّ شهر من دون فترة، وهو يدور حول الأرض ضمن شهر واحد. فهذه الآية دالّة على وحدانيته وربوبيّته، وعلى قدرته على إحياء الموتى. وإليك الكلام في البراهين الثلاثة: السادس والسابع والثامن، وهي التي يشير إليها سبحانه في الآية التالية:

٤٠. (لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ الْلَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَك يَسْبَحُونَ): إنّ: (لا) نافية و (الشَّمْسُ) مبتدأ وجملة (يَنْبَغِي) خبر.

يشير سبحانه في هذه الآية إلى براهين ثلاثة دالّة على عظمة قدرته وكمال تدبيره:

١. (لا الشَّمسُ يَنبَغي لَها أنْ تُدْرِكَ الْقَمَر).

٢. (وَلا اللَّيلُ سابِقُ النَّهَارِ).

٣. (وَكُلٌّ في فَلَك يَسبَحُون).

وإليك بيان كلّ واحد منها:

١. قوله سبحانه: (لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ) يمكن أن يفسّر بوجهين:

الأوّل: أنّ الفقرة تشير إلى ثبات ودوام النظام السائد إلى يوم القيامة فليس للشمس أن تدرك القمر كما ليس للقمر أن يدرك الشمس، إذ في اجتماعهما اختلال النظام وتسرّب الفساد فلكلٍّ مسيره، وقد ذكر سبحانه أحد الإدراكين (أي عدم إدراك الشمس القمر)، ولم يذكر الإدراك الثاني(عكسه) لكونه معلوماً من السياق. وثمّة ما يدلّ في القرآن على أنّ اجتماع الشمس والقمر آية قيام الساعة وانهدام النظام السائد، قال تعالى: (فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ * وَخَسَفَ الْقَمَرُ * وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ * يَقُولُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذ أَيْنَ الْمَفَرُّ). القيامة:٧ـ١٠.

وخلاصة هذا التفسير أنّ لكلّ من النيّرين مسيره ومداره المحدّد له، فهما لا يجتمعان وإلاّ انهدم النظام.

الثاني: ما ذكره بعض المفسّرين وهو الإشارة إلى سرعة حركة القمر وبطء حركة الشمس بحسب الحسّ، حيث يطوي القمر منازله خلال شهر واحد، بينما تطوي الشمس دائرة الأبراج خلال عام واحد، ولذا فإنّ الشمس بحركتها لا يمكنها أن تدرك القمر في حركته فتقطع في شهر واحد ما تقطعه في سنة واحدة، فلذلك يقول: (لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ): أي ليس لها هذه القدرة والسرعة. والله العالم. انظر: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل:١٤/١٧١.

٢. قوله: (وَلا اللَّيلُ سابِقُ النَّهار): أي ليس لليل أن يسبق النهار و لا للنهار أن يسبق الليل، بل لكلٍّ نظام خاصّ وحساب منتظم، بحيث يتبع أحدهما الآخر في جريانه، دون أن يسبقه.

٣. قوله سبحانه: (وَكُلٌّ في فَلَك يَسبَحُون) هذا هو البرهان الثامن إمّا على توحيده أو على قدرته على إحياء الموتى.
إنّما الكلام في تفسير هذه الفقرة.
كان الفلكيّون من الإسلاميّين تبعاً لهيئة بطليموس يتصوّرون أنّ كلاًّ من السيارات والكواكب فاقدة للحركة وإنّما الحركة لفلكهم، والفلك عندهم عبارة عن الجسم الخاص الذي ثخنت فيه الكواكب والقمر والشمس، وهو لا يقبل الخرق والالتئام، فلذلك فسّروا هذه الفقرة بسبح الفلك واقعاً، وأُسندت السباحة إلى الشمس والقمر مجازاً.
ولكن الهيئة الجديدة قد شطبت على الهيئة القديمة وأبطلت أساسها وفروعها فلم يبق منها شيء، وعندئذ أصبحت هذه الفقرة من الآية من المعجزات العلمية للقرآن، فإنّ الفلك عبارة عن مدار الشيء، والآية تقول: إنّ كلاًّ من الشمس والقمر يدوران في مدار خاص، ولا يلزم أن يكون الفلك جسماً شفّافاً نورانياً زجاجياً، بل الفضاء الخالي من كلّ شيء يكون فلكاً لكلّ من القمر والشمس اللّذين يدوران فيه.
وعلى هذا فإنّ القرآن أشار لقسمين من حركتهما:
أمّا الحركة الانتقالية فقد مرّ ذكرها في قوله:(وَ الشَّمْسُ تَجْري لِمُسْتَقَرّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيم)وفي قوله: (وَالْقَمَرَ قَدّرناهُ مَنازِل) وأمّا الحركة الموضعية لهما فقد أشار إليها بهذه الفقرة من هذه الآية وقد عرفت كيفيتها.
ثمّ إنّه سبحانه يعبّر عن الحركة بقوله: (يَسْبَحُونَ) وهو من السباحة أي الجري في الماء كأنّ حركتهم أشبه بحركة الحيتان في البحار، أو الفلك فيها.
إلى هنا تمّ الكلام في مقامين:
تارة يذكر معالم وجوده وقدرته في الأرض وما فيها من الحيوان والنبات، وأُخرى ما في السماء من الآيات الكبيرة، ثم ينتقل إلى مشهد
ثالث وهو آياته سبحانه في البحار، وهنا يبتدأ ببيان البرهان التاسع، وإليك البيان:
٤١. ( وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ):
البرهان التاسع: انتقل سبحانه هنا إلى عرض آية أُخرى من آيات تدبيره، وهي تسخير الفُلك الفُلك: يطلق على الواحد والجمع من السفن، والمراد بها في الآية الجمع، وقد عومل هنا معاملة الجنس، ولذا وصف بمذكّر (الْمَشْحُون).وجريانها في الماء، وهي تحمل الركّاب والبضائع من مكان إلى آخر عبر الأنهار والبحار والمحيطات. وإنّما نسب الحمل، في الآية، إلى الذرية (وهم الأبناء) دونهم أنفسهم لتجييش عواطفهم وإثارة مشاعرهم. وفي وصف الفلك بالمشحون (أي المملوء) مزيد تقرير لقدرته وربوبيّته.
هذا، وقد ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ المراد بالفلك المشحون هنا هو فُلك نوح(عليه السلام)، لقوله سبحانه: (فَأَنْجَيْناهُ وَمَنْ مَعَهُ في الفُلْكِ الْمَشحون). الشعراء:١١٩.
٤٢. ( وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ):
والمراد أنّا خلقنا لهم من مثل هذا الفُلك مراكب يركبونها، كالإبل (التي تسمّى سفائن البرّ) والخيل، وربما تشمل وسائل النقل الحديثة، قال تعالى:(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ). النحل:٨.
ويكون المعنى وفق التفسير الثاني للفلك المشحون: أنّ الله جعل لهم من مثل سفينة نوح(عليه السلام) هذه السفن التي صنعت على شكلها أو هيأتها، أو هذه المراكب التي يركبونها في البرّ.
٤٣. (وَ إِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلاَ صَرِيخَ لَهُمْ وَلاَ هُمْ يُنْقَذُونَ):

فهذه السفن من أهم وسائل العمل والنقل عند الإنسان التي تدور عليها رحى الحياة من غير فرق بين سفن شراعية أو بخارية أو التي تعمل بالطاقة الذرية، فكلّ هذه من النعم ولكن هناك نعم أُخرى وهو أنّ الله سبحانه هو الذي يصون السفينة من الغرق ويحميها من الأمواج الهائلة التي تكاد تبتلع السفينة، فالله سبحانه تعلّقت مشيئته على سير السفينة سالمة إلى مقصدها، وإلاّ كما يقول: (وَ إِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ): أي مَن في السفينة (فَلاَ صَرِيخَ) ولا مغيث لهم(وَلاَ هُمْ يُنْقَذُونَ):أي ولا يستطيع أحد أن يخلّصهم من الغرق إذا أردناه، حتى ولو استخدموا وسائل النجاة.

ثمّ إنّه سبحانه استثنى صورة واحدة وقال:

٤٤. (إِلاَّ رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ):

أي إلاّ إذا رحمناهم، فنحن نخلّصهم من الغرق ونمتّعهم إلى آجالهم. وحصيلة هذه الآيات بعد بيان أبلغ النظم السائدة وأنواع النعم الشاملة يستنتج منها أنّه سبحانه اللائق بالمعرفة والخضوع له بالعبادة، كما أنّ اللازم الإيمان بالحشر والنشر، فإنّ هذه الآيات كلّها دلائل هذه الأُمور.

| |
|---|
| الآيات ٤٥ ـ ٥٤ (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ... وَلاَ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ). |

الآيات: الخامسة والأربعون إلى الرابعة والخمسين

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ * وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * مَا يَنْظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ * فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلاَ إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ * وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ * إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ * فَالْيَوْمَ لاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلاَ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ).

المفردات

معرضين: معرضين عن الحجج والبيّنات.

متى هذا الوعد: متى يتحقّق.

ينظرون: ينتظرون.

صيحة واحدة: هي النفخة الأُولى في الصور، التي بها يموت أهل الأرض.

نفخ في الصور: هي النفخة الثانية بها يحي كلّ مَن مات.

الأجداث: جمع جدث (بفتحتين): القبر.

ينسلون: يسرعون.

ويلنا: الويل: كلمة تقال في مصيبة، وربما يقولها المُعسر ومن ساءت حاله.

مرقدنا: اسم مكان بمعنى محلّ نومنا. ويحتمل أن يراد به المعنى المصدريّ أي الرقاد والنوم، وعندئذ يراد به الموت.

التفسير

تحدّثت الآيات السابقة عن الآيات الدالّة على التوحيد والتدبير ورفض الشرك، ولزوم إطاعة المدبّر، وحان الوقت لبيان رد فعل المشركين بالنسبة إلى هذه الآيات، وكان اللازم أن ينتفعوا بهذه البراهين الواضحة، ويجيبوا دعوة الداعي ولكنّهم، يا للأسف، لم

تكن ردّة فعلهم إلاّ الإعراض عن التدبّر فيها، كما في قوله تعالى:

٤٥. (وَ إِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ): جواب إذا محذوف: اعرضوا.

الضمير (لَهُمُ) يرجع إلى المشركين، والظاهر من الموصولَين في قوله:(مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ) أمر واحد، وعلى هذا فيجب أن يفسَّرا بشيء واحد وهو الجرائم التي كانوا يرتكبونها فعلاً أو يرتكبونها في المستقبل، وعلى هذا فالفقرتان: (مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ)كناية عن الإحاطة، كما في قوله سبحانه: (أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) سبأ:٩. : أي أوَ لم ينظر هؤلاء الكفّار إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض كيف أحاطت بهم، وذلك أنّ الإنسان حيثما نظر رأى السماء والأرض قدّامه وخلفه وعن يمينه وشماله، فلا يقدر على الخروج منها.( مجمع البيان:٨/٢١٥. )

وعلى هذا فالآية تدلّ على لزوم الاجتناب عن المعاصي ماضيها وحاضرها ومستقبلها حيث إنّ الجميع يحيط بالإنسان. وتكون نتيجة الاتّقاء بالنسبة إلى ما مضى هو الندم والاستغفار، وإلى ما يأتي هو العزم على الترك والاجتناب.

وما ذكرنا من التفسير أي تفسير الموصولَين بالمعاصي هو أحد الأقوال.( تفسير الكشّاف:٣/٢٨٨، نقله عن مجاهد.)

وربّما يفسَّر الموصول الأوّل بالذنوب والجرائم، والموصول الثاني بالعقوبات في يوم القيامة.

قال السيد الطباطبائي وهو يفسّر الآية:

يظهر أنّ المراد بـ(مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ) الشرك والمعاصي التي هم مبتلون بها في حالهم الحاضرة (مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ) وما كانوا مبتلين به قبل (وَ مَا خَلْفَكُمْ)، أو الشرك والمعاصي في الدنيا والعذاب في الآخرة، أوجه الوجوه. الميزان في تفسير القرآن:١٧/ ٩٢ـ٩٣.

والظاهر أنّ ما ذكره من الوجه الأوّل هو الأوجه دون الثاني لاستلزامه ارتكاب خلاف السياق في الموصول أوّلاً، ثمّ إنّ عذاب الآخرة أمام الإنسان لا وراءه ثانياً، ولذلك يقول المفسّرون: إنّ معنى قوله:(وَ مِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) المؤمنون:١٠٠. أي: أمامهم.

ثمّ إنّ الأمر بالتقوى لغاية ما يذكره بقوله:(لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)، ولكن، يا للأسف، لم ينتفع المشركون بهذه الآية كما يقول:

٤٦. (وَ مَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ):

الظاهر أنّ المراد بقوله: (آيَة) أعمّ من الآيات الآفاقية كالمعاجز، والقرآنية كهذه الآيات وأمثالها، وقد اعتاد المشركون على عدم التدبّر فيها، والإعراض عنها، كما يقول:(وَ مَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ) وذيل الآية يدلّ على أنّ الإعراض كان سنّة مستمرّة بينهم، وهو نتيجة العناد واللّجاج والاستكبار، يقول سبحانه: (وَ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلاَّ كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ) الشعراء:٥..

وقد دلّت الآيتان الماضيتان على إعراضهم، فإذا قيل لهم اتّقوا ما بين أيديكم وما خلفكم من المعاصي، أعرضوا، وإذا أتتهم آية من آيات الله التي ترشدهم إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة، أعرضوا عنها أيضاً .

فكلا الإعراضين نتيجة الجهل، ولكنّ الجهل على قسمين:

١. قسم يُعدّ ممرّاً لتحصيل اليقين، وهذا هو الجاهل الذي لا يعلم ولكن يعلم أنّه لا يعلم، ومثل هذا الجاهل إذا أُمر بالاتّقاء من المعاصي أو إذا شاهد آيات ربّه، تنبّه وعاد، فهذا النوع من الجهل ـ أو قل الشكّ ـ معْبَرٌ للإيمان، وهو نعمة إلهية.

٢. قسم يُعد مقرّاً للجاهل، وهو الذي لا يعلم ولكن يتصوّر أنّه يعلم، وهذا هو الداء الذي ليس له دواء، ومشركو صدر الرسالة الذين كانوا يعادون النبيّ ويواجهونه، كانوا من هذا القسم من الجاهلين وقد اغترّوا بما ورثوه من آبائهم من التقاليد والأعراف إلى

حدٍّ كلّما قيل لهم اجتنبوا معاصي الله لوّوا رؤوسهم، أو إذا شاهدوا آيات الله صدّوا عنها ولم ينتفعوا بها.

٤٧. (وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ):

إنّ من شيم المعاندين الجاحدين للحقّ، هي المغالطة في كلّ ما خوطبوا به مما يرجع إلى صلاحهم فردياً أو اجتماعياً. وهنا تتحدّث الآية عن أحد النماذج الّتي سلكت هذا المسلك، يقول سبحانه: (وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ) فكان جوابهم بدل القبول هو المغالطة، كما يقول:(قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ)، أي أنّهم تذرّعوا بالقضاء والقدر، وقالوا: إنّ الله قدّر عليهم الفقر، وقدّر لنا الغنى، فلماذا ننفق عليهم ونخالف قضاء الله وقدره بحقّهم؟ فلو أراد الله لأنقذهم من الفقر!!

والعجب أنّهم يعدّون أنفسهم في أعلى درجة الهداية ويصفون الآمرين بالإنفاق ورفع حاجات الفقراء بالضّلال والعدول الواضح عن الحقّ، كما يقول: (إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ).

انظر إلى المغالطة الواضحة في كلام هؤلاء، فقد جهلوا أو تجاهلوا أنّ أكثر أسباب الفقر تعود إلى سوء التدبير، وفساد الأوضاع وأطماع أهل الحرص، وجور الأنظمة الحاكمة، قال الإمام علي(عليه السلام): «فَمَا جَاعَ فَقِيرٌ إِلاَّ بِمَا مُتِّعَ بِهِ غَنِيٌّ». نهج البلاغة، الكلمات القصار، برقم ٣٢٨.

وقال الشاعر في وصف الطامعين:

سُلاّب أكسية الأرا *** مل واليتامى والكهولِ

والجامعين المكثريـ *** ـنَ من الخيانة والغُلولِ

وكلامهم الفاسد هذا مبنيّ على أنّ الله سبحانه شاء أن يغني فرداً ويفقر آخر، وليس هناك مَن يلام عليه لسبق إرادة الله في ذلك، ونحن نشاهد نظير تلك المغالطة في قولهم: (وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ). النحل:٣٥.

أقول: أمّا إرادته سبحانه فقد شاءت صلاح الفرد والمجتمع وفلاحهما، ولتحقيق هذا الهدف سنّ جلّ شأنه الأحكام والواجبات ووضع الحدود والأنظمة، ومن تلك الواجبات، الأمر بالإنفاق وإيتاء الزكاة الذي ورد في كثير من الآيات، حيث قرن سبحانه فيها إقامة الصلاة بإيتاء الزكاة.

لقد ضمن الله سبحانه رزق كل دابة في الأرض وقال: (وَ مَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) هود:٦. فلو كان النظام السائد في المجتمع نظاماً عادلاً جارياً على وفق الكتاب والسنّة لعمّ الرزق عامّة المجتمع البشري من دون أن يكون هناك غنيّ متخوم ولا فقير محروم جائع.

وبكلمة أُخرى:لقد قدّر سبحانه رزق كل إنسان، ولكنّ النظام الظالم هو الذي يقلب الأُمور على وفق مراده ومصالحه غير المشروعة، ولا يقيم لسنّته سبحانه وتشريعاته قيمة.

فقول المشركين:(مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ) كلام باطل بل شاء سبحانه ذلك تشريعاً، فأمر بإطعامه، وأنتم الذين منعتموه حقّه.

وقولهم:(أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ الله أطْعَمَه)، ردّ فعل لخطاب الله، أعني قوله: (أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ)، وله نظائر في الذكر الحكيم، منها:

أ. (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ). أجابوا بقولهم: (إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ). البقرة:١١.

ب. (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ) أجابوا بقولهم:(قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ). البقرة:١٣.

ج . (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ) أجابوا بقولهم:(قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا). الفرقان:٦٠.

كلّ ذلك يدلّ على أنّ من خصائص الجاهل المعاند هو الإعراض عن الحقّ ونحت الأعذار والمغالطات الشيطانية.

٤٨. (وَ يَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ):

الاعتقاد بالمعاد وأنّ وراء الحياة الدنيا حياة أُخرى عماد الدين الإلهي، وكلّ دين يُنسب إلى الله سبحانه ولم يَرد فيه اليوم الآخر ركناً من أركانه فإنّما هو مسلك بشري لا صلة له بالله سبحانه ودينه، ومن هنا فالإيمان قائم على دعائم ثلاث:

١. توحيده سبحانه.

٢. الإيمان برسالة النبيّ الخاتم (صلى الله عليه وآله وسلم).

٣. الإيمان بالمعاد.

هذا، وقد يوجد في العالم رجال يتسمّون بالمصلحين ولكنّ مناهجهم في الإصلاح تخلو من الدعوة إلى الإيمان بالدار الآخرة، فهؤلاء ليسوا بمصلحين حقّاً لأنّ مناهجهم تتبنّى مصالح الإنسان من جانب واحد، فهي أرضية لا سماوية.

وكان المشركون يخافون من الإيمان بالحياة الأُخروية، لأنّ معنى الحياة الأُخروية هو محاسبة الإنسان على أعماله بالدقّة والضبط إن خيراً فخير وإن شرّاً فشرّ. ولمّا كانت صحائف أعمالهم مملوءة بالموبقات

وبالشرّ والعدوان كانوا يردّون القول بالحياة الأُخروية أشدّ الردّ، وقد انعكست عقيدتهم تلك في هذه الآية، حيث كانوا يسألون عن موعدها استهزاءً وإنكاراً (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ).

وقد أشار القرآن الكريم إلى تكرّر هذا السؤال منهم في غير واحد من المواقع لاحظ : سورة الأنبياء: ٣٨، والنحل:٧١، وسبأ:٢٩، والملك:٢٥. ، فوافاهم الجواب بأنّه لا ينفعكم تحديد الوقت، ولو حُدّد لكم لقابلتموه بالتكذيب، وإنّما المهم هو التفكّر في مصيركم الذي تبيّنه الآية التالية:

٤٩. (مَا يَنْظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ).

قوله:(يَنْظُرُونَ) بمعنى ينتظرون، والآية تحدّد وقت البعث بذكر وصفه أو حقيقته، وحاصله: أنّ هناك نفختين: نفخة أُولى، وهي التي تتضمّن الصيحة المهيبة التي يموت فيها كلّ مَن في الأرض كما في قوله: (مَا يَنْظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً): أي نفخة أُولى تكون نتيجتها الصيحة (تَأْخُذُهُمْ): أي تأخذهم بغتة (وَ) الحال (هُمْ يَخِصِّمُونَ): أي يختصمون في أُمورهم ويتنازعون في موارد كسبهم، وفي الحديث: «تقوم الساعة والرجلان قد نشرا ثوبهما يتبايعانه فلا يطويانه حتى تقوم الساعة، والرجل يرفع أكلَته إلى فيه فما تصل إلى فيه حتى تقوم، والرجل يليط حوضه ليسقي ماشيته فما يسقيها حتى تقوم». روح المعاني:٢٣/٣١؛ روح البيان:٧/٤٠٩ وغيرهما.

٥٠. (فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلاَ إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ):

ما جاء في هذه الآية نتيجة كون الساعة أمراً مفاجئاً يأتي بغتة ولذلك لا يقدرون على الإيصاء بشيء، كما يقول: (فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً) بل لا يتمكّنون من الرجوع إلى منازلهم كما يقول: (وَ لاَ إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ) ففي هذه النفخة يموت كلّ مَن في الأرض غبّ الصيحة ولا يستطيع أحد أن يتصرّف في شيء ممّا في يده، والموت في سطوته قاهر لا ينتظر لحظة واحدة.

قال أبو العتاهية:

أمّا رَحى الدنيا فَدا *** ئرةٌ تدور على بَنيها

ولعلّ لاحظَ لحظة *** سيموت في أُخرى تَليها

ثمّ يأتي الموعد النهائي وهو إحياء من مات في الأرض، وهذا هو الذي تذكره الآية التالية:

٥١. (وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ):

والعجب أنّ شيئاً واحداً تارة يكون سبباً للإماتة، وأُخرى للإحياء، وما هذا إلاّ لأجل تعلّق إرادته سبحانه على الإماتة في الأوّل والإحياء في الثاني، ولذلك يقول: (وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ)وهو يدلّ على عدم وجود فاصل زماني بين النفختين (فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ) القبور (إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ)يخرجون سراعاً.

٥٢. (قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ):

أي بعد أن عاينوا هذا المشهد الرهيب الذي بيّنه في غير واحدة من الآيات، زعموا أنّهم كانوا رُقوداً فانتبهوا، سائلين بعضهم بعضاً بقولهم: (يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا): أي مَن أحيانا بعد موتنا، وبما أنّهم كانوا يسخرون من البعث والداعي إليه، فإذا ارتفع ستار الجهل والعناد عن أعينهم بهذه الطريقة، أخذوا بالتصديق بهما وقالوا:(هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ): أي يجيب بعضهم بعضاً بهذه الطريقة. ونحو الآية قوله سبحانه: (لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ). ق:٢٢.

٥٣. (إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ):

لمّا تضمّن قوله سبحانه: (وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ) خروج الأموات من القبور وهم مسرعون، عاد البيان القرآني إلى الإشارة إلى نتيجة هذا الإحياء وهي حضورهم عند ربّهم، ولذلك أشار في صدر الآية إلى النفخة وقال:(إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً):أي لم تكن المدّة إلاّ مدّة صيحة واحدة (فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ) الأوّلون والآخرون (لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ) للحساب والجزاء.

٥٤. (فَالْيَوْمَ لاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلاَ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ):

لمّا كانت هنا مظنّة توهّم وجود الظلم بحقّ المجرمين، أشار سبحانه في هذه الآية إلى أنّه لا يُظلَم أحد من عباده في ذلك الموقف، كما قال: (فَالْيَوْمَ): أي يوم القيامة، (لاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا) لا من جهة العقاب ولا من جهة الثواب، وذلك لقيامه بالقسط في خلقه، وعدله في حُكمه(وَ)أنّكم (لاَ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ).

وظاهر الآية أنّ الثواب والعقاب على وفق العمل، غير أنّ بعض الآيات يدلّ على أنّه سبحانه يزيد في جزاء المحسنين، نظير قوله سبحانه: (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا) الأنعام:١٦٠. وقوله سبحانه: (لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ) ق:٣٥.ولا منافاة بينهما، لأنّ الحصر في الآية ـ أعني قوله: (وَلاَ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) ـ حصر إضافي ناظر إلى أمر الجزاء وأنّ الجزاء يوافق العمل، لا يزيد ولا ينقص، وأمّا الزائد عنه فهو لطف من الله وليس جزاءً منه.

الآيات ٥٥ ـ ٥٨ (إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ... سَلاَمٌ قَوْلاً مِنْ رَبّ رَحِيم).

الآيات: الخامسة والخمسون إلى الثامنة والخمسين

(إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ * هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلاَلٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ * لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ * سَلاَمٌ قَوْلاً مِنْ رَبّ رَحِيم).

المفردات

شُغُل: الشأن الذي يشغل الإنسان ويصرفه عمّا عداه.

فاكهون: جمع فاكه، وهو الطيّب النفس المتحدّث بمُلح الكلام وبما يسرّ، أو هو المتنعِّم المتلذِّذ.

ظلال: جمع ظلّ، وهو السترة من الشمس من سقف أو شجر.

الأرائك: جمع أريكة، وهي السرير في الحَجلة، والحَجَلة كالقبّة على الأسرّة.

يدّعون: يتمنَّون ويشتهون، كقوله: ادّع عليّ ما شئت، أي تمنّ عليّ.

التفسير

تقدّم في الآيات السابقة أنّ النفخة الثانية توجب حضور الناس للجزاء والحساب، وممّا لا شكّ فيه أنّ الناس في ذلك الموقف على صنفين: بين مطيع وعاص، ومحسن ومسيء، ولذا عاد البيان القرآني إلى بيان مصير كلٍّ من الطائفتين، أمّا الأُولى فبدأ ببيان مصيرها في هذه الآيات الأربع، وأمّا الطائفة الثانية فتحدّث عنها في الآية التاسعة والخمسين كما سيوافيك بيانها، فقدّم ذكر الطائفة الأُولى بقوله:

٥٥. (إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُل فَاكِهُونَ):

هذه الآية والآيات التالية تشير إلى أنواع النّعم التي تغمر أصحاب الجنة:

الأُولى: ما أشار إليها بقوله: (إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُل) أي شأن (فَاكِهُونَ) أي طيّبو النفس بما آتاهم ربُّهم مستأنسون بالأحاديث التي تبعث على المسرّة والفرح، أو هم متنعّمون متلذّذون بما حفّ بهم من ألوان النعيم.

٥٦. (هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلاَل عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ):

الثانية: ما أشار إليها بقوله:(هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلاَل عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ) حيث الإحساس بالمتعة والأُنس والأُلفة، وهم مع زوجاتهم يستريحون ويستأنسون بهنّ في ظلال وارفة يستروحون نسيمها، كما يقول: (هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلاَل)جالسون (عَلَى الأَرَائِكِ): أي السّرر المزيّنة بفاخر الأغطية والستور (مُتَّكِئُونَ)والاتكاء هيئة بين الاضطجاع المطلق والجلوس، وهو اضطجاع على جنب دون وضع الرأس على الفراش، وهو تعبير عن الهدوء والاطمئنان التام الذي يحسّون به.

والمراد بالأزواج هنا الحور العين، ويشهد له قوله تعالى:(مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُر مَصْفُوفَة وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُور عِين) الطور:٢٠. وقيل: زوجاتهم في الدنيا بشرط أن يكنّ من أهل الجنّة، وهو في نظرنا بعيد.

٥٧. (لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ):

الثالثة: ما أشار إليها بقوله: (لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ) فإنّ أصحاب الجنّة يتلذّذون بأكل الفواكه وراء الأطعمة، وتنكير (فَاكِهَةٌ) لعلّه يشير إلى كونها فاكهة خاصّة غير معهودة.

الرابعة: ما أشار إليها بقوله:(وَ لَهُمْ مَا يَدَّعُونَ): أي كلّ ما يتمنَّون، فليس بينهم وبين ما يشتهون أي عائق وفاصل، فتمنّي أي شيء يلازم حضوره.

هذه كلّها نعم مادّية تغمرهم على نحو لا يتمنّون شيئاً إلاّ يرونه حاضراً لديهم، وهناك نعمة روحية فوق ما ذكرنا، وهي التي أشار إليها في الآية التالية.

٥٨. (سَلاَمٌ قَوْلاً مِنْ رَبّ رَحِيم ):

قوله:(سَلاَمٌ) مبتدأ حذف خبره، كأنّه قال: سلام يقال لهم (قَوْلاً مِنْ رَبّ رَحِيم). فتنكير (سَلاَمٌ) للدلالة على التعظيم كما أن تنكير (ربٍّ)كذلك. وذكر الربّ للدلالة على التعليل أي أنّه سبحانه بما أنّه ربّهم فإنّهم يتلقّون منه سلاماً في مقابل عبادتهم وطاعتهم له جلّ شأنه، فأيّ نعمة أكبر من أن يبلغ الإنسان هذه المرتبة من القداسة بحيث يسلّم عليه ربّه سلاماً يؤذن بدوام السلامة والأمن من المكاره والمخاوف؟

وعلى كلّ تقدير، فالجنة دار السلام كما يقول سبحانه:(وَاللّهُ يَدْعُو إِلى دارِ السَّلاَمِ) يونس:٢٥، ويظهر من بعض الآيات أنّ الملائكة

أيضاً يسلّمون على أهل الجنة، قال سبحانه:(وَ الْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَاب * سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ) الرعد:٢٣ـ٢٤.فالجنة كلّها سلام من الله ومن

الملائكة، وتحيتهم هناك سلام كما يقول:(تَحِيَّتُهُم فِيها سَلاَم) إبراهيم:٢٣.وكلامهم كلّه سلاَم كما يقول: (لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلاَ تَأْثِيمًا * إِلاَّ قِيلاً سَلاَمًا سَلاَمًا) الواقعة:٢٥ـ٢٦..

## الآيات ٥٩ ـ ٧٠ (وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ... وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ).

الآيات: التاسعة والخمسون إلى السبعين

(وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ * أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لاَ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاًّ كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ * هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ * وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلاَ يَرْجِعُونَ * وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلاَ يَعْقِلُونَ * وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ * لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ).

### المفردات

امتازوا: انفصِلوا وابتعدوا عن المؤمنين.

أعهد: أوصي بما فيه خير ومنفعة.

تعبُدوا الشيطان: تطيعوه فيما يوسوس ويأمر به.

جبلاًّ: الجِبِلّ: الجماعة العظيمة.

اصلَوها: صَلِيَ النارَ : قاسى حرّها، أو احترق بها.

نختم: الختم على الأفواه هو منعها من الكلام.

طَمسْنا: الطمس: إزالة الأثر بالمحو، وأُريد به هنا ـ بقرينة قوله: (عَلَى أَعْيُنِهِمْ) ـ العَمى.

فاستبقوا: الاستباق افتعال من السبقُ، هو مُشعر بالاجتهاد في الفعل.

فأنّى يبصرون: أي كيف يبصرون.

لَمسخناهم: المَسْخ تحويل الصورة إلى صورة قبيحة، كمسخ الإنسان قرداً أو خنزيراً.

على مكانتهم: المكانة تأنيث المكان باعتبار البقعة، أُريد به المسخ في نفس المكان الذي هم فيه.

مُضياً: ذهاباً، بقرينة قوله:(وَلاَ يَرْجِعُونَ).

نعمّره: نطيل عمره.

ننكِّسه: التَّنكُس: قلْب الشيء على رأسه، والمراد: صيرورته بعد القوّة إلى الضعف وبعد الزيادة إلى النقصان، أي يتقهقر، وهو على وجه آخر كناية عن الهلاك.

### التفسير

٥٩. (وَ امْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّها الْمُجْرِمُونَ):

إنّ قوله سبحانه:(وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ) يجسّده، في الحياة الدنيا، ذلك المشهد المتكرّر في معسكرات تدريب الجيش، فإنّ الجنود بعد أن يتلقّوا دورتهم التدريبية الأساسية، يجب أن يصنّفوا إلى أصناف ويرسلوا إلى المعسكرات الدائمة حسب

اختصاصاتهم أو حسب مناطق سكناهم، فتصدر الأوامر بتوزيعهم على الأقسام المختلفة، وعندئذ يصبح المعسكر الواحد أصنافاً مختلفة، ثمّ ينقلون إلى أماكنهم الجديدة.

وهكذا أهل القيامة فإنّهم في البدء مجتمعون على صعيد واحد وفيهم النبي المرسل أو الوليّ المطاع، وفيهم المدّعي للأُلوهية، والفاسق، والجاهل، وغير ذلك، ومن المعلوم أنّ هذا الاجتماع وبهذا الشكل اجتماع مؤقت لأنّهم يُبعثون من مراقدهم أشتاتاً، كما قال تعالى: (يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ) الزلزلة:٦. ولكنّهم بعد أن تتمّ محاسبتهم ومحاكمتهم، سوف يصيرون فريقين:(فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ)( الشورى:٧.)، والظاهر أنّ الآية تشير إلى هذا المعنى، فقوله:(وَامْتَازُوا) من «ماز» يميز ميزاً الشيء بمعنى فرزه عن غيره، يقال: امتاز امتيازاً: انفصل عن غيره وانعزل. ثمّ إنّه يقع الكلام هل الأمر بالانفصال أي انفصال المجرمين عن المؤمنين كما هو ظاهر قوله:(وَ امْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ) خطاب تشريعي أو خطاب تكويني؟ الأقوى أنّه خطاب تكوينيّ، بمعنى أنّ الانفصال يتحقّق بلا اختيار منهم، فهم بين مَن يُساق إلى الجنة وبين مَن يُساق إلى النار.

ويحتمل أن يكون خطاباً تشريعياً، وذلك أنّ المجرمين كانوا مختلطين مع المؤمنين في الدنيا أو في المحشر، وعندئذ يخاطبون بالانفصال عن المؤمنين إهانةً لهم، وتكريماً للمؤمنين، ولعلّه إلى ذلك يشير قوله سبحانه:(أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ) سورة ص:٢٨..

٦٠ و ٦١. (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لاَ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ):

لمّا وقع الامتياز بين الفريقين: فريق المؤمنين وفريق المجرمين، عندئذ جاء الخطاب من قبل الله سبحانه ـ وكأنّه جواب عن سؤال يدور في أذهانهم عن سبب امتيازهم، وخطابهم بالمجرمين ـ :(أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ): أي ألم أُوصكم وأُحذركم طاعة الشيطان كما يقول: (أَنْ لاَ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ): أي ألاّ تطيعوه وتنقادوا لوسوسته وتزيينه، لماذا؟ لقوله: (إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) وفي الآية نكتتان جديرتان بالدراسة:

الأُولى: صرّح سبحانه بأنّه عهد إلى بني آدم وأوصاهم بعدم طاعة الشيطان، وعندئذ يطرح هذا السؤال: في أي زمان ومكان تحقّق هذا العهد؟

هنا وجهان:

أ. أنّه سبحانه عهد ذلك في خطاباته الأربعة في أوّل الخليقة، حيث خاطب بني آدم ـ بعد ما أخرج الشيطان آدم من الجنة ـ بخطابات أربعة، منها قوله: (يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ) الأعراف:٢٧.. وهذا العهد قد تحقّق على لسان أنبيائه.

ب. أنّه عهد ذلك في عالم الفطرة الذي قد يعبّر عنه بعالم الذّرّ، فقد خلق سبحانه الإنسان على فطرة التوحيد والأخلاق الفاضلة، ولازم ذلك النهي عن عبادة الشيطان وإطاعته.

والوجه الأوّل أظهر.

الثانية: ما هو المراد بعبادة الشيطان، فإنّ العصاة والمجرمين يطيعونه ولا يعبدونه؟ لأنّ العبادة عبارة عن خضوع الشخص أمام مَن يعتقد أنّه خالق العالم ومدبّره، أو أنّه فوّض إليه تدبير العالم، أو أنّ بيده مصير الإنسان، ومن المعلوم أنّ مَن يكذب أو يغتاب أو يظلم أو يقتل بوسوسة الشيطان يطيعه ولا يعبده، فما معنى العبادة إذاً في الآية؟ والجواب أنّ المراد بالعبادة هنا الطاعة والاتّباع فيما يزيّنه من المعاصي والآثام ومخالفة أوامر ونواهي العزيز الجبّار. وقد ورد لفظ العبادة بمعنى الطاعة في بعض الآيات

والروايات، منها:

١. قال سبحانه حاكياً عن آل فرعون: (أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ) المؤمنون:٤٧..

٢. ما في تفسير قوله سبحانه:(اِتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا) التوبة:٣١. .

٣. ما روي عن الصادقين(عليهما السلام)، حيث قالا: «أما والله ما صاموا ولا صلّوا لهم ولكنّهم أحلّوا لهم حراماً وحرّموا عليهم حلالاً فاتّبعوهم وعبدوهم من حيث لا يشعرون». الوسائل:١٨، الباب١٠ من أبواب صفات القاضي، الحديث ١.

٤. وروى الثعلبي بإسناده عن عديّ بن حاتم قال: أتيت رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) وفي عنقي صليب من ذهب، فقال لي: يا عديّ، اطرح هذا الوثن من عنقك، قال: فطرحته ثم انتهيت إليه وهو يقرأ من سورة البراءة هذه الآية: (اِتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا) حتى فرغ منها، فقلت له: إنّا لسنا نعبدهم، فقال: أليس يحرّمون ما أحلّ الله فتحرّمونه، ويحلّون ما حرّم الله فتحلّونه؟ قال: فقلت: بلى، قال: فتلك عبادتهم. مجمع البيان:٥/٤٦.

٥. وروى ابن أبي عمير، عن رجل، عن أبي عبد الله] الصادق[(عليه السلام)قال: «مَن أطاع رجلاً في معصيته فقد عبده». الوسائل:١٨، الباب١ من أبواب صفات القاضي، الحديث٨.

٦. وروى الحسن بن علي بن يقطين، عن الإمام أبي جعفر الجواد(عليه السلام)

قال:«مَن أصغى إلى ناطق فقد عبده، فإنْ كان الناطق يؤدّي عن الله عزّ وجلّ فقد عبد الله، وإن كان الناطق يؤدّي عن الشيطان فقد عبد الشيطان». الكافي:٦/٤٣٤، كتاب الأشربة، باب الغناء، برقم ٢٤.

وعلى هذا فالعبادة في المقام ليست بالمعنى المصطلح بل المراد الطاعة، نعم من مراتب التوحيد، التوحيد في العبادة ولكن ملاك الشرك في مقابل الإيمان هو الشرك في العبادة.

وأمّا كون الشيطان عدواً مبيناً فقد صرّح به في بعض خطاباته حيث قال: (أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً) الإسراء:٦٢..

قوله:(وَأَنِ اعْبُدُونِي) عطف على قوله: (أَنْ لاَ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ) فإذا نهى عن عبادة الشيطان فقد دعا إلى عبادة نفسه.

ثم علّل سبحانه الأمر بعبادته بقوله: (هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ): أي الطريق الذي يوصل الإنسان إلى السعادة الأبدية، وليس فيه أي اعوجاج.

وهنا طريقان: طريق الرحمن وطريق الشيطان، فالعاقل مَن يسلك الطريق الأوّل ويتجنّب الثاني، فإنّه لا يفضي إلاّ إلى الضلال والشقاء والعناء.

٦٢. (وَ لَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاًّ كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ):

لمّا نهى سبحانه عن طاعة الشيطان والاستجابة له فيما يدعو إليه، أشار إلى أقوام هلكوا بسبب طاعتهم الشيطان، وقال: (وَ لَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ): أي من بني آدم لا خصوص العرب ولا خصوص قريش (جِبِلاًّ كَثِيرًا) جماعة كثيرة، وإضلاله إيّاهم هو إغواؤه لهم (أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ) لأنّ المقام مقام الاعتبار والإشفاق. ولقد حذّر الإمام عليّ(عليه السلام)الناس، في خطبته المعروفة بالقاصعة من اتّباع خطوات الشيطان وسلوك طريقته، فقال: «فَاحْذَرُوا عِبَادَ اللهِ عَدُوَّ اللهِ أَنْ يُعْدِيَكُمْ بِدَائِهِ، وَأَنْ يَسْتَفِزَّكُمْ بِنَدَائِهِ، وَأَنْ يُجْلِبَ عَلَيْكُمْ بِخَيْلِهِ وَرَجِلِهِ. فَلَعَمْرِي لَقَدْ فَوَّقَ لَكُمْ سَهْمَ الْوَعِيدِ، وَأَغْرَقَ إِلَيْكُمْ بِالنَّزْعِ الشَّدِيدِ، وَرَمَاكُمْ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ، فَقَالَ: (رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لاَزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الاَرْضِ وَلاَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)، الحجر: ٣٩. قَذْفاً بِغَيْبٍ بَعِيدٍ، وَرَجْماً بِظَنٍّ غَيْرِ

مُصِيب، صَدَّقَهُ بِهِ أَبْنَاءُ الْحَمِيَّةِ، وَإِخْوَانُ الْعَصَبِيَّةِ، وَفُرْسَانُ الْكِبْرِ وَالْجَاهِلِيَّةِ.( نهج البلاغة: الخطبة ١٩٢.)

٦٣. (هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ):

إنّ إصلاح المجتمع من المفاسد الأخلاقية والاجتماعية يقوم على أصلين:

التبشير والتحذير، أو قل الترغيب والترهيب، أمّا الأوّل فيوجِد شوقاً في نفس الإنسان لما يقترحه المصلح، ويبعث فيه النشاط والاندفاع، وأمّا الأصل الثاني فيدفعه إلى وقاية نفسه ممّا حُذّر منه، ومنعِها من أن تزلّ فتقع في المهاوي التي وقع فيها غيره، (وَالسَّعيدُ من وُعِظَ بغيره) نهج البلاغة: الخطبة ٨٦ . ، فلذلك جاء الأنبياء مبشرين ومنذرين كما في قوله سبحانه: (فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرينَ وَمُنْذِرين).( البقرة:٢١٣.)

وعلى هذا جرى الإسلام في برامجه الإصلاحية، فلما تقدّم في قوله: (إنّ أصحابَ الجَنَّةِ في شُغُل فاكِهُون) الذي يحمل التبشير والترغيب، جاءت هذه الآية على نهج التحذير والترهيب، فقال عزّ من قائل: (هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ) بها على لسان الأنبياء، وكنتم تكذبونهم فيها ولا تؤمنون بها، حاضرةٌ تشاهدونها بأُمّ أعينكم.

ثمّ إنّه سبحانه أخذ لفظ (الْيَوْمَ) موضوعاً للحكم وأخبر عنه بالأمرين التاليين:

٦٤. (اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ):

أي قاسوا حرّها أو ادخلوها لأجل كفركم وإعراضكم عن عبادة الله سبحانه، فقوله: (بِمَا كُنْتُمْ) بيان لسبب.

٦٥. (الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ):

تحدثت الآية السابقة عن مآب المجرمين وهو صَليُ جهنم، وبما أنّه قد يدور في خلَد الانسان: هل كان هناك شهود على أعمالهم الإجرامية؟ عاد البيان القرآني إلى ذكر شيء من الشهود وراء سائر الشهود الذين سنذكرهم عند تفسير قوله تعالى في سورة فصّلت: (حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ). فصّلت:٢٠.

وأمّا المقام، فالله سبحانه يختم على أفواههم التي ستنطق بالأكاذيب والأعذار الواهية عمّا صنعوا في الدنيا، كما يقول: (الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ) فلا يقدرون على الكلام والنطق (وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ) بما عملوا، بدل التكلّم بأفواههم (وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)فالأيدي تشهد بالمعاصي التي كان لها دور كبير فيها، كما أنّ الأرجل تشهد بالجرائم التي لها فيها دور.

ثمّ إنّ الآية تكلّمت عن ختم الأفواه واستنطاق الأيدي والأرجل، ولكنّه سبحانه ذكر في سورة النور شهادة الألسن وقال: (يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) النور:٢٤..

والجواب: إنّ للعباد يوم القيامة مواقف مختلفة لا موقفاً واحداً، فربّما يؤذن لهم أن يتكلّموا في بعضها دون بعض.

وبهذا يرتفع التنافي بين آيتين أُخريين، إحداهما قوله سبحانه:(وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ) الصافات:٢٤.والثانية قوله تعالى: (فَيَوْمَئِذ لاَ يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلاَ جَانٌّ) الرحمن:٣٩..

ويحتمل أيضاً أن تنطق الأيدي والأرجل أوّلاً (وكذلك سائر الجوارح)، فبعد أن تؤدّي شهادتها على أصحابها، يؤذن لهم بالكلام، فلا يمكن لهم إلاّ يُقرّوا بألسنتهم بما شهدت عليه جوارحهم.

هذا، وقد روي عن الإمام الباقر(عليه السلام) أنّه قال: «وليست تشهد الجوارح على مؤمن وإنّما تشهد على مَن حقّت عليه كلمة العذاب، فأمّا المؤمن فيعطى كتابه بيمينه، قال الله عزّ وجلّ:(فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَأُونَ كِتَابَهُمْ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً) الإسراء:٧١.. الكافي:٢/٣٢.

ثمّ إنّ شهادة الألسن والأيدي والأرجل، أو السمع والأبصار والجلود، أمر غيبي ونحن لا نعرف حقيقة هذه الشهادة، ولكن نحتمل

أنّ لهذه الأُمور شيء من العلم والشعور حسب درجة وجودها بأن تتلقّى المعاصي في واقعها، ولكن لا تستطيع أن تشهد في الحياة الدنيوية، فإذا انتقلت إلى الحياة الأُخروية فربّما تساعد هناك الظروف على تكلّمها وإبداء ما تلقّته في الدنيا...

٦٦ و ٦٧. (وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ * وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلاَ يَرْجِعُونَ):

الظاهر أنّ الآيتين بصدد بيان قدرة الله سبحانه على إنزال العقاب بالمجرمين في الدنيا، فبإمكانه أن يعاقبهم بأحد أمرين بل بأُمور ثلاثة:

الأوّل: (وَ لَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ) أي أعميناهم، فإذا هم يبادرون إلى سلوك الطريق لعلّهم يصلون إلى مقاصدهم، كما يقول: (فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ) ولكن بدون جدوى، فهم عاجزون وليسوا بقادرين على سلوك الطريق، لأنّهم لا يملكون ما يهتدون به إليه، فلم يقدروا ولم يستطيعوا ذلك

(فَأَنَّى يُبْصِرُونَ): أي كيف يبصرون ذلك الطريق لو أنّ الله طمس على أعينهم؟

الثاني: (وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ): أي لو تعلّقت إرادتنا على مسخهم (لَمَسَخْنَاهُمْ): أي أخرجناهم من صورة إلى صورة مشوّهة كالقردة والخنازير(عَلَى مَكَانَتِهِمْ)أي في محلّهم ومكانهم، وعندئذ (فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلاَ يَرْجِعُونَ): أي فلم يقدروا على ذهاب ولا مجيء لو مسخناهم، فالمضيّ هنا بمعنى الذهاب، وفي اللغة: مضى يمضي: ذهب وخلا.

ثمّ إنّ التعبير بـ«لو» في قوله تعالى:(لَوْ نَشَاءُ) في كلا الأمرين إشارة إلى عدم تعلّق المشيئة على طمس أعينهم أو مسخهم على مكانتهم، فإنّ علماء الأدب صرّحوا بأنّ مدخول حروف الشرط إذا كان أمراً قطعيّاً يعبّر عنه بـ«إذا» فيقال: (إذا وَقَعَتِ الواقِعَةُ)، وإذا كان مشكوكاً غير متوقّع يعبر عنه بـ«إن» ويقال: «إن جاء زيد»، و إذا كان قطعيّ العدم يعبر عنه بـ«لو» التي توصف بالامتناعية، ولعلّ وجه امتناعه هو ما وعد به سبحانه الأُمّة الإسلامية بأنّ الله لا يعذبهم كعذاب الأُمم السابقة مادام النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) فيهم، قال سبحانه:(وَ مَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) الأنفال:٣٣.

وللإمام عليّ(عليه السلام) هنا كلمة رفيعة ألقاها بعد رحيل النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)، قال: «كَانَ فِي الاَْرْضِ أَمَانَانِ مِنْ عَذَابِ اللهِ، وَقَدْ رُفِعَ أَحَدُهُمَا، فَدُونَكُمُ الاْخَرَ فَتَمَسَّكُوا بِهِ: أَمَّا الاَْمَانُ الَّذِي رُفِعَ فَهُوَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وآله وسلم) وَأَمَّا الاَْمَانُ الْبَاقِي فَالاِْسْتِغْفَارُ، قَالَ اللهُ تَعَالى: (وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)». نهج البلاغة: الكلمات القصار، برقم ٨٨ .

قال الرضيّ ـ بعد نقل هذا الكلام ـ : وهذا من محاسن الاستخراج ولطائف الاستنباط.

٦٨.(وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلاَ يَعْقِلُونَ):

وهذا المعنى أشار إليه سبحانه بقوله:(وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْم شَيْئًا) الحج:٥..

اعتبر المفسّرون هذه الآية إشارة إلى سنّة إلهية وهي أنّ من عمّر كثيراً وطال عمره وأدركه الهرم فالله سبحانه سوف ينكّسه في الخلق، أي يصير بعد القوة إلى الضعف وبعد زيادة الجسم إلى النقصان وبعد الطراوة إلى البلى، يقول الزمخشري:(نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ)نقلبه فيه فنخلقه على عكس ما خلقناه من قبل، وذلك أنّا خلقناه على ضعف في جسده وخلوّ من عقل وعلم، ثم جعلناه يتزايد وينتقل من حال إلى حال ويرتقي من درجة إلى درجة إلى أن يبلغ أشدّه، فإذا انتهى نكسناه في الخلق فجعلناه يتناقص حتى يرجع في حال شبيهة بحال الصبيّ في ضعف جسده وقلّة عقله وخلوّه من العلم. تفسير الكشّاف:٣/٢٩١.

يلاحظ عليه: أنّ تفسير الآية بهذا النحو يورث انقطاع صلتها بما سبق، فإنّ هذه السنّة سنّة عامّة تعمّ جميع الناس ولا اختصاص

لها بالمشركين، فكيف انتقل من إنذارهم بأمرين إلى بيان هذه السنّة بناء على أنّ المراد من الموصول (وَمَنْ نُعَمِّرْهُ) هو مطلق الإنسان؟

ولمّا انتبه صاحب الكشاف إلى هذه الثغرة في هذا التفسير أراد إرجاعه إلى المشركين، وقال:إنّه سبحانه قادر على أن يطمس على أعينهم، ويمسخهم على مكانتهم ويفعل بهم ما شاء. تفسير الكشّاف:٣/٢٩٢. أي إبقاؤهم إلى أرذل العمر.

وعلى هذا فيجب تقدير لفظة «منهم» في الآية، فتكون الآية (وَمَنْ نُعَمِّرْهُ) ـ منهم ـ (نُنَكِّسْهُ فِي الخَلْقِ أَفَلاَ يَعْقِلُونَ) فعلى هذا فقوله: (أفلا يَعقِلون) راجع إلى الأُمور الثلاثة التالية: ١. الطمس. ٢. المسخ. ٣. التعمير إلى أرذل العمر.

وعلى هذا فلابدّ أن يقال من أنّ قوله: (وَمَنْ نُعَمِّرْهُ) أي مَن نبقيهم منهم، كما في قوله سبحانه: (أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ) فاطر:٣٧. أي ألم نبقيكم مدّة من الحياة تكفي المتأمّل وراء الأمرين السابقين أن يتذكّر فيه مَن تذكر، فيصير معنى الآية: إنّ الله يتمكّن من معاقبتهم وراء الأمرين السابقين بإبقائهم المنتهي إلى النكس في الخلق.

٦٩. (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ):

أيّد سبحانه نبيّه الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) بمعاجز كثيرة، إلاّ أنّ التركيز انصبّ على معجزته الكبرى ألا وهي القرآن الكريم، الذي كان له أعظم الأثر في جذب العرب إليه، فربما كان سماع آية أو آيتين من لسان النبيّ الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) سبباً لنبذ الشرك والانقطاع إلى الإسلام. ولمّا رأى زعماء الشرك أنّ النفوس تهفو إلى القرآن لِما تميّز به من حيويّة متدفّقة وصياغة جميلة وقدرة على التأثير، عمدوا إلى تفسير هذه الظاهرة بالقول: إنّ القرآن شعر صاغه محمد(صلى الله عليه وآله وسلم)من فكره وخياله، ولم يتلقّاه من لدن الله تعالى، ذلك أنّ للشعر بعض هذه السمات. وهنا يردّ الوحي الإلهي هذه التهمة، كما ردّ سائر تهمهم الباطلة في مواضع عديدة من القرآن الكريم.

وقد تضمّنت الآية فقرات ثلاث:

أ.(وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ).

ب. (وَمَا يَنْبَغِي لَهُ).

ج. (إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ).

ولنأخذ كلّ فقرة بالبيان والتفسير.

## حقيقة الشعر عند العرب في عصر نزول الآية

الشعر هو الكلام الموزون المقفّى المصاغ على أحد البحور المعروفة في علم العَروض، تهيج به العواطف وتستلذه الآذان، وهو سلاح لساني شديد المضاء، يستعمله الشاعر لأغراض ودواع مختلفة، فإن استعمل غزلاً وتشبيباً، أغرى به الأفئدة بالهوى، وإن صيغ على طريق الحماسة، هاجت النفوس لاقتحام الردى وخوض نيران الوغى، وإن صاغه لغاية الاستعطاف والاستعطاء، حرّك العواطف وهيّجها ودفعها إلى التراحم والمساعدة والعطاء... إلى غير ذلك من الغايات، فهو بحق سلاح لو كان بيد العاقل الرشيد لأصلح به ما فسد وبنى به حضارة، وإن كان في يد الماجن الجاهل، أضرّ به المجتمع وأكثر فيه الفساد، فخذ مثالاً، وهو أنّ مَن سمع وتأمّل في قول امرئ القيس في التشبيب:

أفاطم مهلاً بعض هذا التدلُّل *** وإنْ كنتِ قد أزمعتِ صَرماً فأجمِلِ

وإن تك قد ساءتكِ مني خليقة *** فسلّي ثيابي من ثيابك تنسلِ

تندفع نفسه إلى الهوى ويسهل عليه احتمال الجوى.

وأمّا من سمع قول الشاعر:

ألا كلّ شيء ما خلا الله باطلُ *** وكلُّ نعيم لا محالة زائلُ

تتسامى روحه وتحلّق في سماء معرفة الله سبحانه وعظمته، وأمّا من سمع قول شاعر ثالث:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً *** ويأتيك بالأخبار من لم تزوّدِ

فسوف يقتنع بضعفه ويذعن بجهله.

إلى غير ذلك من الأشعار المختلفة من حيث الدواعي والأغراض.

هذا هو حال الشعر في عصر الجاهلية وعصر نزول القرآن، والله سبحانه يقول: (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ) والمراد من التعليم هو الوحي، أي ما أوحينا إليه الشعر، وأُريد من العلم هو الوحي كقوله سبحانه:(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا) النساء:١١٣، فإنّ التعليم كان عن طريق الوحي بالطرق المألوفة، وما أوحينا إليه الشعر بل أوحينا إليه القرآن، فالقرآن أسمى من أن يكون شعراً، وقد عرفت حقيقة الشعر في العصر الجاهلي والدواعي التي كانت تسبب إنشاءه. نعم ربما يجري على اللسان كلام موزون من دون أن يقصد إنشاء الشعر، ويكون أشبه بالشعر دون أن يكون من مقولته، فهو مجرّد أمر اتّفاقي من غير تكلّف و لا قصد، وعليه يحمل ما قاله النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) يوم حنين وهو راكب البغلة البيضاء:

أنا النبيُّ لا كَذِبْ *** أنا ابن عبد المطّلبْ

وقد حكي إنّه حينما نكبت أصبعه في الغار، قال:

إن أنت إلاّ اصبع دميتِ *** وفي سبيل الله ما لقيتِ

فلا تُعد أمثال هذه الأُمور الجارية على اللسان على عفو الخاطر شعراً، ومنه يظهر حال بعض الآيات التي ربّما يتصور أنّها شعر نظير:(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ) الكهف:٢٩، فهو وإن كان من البحر الطويل لكنّه لا يوصف بالشعر لأنّه أمر وحيد بين الآيات البالغة إلى ١١٠ آية، فلا يوصف الكلام بالشعر يومذاك إلاّ أن يأتي بيت بعد بيت ينشئه الشاعر للغايات المتوخاة.

ومن هذا القبيل قوله سبحانه: (دَانِيَةً عَلَيْهِم ظِلاَلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً) الإنسان:١٤، فهو بظاهره من بحر الرجز ولكنّه فقرة واحدة، بين إحدى وثلاثين فقرة، فلا ينتقض بهذه الآية ونظائرها قوله سبحانه:(وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ) أي ما أوحينا إليه الشعر. وبذلك تقف على أنّ ما أثاره بعض الملاحدة من وجود الشعر في القرآن بهذه الآيات وأمثالها فلا يعدّ نقضاً، لما عرفت من أنّ الشعر في عصر الرسالة، هو ما ذكرنا حيث يقوم الشاعر بإنشاء أبيات موزونة مقفّاة لأحد المقاصد، ويأتي ببيت بعد بيت، وأين هذا من وجود آية إذا فصلت عن سائر الآيات تصبح بصورة مصرع أو شعر قصير؟!

ولأجل الابتعاد عن الاتّهام بالشعر نرى أنّ الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) كان يتمثّل بالشعر لكن منكسراً، فمثلاً كان يتمثّل بهذا البيت:

«كفى الشيب والإسلام للمرء ناهياً»، فكان يعتذر بقوله: إنّي لست بشاعر. أمالي الصدوق:٤٩٥، الحديث٦.

وروي أنّ رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) كان يتمثّل ببيت أخي بني قيس على ما مرّ، فيقول:

ويأتيك من لم تزوّد بالأخبار.

فيقال له: ليس هكذا، فيعتذر بالنحو السابق. من لا يحضره الفقيه:٤/٢٧٢، الحديث٨.

وإن شئت أن تقف على حقيقة المراد من قوله سبحانه:(وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ) فاقرأ تاريخ العرب في العصر الجاهلي واهتمامهم بالشعر، حيث كانوا يقيمون المهرجانات الشعرية في أشهر الأماكن وأكثرها ازدحاماً، فهذه سوق عكاظ ومجنة وذوالمجاز، أسواق

تجارية معروفة في الجاهلية، كانت تحتضن تلك المهرجانات والاحتفالات الأدبية وكانت مركزاً لتجمع أشهر الشعراء والخطباء وأبرزهم، كما كان للشعر مكانة مرموقة في المجتمع العربي حتّى سُمّي بـ«ديوان العرب». تفسير القرطبي:١/٢٤.

وأفضل دليل على أنّ القرآن ليس شعراً هو أنّ فصحاء العرب وبلغاءهم الذين كان يتحاكم إليهم الشعراء، شهدوا بذلك، فهذا هو الوليد بن المغيرة المخزومي يقول لقريش ـ وعندما اجتمعت في دار الندوة ـ : إنّكم ذوو أحساب وذوو أحلام، وإنّ العرب يأتونكم فينطلقون من عندكم، على أمر مختلف. فأجمعوا أمركم على شيء واحد. ما تقولون في هذا الرجل (يعني محمداً(صلى الله عليه وآله وسلم))؟ قالوا: نقول: إنّه شاعر. فعبس عندها وقال: قد سمعنا الشعر فما يشبه قوله الشعر. فقالوا: نقول إنّه كاهن.... مجمع البيان:١/١٧٦.

وعلى كلّ تقدير فالآية ردّ لاتّهام بعض المشركين بأنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)شاعر وقرآنه شعر، كما يحكي عنه سبحانه: (وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ) الصافات:٣٦.. هذا ما يتعلّق بالفقرة الأُولى.

وأمّا الفقرة الثانية ـ أعني قوله (وَمَا يَنْبَغِي لَهُ)ـ فالمراد بها: أنّ الشعر لا يتأتّى له، ولا يتيسّر له لو طلبه.

ثمّ إنّ سلب قدرة النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) على إنشاء الشعر هو لأجل مصلحة عليا، وهي صيانة القرآن من أن تتطرّق إليه الشبهة بأنّ النبيّ إنّما أتى به لِما يتمتع به من مَلَكة قرض الشعر وإنشائه، ولهذه الغاية ما علّمه سبحانه الشعر، ولم يتيسّر له(صلى الله عليه وآله وسلم) قَرْضه، الأمر الذي جعل تلك التهمة (كون القرآن شعراً) داحضة عند مَن له معرفة بأجناس الكلام وأساليبه. ونظير عدم تيسّر قول الشعر له، كونه لا يُعدّ نقصاً للنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)، لأنّ القراءة والكتابة وسيلة لفهم الأسرار والمعاني، فلو بلغ الإنسان مرتبة من الكمال يعلم بها ما في الكون من الأسرار دون أن يستعين بقراءة كتاب، يكون أفضل ممّن يقف عليها عن طريق القراءة، يقول سبحانه: (وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَاب وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ) العنكبوت:٤٨ .

وحاصل الكلام: إنّ تنزيه النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) عن الشعر كان لأجل الحفاظ على معجزة القرآن، وصيانة مقام الرسول، وهو نظير تنزيهه عن معرفة الكتابة والقراءة.

نعم ليست الآية ناظرة إلى ذمّ الشعر لأنّه قد صحّ عنه(صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه كان يسمع الشعر ويحثّ عليه، وقد روي أنّه قال لحسّان بن ثابت: لا تزال يا حسّان مؤيّداً بروح القدس ما نصرتنا بلسانك.( مجمع البيان:٨/٣١٥.)

ولمّا قدم عليه كعب بن زهير بن أبي سُلمى وأنشده في المسجد قصيدته المشهورة:(بانت سعاد)، أعرب(صلى الله عليه وآله وسلم) عن ارتياحه، ويقال: لمّا بلغ كعب إلى قوله:

إنّ الرسول لنور يستضاء به *** مهنّد من سيوف الله مسلول.

أشار رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) إلى الخلق بكمّه ليسمعوا. المستدرك على الصحيحين:٣/٥٨٢؛ أعيان الشيعة:٩/٢٩.

قال ابن هشام: ويقال إنّ رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) قال له ـ حين أنشد:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول ..............................

ـ : «لولا ذكرت الأنصار بخير، فإنّهم لذلك أهل». فنظم كعب قريضاً خصّ الأنصار بالمدح وقال:

من سرّه كرم الحياة فلا يزل *** في مِقْنب من صالحي الأنصار

ورثوا المكارم كابراً عن كابر *** إنّ الخيار همُ بنو الأخيار[1]

[1] السيرة النبوية لابن هشام:٤/١٦٧ـ ١٦٨، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثالثة، ١٤٢١هـ .

فلولا أنّ الشعر الهادف الذي يتبنّى القيم والأخلاق ويرشد المجتمع إلى الصلاح والفلاح كان أمراً محبوباً وشيئاً مطلوباً، لما صرف النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)وقته الشريف في استماع قصيدة كعب بن زهير البالغ عدد أبياتها ٥٨ بيتاً. فإذا أُضيف إليها ما أنشده كعب في مدح الأنصار لبلغ عدد أبيات القصيدتين اللّتين أنشدهما في محضر النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) واحداً وسبعين بيتاً.

انظر القصيدتين في: السيرة النبوية لابن هشام:٤/١٥٧ـ١٦٨.

وكان (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: «إنّ من الشعر لحكمة وإنّ من البيان لسحراً». مجمع البيان:٨/٣١٥.

يقول العلاّمة الأميني(رحمه الله): كان يراه نصرةً للإسلام وجهاداً دون الدين الحنيف، وكان يصوّر للشاعر جهاده وينصّ به، ويقول:

«اهجوا بالشعر؛ إنّ المؤمن يجاهد بنفسه وماله، والّذي نفس محمد بيده كأنّما تنضحونهم بالنبل».

وفي لفظ آخر: «لكأنّ ما ترمونهم به نضح النبل».

وفي ثالث: «والّذي نفسي بيده لكأنّما تنضحونهم بالنبل فيما تقولون لهم من الشعر». مسند أحمد: ٤/٤٩٨ برقم ١٥٣٦٩، وص ٤٩٢ برقم ١٥٣٥٩، وج ٧/٥٣٣ برقم ٢٦٦٣٣.

وكان (صلى الله عليه وآله وسلم) يثوّر شعراءه إلى الجدال بنبال النظم وحسام القريض، ويحرّضهم إلى الحماسة في مجابهة الكفّار في قولهم المضادّ لمبدئه القدسيّ، ويبثُّ فيهم روحاً دينيّاً قويّاً، ويؤكّد فيهم حميّة تجاه الحميّة الجاهليّة، وكان يوجِد فيهم هياجاً ونشاطاً في النشر والدعاية، وشوقاً مؤكّداً إلى الدفاع عن حامية الإسلام المقدّس، ورغبةً في المجاهدة بالنظم. الغدير: ٢/٧ ـ ٨ .

وأمّا الفقرة الثالثة: أعني قوله تعالى: (إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ)فالضمير يرجع إلى القرآن(إلاّ ذِكْرٌ ): أي مذكِّر للناس بما تعلّموه في الفطرة (وَقُرْآنٌ) مصدر أُريد به المقروء(مُبِينٌ)وصف للقرآن، أي واضح المقاصد والمفاهيم.

٧٠. (لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ):

اللام لام الغاية، وكأنّه غاية لفقرة محذوفة، فالله سبحانه لمّا نفى أن يكون القرآن شعراً، كما يُستفاد من قوله:(وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ)، وأنّ ما علّمه الرسول ليس إلاّ قرآناً مبيناً، بيّن في هذه الآية أنّ الغاية من وحي القرآن أمران:

أ. (لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا): أي لينذر القرآن أو الرسول من كان عاقلاً حيّ القلب مستنير البصيرة، فيهتدي بهداه.

ب. (وَ يَحِقَّ الْقَوْلُ): أي العذاب (عَلَى الْكَافِرِينَ)حيث يتمّ به الحجّة عليهم.

تطلق لفظة الحياة ويراد بها الحياة المشتركة بين الإنسان والحيوان والنبات، وإن كان لها درجات مختلفة، فهذا النوع من الحياة أمر مشترك بين المؤمن والكافر، فكلٌّ يأكل ويمشي ويتكلّم ويعقل ويحاسب، غير أنّ للحياة معنى آخر يختصّ بالمؤمن دون الكافر، وهي الحياة المعنوية، أعني: معرفة المبدأ وصفاته وأسمائه وأفعاله، ورسله وكتبه، وأنّ الإنسان لم يُخلق سُدى، لأنّ فعله سبحانه منزّه عن العبث، وأنّ للإنسان حياة أُخرى بعد هذه الحياة.

فمعرفة هذه الأُمور تمنح القلب حياةً خاصّة تميّزه عن قلب الكافر، ولذلك يصف سبحانه المشركين بالموتى، فيقول:(إِنّما يَسْتَجِيبُ الّذينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوتى يَبْعَثُهم اللهُ ثُمَّ إِليهِ تُرجعون). الأنعام:٣٦.

ويظهر من بعض الآيات أنّ للقلب صحّة ومرضاً ولذلك يقول تعالى: (فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ فَزادَهُمُ اللهُ مَرَضاً)( البقرة:١٠.)، كما تُعدّ القسوة من صفات قلوب الكافرين والظالمين، قال تعالى: (ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً)( البقرة:٧٤. )، وهذا هو الإمام عليّ(عليه السلام) يقول: «وَمَنْ كَثُرَ كَلاَمُهُ كَثُرَ خَطَؤُهُ، وَمَنْ كَثُرَ خَطَؤُهُ قَلَّ حَيَاؤُهُ، وَمَنْ قَلَّ حَيَاؤُهُ قَلَّ وَرَعُهُ، وَمَنْ قَلَّ وَرَعُهُ مَاتَ قَلْبُهُ، وَمَنْ مَاتَ قَلْبُهُ دَخَلَ النَّارَ».( نهج البلاغة: الكلمات القصار، برقم ٣٤٩.)

ويقول الإمام محمّد بن علي الجواد (عليه السلام): «موت الإنسان بالذنوب أكثر من موته بالأجل، وحياته بالبرّ أكثر من حياته بالعمر».
كشف الغمة في معرفة الأئمة: ٣ / ١٤٢ .

الآيات ٧١ ـ ٧٦ (أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا ..... إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ).

الآيات: الحادية والسبعون إلى السادسة والسبعين

(أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ * وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ * لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ * فَلاَ يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ).

المفردات

ذلّلناها: سخّرناها لهم.

رَكوبهم: الرَّكوب(صفة): ما يُركَب، يقال: دابّة رَكوب، أي تصلح للرُّكوب. والرُّكوب مصدر رَكِب.

التفسير

لمّا أنذر سبحانه المشركين بقوله: (وَ يَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ) أخذ هنا في ذكر النّعم الدالّة على وحدانيته في الخلق والتدبير، حتى يرجع المُعاند عن عناده والمنكِر عن إنكاره بالتأمّل في هذه النعم الكبار التي تدور عليها رحى حياته، وذكر الأنعام وقال:

٧١. (أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ):

المراد من الرؤية في قوله: (أَوَ لَمْ يَرَوْا) هو الرؤية العلمية لا البصرية فإنّ الرؤية البصرية ليست مورد الإنكار حتى تقع موقع الاستفهام،(أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ): أي لانتفاعهم (مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا)ونسب خلق الأنعام إلى الأيدي، نظير قوله سبحانه في خلق آدم، مخاطباً إبليس: (مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ) ص:٧٥. والظاهر أنّ نسبة الخلق في هذه الموارد إلى الأيدي لغاية إظهار العناية بالمخلوق، كما يقول الأب لولده: أنا ربّيتك بيدي، يريد بذلك الإعراب عن اهتمامه وعنايته به، ومثله أن يقول أحدهم: هذا العمل قمت به بيدي. ويظهر هذا القصد في قوله سبحانه الآنف الذكر: (لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ)فهو يُشعر بالعناية ويستهدف التنديد بإبليس، حيث استكبر وترك السجود لمخلوق للخالق به عناية. ومع ذلك يحتمل أن يكون القصد من إسناد خلق الأنعام إلى الأيدي، هو لتأكيد تفرّده سبحانه في الخلق والإيجاد، وعدم مشاركة الآخرين في خلقها.

ثمّ إنّ الوهابية تصرّ على أنّ لفظ اليد أو الأيدي في هذه المقامات قد استعمل في المعنى اللغوي، وينكرون المجاز والكناية جدّاً، وما هذا إلاّ لأنّ حمل هذا اللفظ وغيره على المعنى اللغوي يؤيّد فكرة التجسيم والتشبيه التي يتبنونها باطناً لا ظاهراً، مع أنّ القرآن إنّما ورد بلسان العرب المشحون بالكناية والمجاز. والعجب أنّهم يقولون إنّ لله يداً ولكن الكيفية مجهولة، وهم يتناقضون في هذا الصدد فهم من جانب يصرّون على أنّ اليد مستعملة في معناها اللغوي ومن جانب آخر ينكرون الكيفية، مع أنّ المعنى اللغوي قائم بالكيفية، فلو حذفنا الكيفية لم يبق لليد معنى يراد به في هذه الموارد.

وبعبارة أُخرى: حقيقة اليد قائمة بكيفيتها، فلازم القول بالاستعمال في المعنى اللغوي، دون أن يكون كناية أو مجازاً هو ثبوت الكيفية لله سبحانه، فالقول بالاستعمال في المعنى اللغوي مع عدم الكيفية، تفكيك بين المتلازمين. إنّ إصرار الوهابيين على إنكار المجاز لغاية حمل الصفات الخبرية الواردة في القرآن الكريم على معانيها اللغوية الّتي تلازم التجسيم والتشبيه، ولذلك قمنا بتأليف رسالة مستقلّة حول الموضوع ننشرها آخر هذا الجزء، فلاحظ .

قوله تعالى:( فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ): أي فهم متصرّفون فيها كيف يشاءون تصرّف المالك بماله.

ثمّ فسّر في الآيتين التاليتين كيفية الانتفاع، فقال:

٧٢ و٧٣. (وَ ذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ):

قوله:(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ): أي سخّرناها بالانقياد لهم، وقد بلغ مدى تسخير الله سبحانه للأنعام وتذليلها للإنسان إلى حدٍّ نرى أنّ طفلاً صغيراً يقود قافلة من الجمال من مكان إلى آخر من دون أن تعصيه أو تخرج عن إرادته.

ثمّ إنّه سبحانه ذكر أنّهم ينتفعون بهذه الأنعام بوجوه مختلفة:

أ. (فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ): أي فبعضها ما يُركب في الأسفار ويُحمل عليه الأثقال، خصوصاً في البوادي ذات الرمال الصعبة الاجتياز والتي يعسر قطع مسافاتها.

ب. (وَ مِنْهَا يَأْكُلُونَ): أي ينتفعون من لحومها.

ج. (وَ لَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ) ينتفعون من أصوافها وأوبارها وجلودها.

د.(وَ مَشَارِبُ) جمع مشرب مصدر ميمي و أُريد به الألبان .

ثم إنّه سبحانه حضّهم على معرفة المنعم وشكره وقال: (أَفَلاَ يَشْكُرُونَ)، فإنّ شكر المنعم أمر فطري والإنسان العاقل الرشيد يخضع للمنعم، فأيّ منعم أكبر من الله سبحانه، وقد سهّل للإنسان الانتفاع بهذه الأنعام؟ ولكنّهم، يا للأسف، مكان أن يشكروا الله سبحانه ويعبدونه وقد رأوا تفرّده بالخلق والتدبير، اتّبعوا سنّة الآباء في عبادة الآلهة المكذوبة، كما يقول:

٧٤. (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ):

كان المشركون يعتقدون بأنّ لآلهتهم قدرة غيبية تنصر بها عبدتها، كما يقول:(وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً) أشركوها به سبحانه في العبادة(لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ) أي لأجل أن يُنصروا من جهتهم، وسيوافيك تفصيله.

والضمائر في (اتَّخَذُوا) و (لَعَلَّهُمْ) و (يُنْصَرُونَ)ترجع إلى المشركين. ثمّ إنّه سبحانه كشف في الآية التالية السترَ عن كيفية خضوع المشركين لهذه الآلهة المكذوبة، فقال:

٧٥. (لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ):

والآية تفيد أمرين:

أ. (لاَ يَسْتَطِيعُونَ) يعني هذه الآلهة المكذوبة (نَصْرَهُمْ) في الحروب والحياة، لأنّها جمادات لا تسمع ولا تعقل ولا تقدر على دفع الشرّ عن نفسها، فكيف يمكنها نصر الآخرين؟

ب. (وَ هُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ) الضمير الأوّل يرجع إلى المشركين، والثاني إلى الآلهة من دون الله، أي أنّ المشركين بلغوا من الخضوع إلى حدٍّ صاروا جنداً للآلهة، وأتباعاً لها، ولكنّ الله سبحانه يحضر الجميع يوم القيامة للجزاء والحساب، قال سبحانه: (وَ جَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ). الصافات:١٥٨.

ثمّ إنّ قوله سبحانه: (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ) دليل واضح على أنّ المشركين، كانوا غير موحّدين في أمر التدبير حيث جعلوا زمام التدبير الذي منه الانتصار في الحرب بيد الآلهة، فهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على أنّهم كانوا مشركين في العبادة والتدبير معاً، فما يلهج به دعاة الوهابية من الإصرار على أنّ مشركي عصر الرسالة كانوا مشركين في أمر العبادة فقط دون غيرها من مراتب التوحيد، محجوج بهذه الآية، وبآية أُخرى وهي قوله سبحانه:(وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا).( مريم:٨١ .)

فإذا كانت العزّة حسب زعمهم بيد الآلهة فمعنى ذلك أنّها تعزّهم وتذلّهم مع أنّه قد ورد في الذكر الحكيم: (تُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) آل عمران:٢٦..

توضيح ذلك: أنّ المشركين كانوا موحّدين في الخالقية، والقرآن الكريم ينقل عقيدتهم في هذا المضمار ويقول: (وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ) الزخرف:٩.، ولكنّهم كانوا مشركين في توحيد الربوبية وهو تدبير العالم وإدارة حياتهم، فقد كانوا يعتقدون بأنّ أمر التدبير قد فُوّض إلى الأصنام التي سمّوها بالآلهة ويرون أنّ العزّة بأيديها، كما هو ظاهر قوله تعالى: (وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا) مريم:٨١.، وكذلك كانوا يرون أنّ النصر في الحروب بأيدي هذه الأصنام حيث نقل ذلك عنهم سبحانه بقوله في هذه السورة: (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ)، وعلى هذا فالنقطة الحسّاسة التي التبس فيها الأمر على الوهابيين، هي الخلط بين التوحيد في الخالقية والتوحيد في الربوبية، وقد عرفت أنّ الآيات تفرّق بينهما.

وبهذا يظهر أنّ تطبيق ما ورد من الآيات في حقّ المشركين على الموحّدين من الأخطاء الواضحة، فالوهابية في منشوراتهم الموروثة عن محمد بن عبد الوهاب وقبله ابن تيمية قد ساووا بين الموحّدين والمشركين، بحجّة أنّ الكل يطلب الشفاعة، مع وجود الفرق الواضح، فإنّ الموحّد يؤمن بأنّ الأمر كلّه بيد الله سبحانه وهو يتوسّل بدعاء النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) أو بمقامه إلى الله كي يقضي سبحانه حاجته، ولكن المشرك يتوسّل بالأصنام ويرى أنّ الأُمور بأيديها حيث إنّ التدبير قد فُوّض إليها، فالآيات الناظرة إلى المشركين تختلف موضوعاً مع سلوك الموحّدين.

ثمّ إنّ الوهابية اتّخذوا الآية التالية ذريعة للتهجّم على المسلمين، وحاولوا بذلك التسوية بين عملهم وعمل الكافرين، قال سبحانه: (أَلاَ للهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ) الزمر:٣..

فقال الوهابيون: إنّ عمل المسلمين كعمل المشركين حيث إنّ المشركين لم يكونوا معتقدين في أوثانهم إلاّ أمراً واحداً وهو أنّ عبادتهم تقرّبهم إلى الله دون أن يعتقدوا فيهم شيئاً من التدبير، فإذا كان هذا عملهم فيكون عمل المسلمين كعملهم حيث إنّهم يتوسّلون بالنبي وآله لا لشيء إلاّ ليتقرّبوا بذلك إلى الله سبحانه.

أقول: في كلامهم هذا مغالطات:

الأُولى: أنّ المشركين ـ كما مرّ ـ كانوا معتقدين بالربوبية في أصنامهم ولذلك كانوا يسمّونها أرباباً، وهذا بخلاف المسلمين، فهم موحّدون في أمر الربوبية.

الثانية: أنّ دعاء المشركين كان نابعاً عن الاعتقاد بربوبية الأصنام وهذا بخلاف دعاء المسلمين فإنّه نابع عن كون المدعوّين عباداً صالحين تستجاب دعوتهم.

الثالثة: أنّ المشركين لأجل الاعتقاد بربوبية أصنامهم كان دعاؤهم والتوسّل بهم متّسماً بالعبادة، ويصحّ في حقّهم قولهم: (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى) وأمّا عمل المسلمين فهو مجرّد طلب دعاء لا يوصف بالعبادة لأنّه نابع عن الاعتقاد بعبوديّتهم لا ربوبيّتهم.

الرابعة: أنّ الله سبحانه فضح قول المشركين حيث خصّوا عملهم بالعبادة لأجل التقرّب وقال في آخر الآية (إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ) حيث دلّ على أنّهم وراء عبادتهم لغاية التقرّب، كانوا معتقدين بربوبيّتهم وتفويض الأمر إليهم.

وأنت إذا تدبّرت فيما ذكرنا تعرف أنّ القوم غارقون في غلوائهم ويصرّون على أخطائهم الموروثة من إمام إلى داع، دون أن يتدبّروا أدلّة الآخرين، وسيوافيك الكلام في ذلك عند تفسيرنا لسورة الزمر، فانتظر.

٧٦. (فَلاَ يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ):

الآية تطييب لنفس النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) وتسلية له، قائلة:(فَلاَ يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ): أي استنصارهم بالآلهة المزعومة، أو غير ذلك من أقوالهم في الشرك وإنكار البعث، ثم علّل النهي بقوله: (إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ) فهم يؤاخذون بعقائدهم وأعمالهم. وقدّم الإسرار على الإعلان لأهميّته.

الآيات ٧٧ ـ ٨٣ (أَوَ لَمْ يَرَ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ ... فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْء وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ):

الآيات: السابعة والسبعون إلى آخر السورة

(أَوَ لَمْ يَرَ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَة فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّة وَهُوَ بِكُلِّ خَلْق عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِر عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْء وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ):

المفردات

أوَ لم يرَ: المراد هو الرؤية العلمية لأنّ الرؤية البصرية ليست مورد الإنكار حتى يُستفهم عنها.

خصيم: الخصيم: المبالغ في الجدل والخصومة إلى أقصى حدٍّ.

ضرب لنا مثلاً: أي وصف لنا قصّة.

رميم: البالي من العظام، ولم يقل: رميمة، لأنّه اسم لا صفة.

ملكوت: مبالغة في المِلك، أي المِلك التام، كالرّحموت من الرحمة، وهذا النوع من الصيغ قليل في لغة العرب.

التفسير

روى المفسّرون أنّ أُبيّ بن خلف الجُمَحيّ كان أُبيّ وأخوه أُميّة على شرّ ما عليه أحد من أذى رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) وتكذيبه، وقد قُتل أُميّة يوم بدر كافراً، وأمّا أُبيّ فقتله رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) يوم أُحد، طعنه بحربة في عنقه، فلم يلبث إلاّ يوماً أو بعض يوم حتى مات من ذلك الجرح. تاريخ الطبري:١٢٠/٣ ـ ١٢١، والكامل لابن الأثير:٧٢/٢. (أو العاص بن وائل السَّهميّ) جاء بعظم بال متفتّت فقال: يا محمد أتزعم أنّ الله يبعث هذا؟ فقال: نعم، ونزلت الآية: (أَوَ لَمْ يَرَ الإِنْسَانُ...) إلى آخر السورة». وربما نسب إلى ابن عباس أنّه قال: إنّ الجائي بعظم بال هو عبد الله بن أُبيّ ابن سَلُول، وهو وهم لأنّ الآية مكيّة والرجل مدني، من رؤوس المنافقين.

إذا وقفت على ذلك فاعلم أنّ المشركين كانوا يختلفون مع النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)حول موضوعين أكثر من غيرهما وهما: التوحيد في العبادة والبعث يوم القيامة، ولذلك نرى تأكيد القرآن على هذين المبدأين أكثر من غيرهما. ولمّا أبطل سبحانه منطق المشركين في الآيات السابقة من أنّ القرآن شعر والنبيّ شاعر، أخذ في التركيز على أمر المعاد بإبطال شبهتهم (وقد عرفت الشبهة)، وذلك بوجوه ثلاثة:

وقبل بيان الشبهة يصف الإنسان بأنّه (خَصِيمٌ مُبِينٌ) ويقول:

٧٧.(أَوَ لَمْ يَرَ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَة فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ):

قد مضى أنّ الرؤية في قوله: (أَوَ لَمْ يَرَ الإِنْسَانُ) تعني العلم، وإلاّ فالرؤية البصرية حاصلة لكلّ إنسان على أنّه خلق من نطفة ضعيفة، وإنّما المجهول هو التدبّر في ذلك حتى يستنتج منه إمكان بعثه وإحيائه (أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَة): أي من منيّ (فَإِذَا هُوَ): أي الإنسان (خَصِيمٌ)مبالغ في الخصومة والجدال بالباطل (مُبِينٌ) واضح الخصومة.

فالله سبحانه خلق الإنسان من نطفة، ثم وضعها على مدارج الكمال، فمن نطفة إلى علقة إلى مضغة مُخلّقة وغير مخلّقة، ثم إلى

عظام، ثم إلى كسوة العظام باللحم ثم إنشاؤه خلقاً آخر، فيخرج من بطن الأُم ولداً سوّياً يعيش بين الطفولة والصبا ثم الشباب والكهولة والشيخوخة، فعلى الإنسان أن يتأمّل في نشأته الأُولى، وكيف انتقل من طور إلى طور حتى صار هذا الإنسان الذي يقف مخاصماً ومجادلاً أمام الله سبحانه ورسالات أنبيائه، فمَن قدر على جميع ذلك، كيف لا يقدر على إعادته وبعثه من جديد؟

ثمّ إنّه سبحانه أشار إلى شبهته ونقدها وقال:

٧٨. (وَ ضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ):

أمّا الشبهة فهو قوله:(مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ)، وأمّا نقدها فتمّ بوجوه أحدها في هذه الآية، والبقية في الآيات التالية:

أوّلها: قوله: (وَ نَسِيَ خَلْقَهُ): أي أنّه خلقه من أضعف الأشياء(النطفة)، فالقادر على خلق الإنسان من أضعف الأشياء قادر على إحيائه وبعثه. فالله سبحانه هو الذي أعطى للنطفة كمالاً بعد كمال حتى جعلها إنساناً سوياً ناطقاً، فمن عظمت قدرته حتى جعل من الماء المهين إنساناً، لا يعجزه أن يحي العظام الرميم.

٧٩. (قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ):

الظاهر أنّه دليل ثان على ردّ الشبهة، وحاصله تشبيه المعاد بالمبدأ، فأمر سبحانه نبيّه أن يردّ عليه بقوله: (قُلْ يُحْيِيهَا): أي العظام الرميم (الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ) من غير شيء، وهو قادر على إعادة ما أنشأه من غير شيء كما يقول: (وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ): أي عالم بكلّ وسائل الخلق، ومنها تكوين الإنسان من عظامه البالية.

وبعبارة أُخرى: الإنشاء الابتدائي الذي يشير إليه بقوله: (أَوَّلَ مَرَّةٍ)أصعب ـ في نظر الإنسان ـ من إعادة المخلوق إلى ما كان عليه.

إلى هنا تمّ تفنيد الشبهة ببيانين:

أوّلهما: عطف نظر الإنسان إلى مبدأ خلقه وهو أنّه سبحانه خلقه من ماء مهين ثم جعل هذا الموجود الضعيف إنساناً سوياً، فالقادر على هذا النوع من الإيجاد، قادر على إعادة الروح إلى العظام البالية.

ثانيهما: الإيجاد الابتدائي في نظر الإنسان أصعب من إعادة الحياة إلى المخلوق الموجودة أجزاؤه المتشتتة، فالقادر على الأوّل أَولى بأن يكون قادراً على الإعادة.

والذي يدلّ على أنّ الاستدلال مبنيّ على سعة قدرته ما يأتي في الآية التالية، حيث إنّ الآيات جميعاً كسبيكة واحدة والهدف من ورائها تنبيه المخاطب أنّه لو كانت قدرته محدودة لكان للشبهة مجال، وأمّا إذا وسعت قدرته كلّ شيء بشهادة أنّه خلق الإنسان ولم يكن شيئاً مذكوراً، أو خلق السماوات والأرض وهي أعظم من خلق الإنسان، لكان أقدر على إحياء عظامه البالية.

٨٠ .(الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ):

هذا هو البرهان الثالث لتفنيد الشبهة، وحاصله: أنّ الإنسان الخصيم استبعد جعْل الشيء الموات حيّاً أو تحوّل الضدّ إلى الضدّ، فوافاه الجواب بأنّه لا استبعاد في ذلك حيث إنّه سبحانه جعل من الشجر الأخضر الذي يقطر منه الماء ناراً، كما قال: (الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ) وتشعلون النار.

وتسأل: ما هو المراد بالشجر الأخضر؟ ذهب أكثر المفسّرين إلى أنّ المراد به شجراً يُسمّى المَرَخ وشجراً آخر يُسمّى العَفار، إذا قطع منهما عودان وضرب أحدهما بالآخر انقدحت منهما النار وهما أخضران، وهما بمنزلة القدّاحة التي يُضرب فيها الحديد بالحجر الخاص لينطلق الشرر منها، فحصول الحيّ من الميّت ليس بأعجب من انقداح النار من الشجرة الخضراء، وهما متضادان.

لقد جعل الله سبحانه الضدّين ـ الماء والنار ـ في محلّ واحد، والقادر على مثل هذا قادر على إحياء الموتى، والحقّ أن يقال: إنّ اعتراضاتهم أو تشكيكاتهم نابعة عن الجهل بسعة قدرة الله تعالى: (فَما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ). الزمر: ٦٧ .

هذا ما ذكره أكثر المفسّرين من تفسير الآية بشجرتي المرخ والعفار، ولكن يمكن تفسيرها بوجه أوسع، وهو أنّه سبحانه ـ والله العالم ـ أراد بالشجر الأخضر عامّة الأشجار في الغابات والبساتين، فربما تنشب الحرائق نتيجة احتكاك بعضها ببعض على أثر الرياح والعواصف، فيتراءى خروج النار من هذه الأشجار، فقد تمكّنت النار من الأشجار الخضراء، فالقادر على الجمع بينهما قادر على إحياء الموتى.

وعلى الوجه الأوّل، فمعنى قوله: (فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ): أي أنّ النار الصادرة من احتكاك أحد العودين بالآخر تكون سبباً لإيقاد النار في الحطب و غيره. ومع ذلك يمكن أن يراد مطلق الشجر الأخضر حيث إنّه يتضمّن الماء ومع ذلك يحترق في شروط خاصّة.

٨١ . (أَوَ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ):

هذا هو البرهان الرابع لتفنيد الشبهة وهو أنّ مَن قدر على خلق السماوات والأرض مع ما فيهما من عجائب الخلق وعظائم الصنع والنظم البديعة، أقدر على إعادة الحياة إلى العظام البالية كما قال:(أَوَ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى) إعادة الإنسان إلى الجزاء بعد الموت كما قال: (أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ)، والظاهر أنّ هذه الفقرة كناية عن إعادتهم للجزاء بعد الموت، يقول الطبرسي: أي يقدر على إعادة خلق البشر، ولما تضمّنت الآية السؤال، أجاب سبحانه عن هذا الاستفهام بقوله: (بَلَى): أي قادر على ذلك (وَ هُوَ الْخَلاَّقُ) يخلق خلقاً بعد خلق (الْعَلِيمُ) بجميع ما خلق أو بأصناف ما خلق.

إنّ(بَلَى) في قوله: (بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ) ردٌّ للنفي أي «ليس»، وتصديق للمنفي أي: (الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ)، على عكس «نعم» فلو قيل «نعم» يكون تصديقاً للنفي، أي عجزه سبحانه عن خلق المثل.

ولذلك رووا عن ابن عباس أنّه قال: إنّهم لو قالوا: «نعم» بدل «بلى» في آية: (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى) الأعراف : ١٧٢ . لكفروا.

ثمّ إنّه سبحانه ختم الآية بقوله:(وَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ) أمّا الأوّل (الْخَلاَّقُ) فيشير إلى قدرته غير المتناهية، وأمّا الثاني (الْعَلِيمُ) فيشير إلى علمه غير المتناهي، وإحاطته بكلّ ما في هذا الكون و بجميع قوانينه وأسراره ودقائقه.

وربما يقال بأنّ الضمير في قوله: (عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ) يرجع إلى السماوات والأرض، أي هو قادر على خلق مثل السماوات والأرض فإنّهما تشتملان على الإنسان وكلّ من فيهما من العقلاء، ولذلك أُعيد ضمير العقلاء إليها تغليباً.

يلاحظ عليه: أنّ الكلام في بعث الإنسان وإعادته لا بعث السماوات والأرض.

ثمّ إنّ هنا سؤالاً وهو أنّ الآية تدلّ على إعادة مثل الإنسان مع أنّ المُعاد هو الإنسان بعينه لا بمثله.

ويمكن أن يقال: إنّ إعادة الموجود المادّي لا يكون نفس المبتدأ، بل يكون مثله حتى مع حفظ جميع أجزائه وموادّه، وتوضيح ذلك: نفترض أن إنساناً صنع لَبِنةً من ماء وطين، فلهذه اللَّبنة خصوصية خاصّة فلو هدمها وصنع بمادتها لَبِنة أُخرى فهي عند العرف اللبنة الأُولى، ولكنّها عند العقل مثلها، لأنّ الصورة الأُولى انعدمت بانهدامها وهذه صورة جديدة.

ولعل تعبيره سبحانه بـ(مِثْلَهُمْ) باعتبار البدن، فإنّ البدن المعاد مثل البدن الأوّل، لأنّ الأوّل بطلت صورته وبقيت مادّته فلو أُعيدت إليه الحياة فهو مثل الأوّل لا عينه.

نعم يمكن أن يقال: إنّ الإنسان المُعاد هو نفس الإنسان المبتدأ بشرط تعلّق الروح بالبدن الثاني، فبما أنّ شخصية الإنسان وواقعه قائمة بالنفس والروح، فإذا تعلّقت بالبدن الثاني تصبح نفس الإنسان المبتدأ، لأنّ إنسانية الإنسان بروحه ونفسه وهي محفوظة في كلا البدنين.

ويمكن استفادة ذلك من قوله سبحانه في ردّ شبهة من قالوا:(أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ) السجدة:١٠، فراجعه في موضعه من سورة السجدة.

| إلفات نظر إلى أمرين |
|---|
| من خلال الآيات المتقدّمة نستطيع الخروج بفائدتين أُولاهما فقهية والأُخرى أُصولية، وإليك البيان.<br>أمّا الأُولى: فقد ذهب بعض الفقهاء إلى أنّ العظام لا حياة فيها وعليه بني الحكم بطهارتها من الميتة، إذ الموت زوال الحياة، فحيث لم تحلّها الحياة لم يحلّها الموت، فلم تكن نجسة. روح المعاني:٢٣/٥٥.<br>ولكن ظاهر قوله سبحانه:(قُلْ يُحْيِيهَا) كون العظام ذات حياة، فإذا حلّتها الحياة، حلّها الموت، كما أنّ العلم الحديث أثبت وجود الخلايا الحيّة في عامّة العظام.<br>وأمّا الثانية: ربّما يسبق إلى بعض الأذهان بأنّ الله قد فنّد الشبهة عن طريق القياس حيث قاس إحياء العظام البالية على بدء خلقها وإنشائها أوّل مرّة، مشيراً إلى أنّ مَن قدر على خلق الشيء وإنشائه أوّل مرّة، قادر على أن يعيده بل هو أهون عليه.<br>يلاحظ عليه: أنّه سبحانه لم يدخل من باب القياس وإنّما دخل من باب البرهان، فأشار إلى سعة قدرته ووجود الملازمة بين القدرة على إنشاء العظام وإيجادها أوّل مرّة، وبين القدرة على إحيائها من جديد، فإذا ثبتت الملازمة بين القدرتين، والمفروض أنّ الملزوم (وهي القدرة على إنشائها أوّل مرّة) موجود ، فلابد أن يثبت اللازم (وهو القدرة على إحيائها وهي رميم)، وأين ذلك من القياس؟<br>والذي يدلّ على أنّ الاستدلال مبنيّ على سعة قدرته ما يأتي من الآية التالية:<br>٨٢.(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ):<br>الإنسان الجاهل غير العارف بالله سبحانه يتصوّر أنّ فعل الله سبحانه كفعل الإنسان، فكما أنّ الإنسان يقوم بإيجاد شيء بأدوات وأسباب ربما توفي المسبّب وربما لا توافيه أي تقصر عن إيجاده، لكن الله سبحانه شطب على هذه الفكرة أي أنّ قدرته وخلقه تغايران قدرة وخلقة غيره، فلا يتوسّط شيء بين أمره وتحقّق الشيء، وكأنّه ليس في الساحة إلاّ أمران: إرادته سبحانه ووجود الشيء وتحقُّقه، كما قال: (إِنَّمَا أَمْرُهُ): أي شأنه (إِذَا أَرَادَ شَيْئًا): أي إيجاد شيء من الأشياء (أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ): أي تحقّق (فَيَكُونُ): أي فيوجد. والظاهر أنّ قوله:(فَيَكُونُ)على قراءة الرفع، خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: فهو يكون.<br>كان المترقّب بعد رحلة رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) إلى الرفيق الأعلى اتّفاق المسلمين في الأُصول والمعارف، وما ذلك إلاّ لأنّ القرآن المجيد تكفّل ببيانها ولم يبق لمريب ريب، لكنّ الاختلاف في الأُصول والمعارف قد وقع ـ مع بالغ الأسف ـ بعد رحيل الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)، وإذا نظرنا إلى الفرق والمذاهب الإسلامية المتعدّدة، لوجدنا أنّ أهمّ موارد الاختلاف فيما بينها يرجع إلى صفاته سبحانه وأفعاله.<br>وممّا سبّب تشتّت المسلمين وتفرّقهم إلى مذاهب شتّى، هو إعراضهم عن الثقل الثاني، أعني: أئمّة أهل البيت(عليهم السلام)، وهم أعدال الكتاب المجيد، كما ورد في حديث متواتر مجمع عليه وهو قوله(صلى الله عليه وآله وسلم):«إنّي تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي».<br>ومن مظاهر الاختلاف تفسير هذه الآية حيث إنّ معظم السلف قالوا: إنّ هناك قولاً لفظياً وهو لفظ «كن» وأضافوا أنّ شؤون الله تعالى وراء ما تصل إليه الأفهام، فدع عنك الكلام والخصام. روح المعاني:٢٣/٥٦.<br>ولكن القائل غفل عن أنّ الآية بصدد تنزيهه سبحانه عن أي سبب يتوسّل به، بل إرادته كافية في تحقّق الشيء، فالقول بتوسيط (كُنْ)يستلزم توالي أُمور فاسدة، نشير إليها:<br>١. إنّ معنى ذلك أنّه سبحانه ليس بقادر على خلق الشيء إلاّ بتوسيط أداة وسبب من الأسباب وليس هنا إلاّ لفظة (كُنْ)، ومعنى |

ذلك توصيفه سبحانه بالعجز.

٢. إنّ قوله: (كُنْ) خطاب إمّا للمعدوم وهو أمر قبيح، أو للموجود وهو تحصيل للحاصل.

٣. إنّ قوله:(كُنْ) موجود من الموجودات وهو أيضاً لا يتحقّق إلاّ بقول آخر، وهلمّ جرّاً.

والظاهر أنّ الآية تمثيل وتقريب إلى أذهاننا بأنّه سبحانه قادر على الإطلاق، فلو تعلّقت إرادته بإيجاد شيء، لم يكن هناك أيّ فصل زماني بين الخالق والمخلوق، وهذا شبيه عدم الفصل الزماني بين (كُنْ)والموجود الآخر، ولذلك قال أمير البيان والإيمان علي(عليه السلام): «يَقُولُ لِمَنْ أَرَادَ كَوْنَهُ: (كُنْ فَيَكُونُ)، لاَ بِصَوْت يَقْرَعُ، وَلاَ بِنِدَاء يُسْمَعُ; وإِنَّمَا كَلاَمُهُ سُبْحَانَهُ فِعْلٌ مِنْهُ أَنْشَأَهُ وَمَثَّلَهُ. لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِ ذلِكَ كَائِناً، وَلَوْ كَانَ قَدِيماً لَكَانَ إِلهاً ثَانِياً». نهج البلاغة: الخطبة ١٨٦.

وثمّة كلام في المقام، وهو أنّ ظاهر قوله: (فَيَكُونُ) كون الشيء متحقّقاً بتمامه بعد تعلّق إرادته به، مع أنّا نرى أنّ عالم المادة عالم الحدوث والتدرّج، فكيف يجتمع مع ذلك؟

والجواب واضح فقد تعلّقت إرادته بخلق العالم على هذا الوصف العجيب، فلو تحقّق دفعةً، للزم تخلّف المراد عن الإرادة.

نعم تعلّقت إرادته بخلق المجرّدات على النحو الدفعي دون أن يكون فيها تدرّج وحركة.

٨٣. (فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْء وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ):

لمّا وصف المشرك خالق السماوات والأرض بالعجز عن إعادة الإنسان مرّة أُخرى، جاءت الآية لتنزيهه عزّ وجلّ فقال: (فَسُبْحَانَ الَّذِي): أي المنزَّه عن الشريك والعجز (بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْء): أي بيده مالكية كلّ شيء، و (مَلَكُوتُ) ـ كما قلنا ـ صيغة مبالغة، وهي تدلّ على السيطرة المطلقة لله تعالى على أشياء هذا الوجود بأجمعها، ومنها الإنسان في وجوده، وحياته، وموته، وإحيائه من جديد في ذلك اليوم الذي يعود فيه العباد إلى الله، كما قال:(وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) للجزاء والحساب.

***

تمّ تفسير سورة يس

## ٣٧-سورة الصافات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (٢) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (٣) إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ (٤) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ
الْمَشَارِقِ (٥) إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ (٧) لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ
كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (١٠) فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ
خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ (١١) بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢) وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ (١٣) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (١٤)
وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٥) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ
(١٨) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ (١٩) وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١)
احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ
(٢٤) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا
عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ
رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤)

إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ (٣٦) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ
الْمُرْسَلِينَ (٣٧) إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (٣٨) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) أُولَئِكَ لَهُمْ
رِزْقٌ مَعْلُومٌ (٤١) فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ (٤٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣) عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (٤٥)
بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (٤٦) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ (٤٧) وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ
(٤٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَئِذَا مِتْنَا
وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ
(٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَذَا لَهُوَ
الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (٦١) أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا
شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ
عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ (٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (٦٨) إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٩) فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ (٧٠) وَلَقَدْ
ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (٧١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ (٧٢) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ
(٧٤) وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (٧٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ
فِي الْآخِرِينَ (٧٨) سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (٧٩) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا
الْآخَرِينَ (٨٢) وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَئِفْكًا آلِهَةً
دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٧) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ
(٩٠) فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (٩٤)
قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦) قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا
فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (٩٨) وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا
بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ
الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥)
إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَلِكَ نَجْزِي
الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ
ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣) وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (١١٤) وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (١١٥)
وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (١١٦) وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (١١٧) وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (١١٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي
الْآخِرِينَ (١١٩) سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (١٢٠) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٢١) إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٢٢) وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ
الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ
(١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٢٩) سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ (١٣٠)
إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٣٢) وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلَّا
عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٣٦) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٣٨) وَإِنَّ
يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ
(١٤٢) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ

شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (١٤٨) فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ
الْبَنُونَ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ (١٥٠) أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢)
أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٥٥) أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ (١٥٦) فَأْتُوا
بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٥٧) وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا
يَصِفُونَ (١٥٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٠) فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (١٦١) مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ
(١٦٣) وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ (١٦٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (١٦٦) وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ أَنَّ
عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٩) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (١٧٠) وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا
الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ
يُبْصِرُونَ (١٧٥) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٧) وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (١٧٨)
وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩) سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ
(١٨٢)

## خصائص السورة

### تسمية السورة

سُمّيت السورة في كتب التفسير بسورة «الصافات»، وذكر إبراهيم بن عمر الجَعْبري أنّها تُسمّى سورة الذبيح، ولم يستند في ذلك إلى أثر. أُنظر: الإتقان للسيوطي:١/١٥٧.

أمّا التسمية الأُولى فواضحة لورود تلك اللفظة في بدء السورة، وأمّا الثانية فلِما ورد فيها من قصّة ذبح إسماعيل(عليه السلام)، ولا مشاحّة في التسمية إذ هي ليست توقيفية، نعم يجب أن تكون حاكية عمّا في السورة .

### عدد آياتها ومحلّ نزولها

يبلغ عدد آياتها مئة وإحدى وثمانين آية في عدّ البصري، وفي عدّ غيرهم مئة واثنتين وثمانين، وهي مكّيّة بالاتّفاق، ويشهد لذلك مضمونها وصياغتها.

### أغراض السورة

ليس للسورة غرض واحد لأنّها تتكلّم حول جملة من الموضوعات، أبرزها خمسة، ولعلّ القارئ الكريم يستطيع أن يتبيّن الغرض من خلال هذا العرض:

١. تتكلّم عن الملائكة الذين لهم أوصاف ثلاثة ثم تعطف عليه تسمّع الشياطين إلى ما يجري في الملأ الأعلى ثم قذفهم بالشهاب الثاقب.

٢. تتكلّم حول إنكار المشركين موضوع الحياة الأُخروية وأنّهم يوم الحشر يحمّل كلّ وزره على عاتق الآخر، ومهما يكن فالجميع معذّبون في النار.

٣. يذكر سبحانه في هذه السورة قصص تسعة من الأنبياء، ويتحدّث بإيجاز عن جهادهم في طريق نشر التوحيد، وهم: نوح، وإبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، وموسى، وهارون، وإلياس، ولوط، ويونس(عليهم السلام).

٤. يذكر سبحانه لوناً خاصّاً من الشرك وهو جعل البنات للربّ والبنون لأنفسهم.

٥. في نهاية السورة يذكر سبحانه ما وعد الله أنبياءه بأنّهم هم المنصورون وأنّهم هم الغالبون.

هذه هي الموضوعات الرئيسية التي تتضمّنها السورة، وفي ثناياها أُمور جزئية لها صلة بهذه الموضوعات.

الآيات ١ ـ ١٠ (وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ... إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ)

الآيات: العشر الأُولى

(وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا * إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ * رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ * إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ * لاَ يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلأِ الأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ).

المفردات

الصافّات: الذين يقفون صفوفاً لكلّ واحد منهم مرتبة معيّنة تكليفاً وفضيلة.

الزاجرات: من الزجر، وهو الدفع عن الشيء بتخويف وشدّة.

التاليات: من يتلو ما أمر الله بتلاوته.

الدنيا: مؤنثة الأدنى، أي أقرب السماوات من أهل الأرض.

بزينة: تطلق ويراد بها تارة المعنى المصدري، وأُخرى يراد بها الاسم بمعنى ما يُزيَّن به.

مارد: المارد: العاتي، المجاوز للحدّ.

لا يسّمعون: أي لا يُصغون. أصله لا يتسمّعون، فأُدغم التاء في السين، والتسمّع: تكلّف السمع، سمع أم لا يسمع.

الملأ: الذين يجتمعون على رأي.

يُقذفون: يُرجمون.

دحوراً: الدَّحْر والدُّحور: الطرد والإبعاد.

واصب: دائم.

الخطفة: الأخذ بسرعة على غِرّة.

شهاب: الشهاب: القبس والجمر من النار، ويستعمل اليوم في النيازك إذا دخلت الغلاف الجوّي للأرض.

ثاقب: مُضيء أو نافذ.

التفسير

إنّ هذه السورة كسائر السور الثلاث التي ابتدأ سبحانه كلامه فيها بالقسم بأُمور، وجميع السور على لحن واحد.

الأُولى: هذه السورة، قال تعالى: (وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا).

الثانية: سورة الذاريات، قال تعالى:(وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا * فَالْحَامِلاَتِ وِقْرًا * فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا * فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا). الذاريات:١ـ٤.

الثالثة: سورة المرسلات، قال تعالى: (وَالْمُرْسَلاَتِ عُرْفًا * فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا * وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا * فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا * فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا). ( المرسلات:١ـ٤.)

الرابعة: سورة النازعات، قال تعالى:(وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا* فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا).( النازعات:١ـ٥.)

وسيوافيك تفسير هذه الآيات في محالّها، بإذن الله تعالى.

أمّا المقام فقد أقسم سبحانه بالأُمور التالية:

١ ـ ٣. (وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا):

اختلفت كلمات المفسّرين في بيان مصاديق هذه الصفات الثلاث، والأظهر أنّها لموصوف واحد، له أوصاف متعدّدة مترتّبة، ويؤيّد ذلك استعمال العطف بالفاء، في الآيتين الثانية والثالثة، وأمّا تفسير الآية الأُولى بالملائكة، والثانية بزواجر القرآن، والثالثة بقرّائه، فبعيد، وهو على خلاف الضابطة، والأفضل أن يفسّر الجميع بموصوف واحد.

وعلى هذا، فالمراد بالصافّات الملائكة، وقد عبّر سبحانه عنهم بهذا الوصف في الآية (١٦٥) من هذه السورة، لقوله(حكاية عنهم): (وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ) والمراد بالزاجرات، هم الملائكة أيضاً، حيث يزجرون الناس عن ارتكاب المعاصي كما في قوله سبحانه:(وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَد حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ) البقرة:١٠٢، كما أنّ الأمر كذلك في التاليات، حيث إنّهم يتلون الوحي على الأنبياء.

وهذا التفسير جيّد لولا أنّه يفقد بيان نكتة العطف بالفاء دون الواو، حيث يقول: (فَالزَّاجِرَاتِ) مع أنّ مقتضى هذا التفسير العطف بالواو ؛ لأنّ الجميع يتحقّق في وقت واحد من دون ترتّب أحدها على الآخر. نعم، ذكر السيد الطباطبائي احتمالاً آخر في تفسير الآيات الثلاث بيّن فيه وجه الترتيب وقال: ويحتمل ـ والله العالم ـ أن يكون المراد بالطوائف الثلاث المذكورة في الآيات طوائف الملائكة النازلين بالوحي المأمورين بتأمين الطريق بدفع الشياطين عن المداخلة فيه وفي إيصاله إلى النبيّ مطلقاً أو خصوص محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) كما يستفاد من قوله تعالى: (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا *إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُول فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا * لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاَتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْء عَدَدًا) الجن: ٢٦ ـ ٢٨. .( الميزان في تفسير القرآن:١٧/١٢١.)

ويشهد لما ذكره عطف الثانية والثالثة بالفاء الدالّة على الترتيب، فهناك ملائكة يصطفّون في طريق الوحي تكريماً له، ثم ملائكة يزجرون الشياطين عن التدخّل في ما يُوحى إلى النبيّ، ثم ملائكة آخرون يتلونه على النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)، ولا ينافي نزول الوحي بجمع من الملائكة، قوله:(نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ) الشعراء:١٩٢ـ١٩٣.لأنّ هؤلاء أعوان جبرئيل(عليه السلام).

إنّ إقسامه سبحانه بالأُمور الثلاثة إمّا لأجل بيان قداستها، أو لكونها ذات أسرار ورموز، ومن ثمّ يجدر بالمؤمن أن يلتفت إليها ويتفكّر فيها. وليس في الإقسام بغير الله سبحانه أي رائحة شرك.

نعم، مَن يتضايق من قسَمه سبحانه بالنبيّ الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) في قوله: (لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ) الحجر:٧٢.التجأ إلى تفسير هذه الآيات بتأويل لفظ «ربّ» فقالوا: ربّ الصافات، وربّ التاليات، وربّ الزاجرات. وعلى ذلك فليس في القرآن المجيد إلاّ إقسام واحد وهو الحلف بالرب أو لفظ الجلالة، ولكنّهم غفلوا عن أنّ إقسام الله سبحانه بهذه الأشياء ينبئ عن تعظيم لها لما فيها من الدلالة على ربوبية الخالق ووحدانيّته المطلقة وقدرته الفائقة. اقرأ سورة الشمس ترى أنّه سبحانه يحلف بالشمس والقمر والليل والنهار وغير ذلك من حقائق الكون وظواهره، من أجل التنويه بعظمتها وأهميتها في انتظام أُمور الكون والحياة، وتوجيه الأنظار إلى التفكّر في النظام المحكم الذي يسود هذا الكون، والذي يهدي إلى الإيمان بوحدانيّته وبالغ حكمته وعظيم تدبيره.

إلى هنا تمّ ذكر القسم بالأُمور الثلاثة ووجهه قداسة المقسم به وعظم مقاماتهم وشرف وظائفهم وأعمالهم، وأمّا المقسم عليه أي جواب القسم فهو قوله سبحانه:

٤. ( إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ):

ووجه الصلة بين المقسم به والمقسم عليه، أنّ الملائكة هم دعاة التوحيد وروّاده وأبرز مصاديق الدعاة إلى توحيد الله سبحانه.

٥. (رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ):

لمّا أكّد سبحانه ـ في الآية المتقدّمة ـ وحدانيّته بالقسم، عاد البيان القرآني إلى إثباتها بدليلين باهرين، فقال: هو (رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا) أي إنّ الإله الخالق لهذا البناء العظيم هو المدبّر أيضاً، فالتفكيك بين الخالقية والربوبيّة، وحصر الأُولى بالله سبحانه، وإضفاء الثانية على الأصنام والأوثان أو الملائكة أو غيرها، أمر باطل، فلا يوجد في صحيفة الوجود خالق ولا مدبّر سواه، ولو قام أحد الممكنات بخلق شيء، كخلق المسيح من الطين طيراً، فإنّما هو بإذن الله وإقدار منه، كما أنّ تدبير الملائكة الوارد في قوله:(فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا) النازعات:٥. بإرادته وأمره.

هذا هو الدليل الأوّل على وحدانيّته، وأمّا الدليل الثاني، فهو قوله:(وَرَبُّ المَشَارِقِ).

وقيل في تخصيص المشارق بالذكر دون المغارب، وجوه، أهمّها:

أ. أنّ ذكر إحداهما يغني عن الآخر.

ب. أنّ المشارق أكثر ظهوراً وشهوداً من غيرها.

ج. أنّ المشارق أنسب بالمقام حيث إنّ الوحي يطلع من السماء عن طريق أمين الوحي، فللوحي إشراق.

قال السيد الطباطبائي: وفي تخصيص المشارق بالذكر مناسبة لطلوع الوحي بملائكته من السماء وقد قال الله تعالى: (وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ) التكوير:٢٣. وقال: (وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى) النجم:٧.. الميزان في تفسير القرآن:١٧/١٢٢.

ثمّ إنّه سبحانه عبّر في المقام عن المشرق بصيغة الجمع، وفي آية أُخرى بصيغة التثنية، قال: (رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ) الرحمن:١٧. وفي ثالثة بصيغة المفرد، قال: (رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ) الشعراء:٢٨، ولكلّ وجه.

أمّا الأوّل ـ أعني: الجمع ـ فباعتبار عدد أيام السنة، فالشمس تطلع كلّ يوم من مطلع غير الذي طلعت منه، على مدار السنة، وكذلك الشأن في مغربها، وقد يراد بها مشارق الشمس في الفصول الأربعة فإنّ لها في كلّ فصل مشرقاً، وكذلك يقال في مغربها.

وأمّا الثاني ـ أعني: التثنية ـ فسيأتي توضيحه عند تفسير سورة الرحمن.

وأمّا الثالث ـ أعني: الإفراد ـ فباعتبار الجنس الذي يجتمع مع التثنية والجمع.

## حفظ الوحي عن تسمّع الشيطان المارد

تتطرّق الآيات التالية لبيان أمرين:

الأوّل: تزيين السماء الدنيا بالكواكب.

الثاني: إنّ لهذه الكواكب دوراً في منع الشياطين المَردَة من الاستماع إلى ما يدور في الملأ الأعلى.

أمّا الأمر الأوّل فقد أشار إليه سبحانه بقوله:

٦.(إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ):

الظاهر أنّ الزينة هنا اسم، أي ما يزيّن به، والكواكب بدل منه أو عطف بيان. والناظر إلى السماء في الليلة الظلماء يحسّ بذلك الجمال والبهاء، وهو يرى تناثر الكواكب والنجوم المتلألئة فيها، وقد انكشف بأنوارها الدُّجى، وانجاب بأضوائها الغيهب. ولا تُدرك عظمة هذه الزينة إلاّ في الليالي الحالكة وفي الأجواء الصافية الخالية من الأدخنة والغازات، حيث يرى الإنسان امتلاء السماء بالنجوم الزاهرة واحتشادها بها، وقد أحسست أنا بذلك الجمال الباهر عندما كنت في مدينة كرمان التي تعلو (١٧٥٥) متراً فوق مستوى سطح البحر، فالإنسان في هذه المدينة وماحولها يلمس حقيقة قوله سبحانه:(إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ) خصوصاً تلك التي تتراقص بنورها وضيائها.

وأمّا الأمر الثاني فقد أشار إليه سبحانه بقوله:

٧. (وَحِفظاً مِنْ كُلِّ شَيْطَان مَارِد):

الظاهر أنّ (حِفظاً) مفعول مطلق لفعل مقدّر أي حفظنا السماء حفظاً، (مِنْ كُلِّ شَيْطَان مَارِد): أي عات خارج عن الطاعة.

ويظهر من غير واحدة من الآيات أنّ الملائكة الكرام الذين هم سكنة السماوات العُلى كانت لهم محاورات ومحادثات بالنسبة إلى الحوادث المستقبلة والأسرار المخفية، وكان إبليس وجنده من الشياطين يتسمّعون إلى ما يجري هناك من الحوارات فيلقونها إلى من في الأرض من الكهنة، وكان ذلك أمراً غير ممنوع قبل بعثة النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) كما يظهر من سورة الجنّ، ولكن مُنعوا من التسمّع بعد بعثته، قال سبحانه:

٨.(لاَ يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلأِ الأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِب):

قوله:(لاَ يَسَّمَّعُونَ) أصله لا يتسمّعون قلبت التاء سيناً وصار(لاَ يَسَّمَّعُونَ) بعد الإدغام، وبما أنّه تعدّى بلفظة (إِلَى)فقد أُشرب فيه معنى الإصغاء، أي لا يصغون إلى ما يجري في (الْمَلأِ الأَعْلَى) وقد مرّ أنّ الملأ هم الجماعة الذين على رأي واحد وكأنّ اجتماعهم يملأ عيون الناظرين وإذا وصف به (الأَعْلَى)، أُريد به الملائكة الذين يتحدّثون بأُمور غيبية (وَ) عندئذ (يُقْذَفُونَ): أي يرمَون (أُولئك المَرَدة) (مِنْ كُلِّ جَانِب) بالشهب كما يأتي.

٩. (دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ):

أي يُدفَعون دحوراً ويُمنعون منعاً، (وَلَهُمْ) وراء ذلك(عَذَابٌ وَاصِبٌ): أي دائم في الآخرة.

وبما أنّ الكهنة ربّما يخبرون عن حوادث مستقبلة فقد يتّفق صدق ذلك، وإن كان أكثر ما يخبرون به كذباً لا واقع له، فهذا المورد هو الذي يذكره سبحانه بقوله:

١٠. (إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ):

الخَطْف: تناول الشيء بسرعة، والخطفة المرّة منه، وهو مستعار للسمع السريع، فيلقيه إلى الذي تحته، ومعنى الآية: لا يتسمّعون إلى الملائكة، ولا يتطلّعون إلى تلك العوالم العليا وما فيها من المحادثات إلاّ مَن استلب السماع استلاباً، واختلس الكلمة من الملائكة على وجه المسارقة. ومتى فعل أحدهم ذلك، رُمي في أثره بشهاب نافد ماض، كما قال: (فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ) .

بقيت هنا أُمور:

الأوّل: أنّ علم الفلك الحديث الذي وُضعت بدايته في منتصف القرن السادس عشر الميلادي، قد شطب على النظام الفلكي الموروث منذ زمن بطليموس(القرن الثاني الميلادي)، فإنّ الكواكب في النظام الفلكي القديم تقع في الكرة الثامنة، ماعدا القمر فهو عندهم في الكرة السادسة، ولكن العلم الحديث أثبت أنّه لا كرة بالمعنى المقصود فيها، وأنّ الكواكب كلّها معلّقات في الفضاء قريبها وبعيدها، حتى القمر الذي هو أقرب السيّارات إلى الأرض.

ومن العجيب أن يركن الدكتور وهبة الزحيلي إلى ذلك النظام الذي أكل عليه الدهر وشرب، فيقول: وبالرغم من أنّ هذه الثوابت مركوزة ـ كما قال الرازي ـ في الكرة الثامنة، ماعدا القمر في السادسة، فإنّ التعبير جاء على وفق الرؤية والنظر حسب الظاهر، فأهل الأرض إذا نظروا إلى السماء، يرونها ويشاهدونها مزيّنة بهذه الكواكب، كجواهر مشرقة متلألئة على سطحها الأزرق بأشكال مختلفة. التفسير المنير:٧٤/١٢.وقد حاول بذلك الجمع بين النظرية الفلكية اليونانية، وما عليه ظاهر الآيات من أنّ الكواكب زينة السماوات.

الثاني: أنّ الكواكب خلقت قبل استحقاق الشياطين الرجم، فإنّ ذلك لم يحصل إلاّ بعد أن طرد إبليس من عالم الملائكة، فكيف يكون حفظ السماء من استراق الشياطين علّة لخلق الكواكب؟

وقد أجاب الزمخشري عن ذلك، بأنّ قوله (حِفظاً) مفعول لفعل محذوف أي وحفظناها حفظاً. تفسير الكشّاف:٣/٢٩٦.وحاصل جوابه: أنّ حفظ السماوات ليست حكمة ولا علّة لخلق السماوات بل إخبار من الله سبحانه بأنّه حفظها حفظاً من استراق الشياطين.

ويمكن أن يقال: إنّ صيانة السماء بالكواكب عن استراق الشياطين حكمة لا علّة، فلا يجب أن تكون الغاية مع المغي منذ وجوده.

الثالث: ما هو المراد بالشهاب؟

الشهاب المعروف عندنا عبارة عن شريط لامع من الضوء، يُرى لبرهة قصيرة في السماء. وتحدث الشهب عندما تدخل قطع معدنية أو حجرية تسمّى (النيازك) الغلاف الجوي من الفضاء الخارجي، ويؤدي الاحتكاك بالهواء إلى ارتفاع درجة حرارة النيزك بحيث يتوهّج وينتج ذيلاً من الغازات المتوهّجة الحارّة. وتُسمّى النيازك التي تصل الأرض قبل أن تحترق (الرجوم). سيأتي مزيد بيان حول المراد بالشهاب عند تفسير الآية الخامسة من سورة الملك.

ويظهر أنّ القرآن يريد تقريب دفع الشياطين عن الأمكنة المقدّسة إلى الأذهان، فعبّر عن تلك القوّة النارية التي تلاحق المختلس فتصيبه وتحرقه، بالشهاب، وإلاّ فإنّ الشهاب المعروف عندنا إنّما يحدث في نطاق الغلاف الجوّي للأرض، بينما يلاحق الشهاب الثاقب ذلك الشيطان الذي يتلصّص على العالَم العلوي الذي تسكنه الملائكة، وأين منه هذا العالَم السفليّ؟! وقد مرّ في تفسير المفردات أنّ الشهاب عبارة عن القبس والجمر من النار، وصدقه على النيازك من مقولة تطبيق المعنى الكلّي على بعض مصاديقه لا أنّه الموضوع له.

وبذلك تبيّن أنّ هذه الآية وغيرها تشتمل على أُمور غيبية ليس لنا إنكارها، بل يمكن تقريبها على وجه يسهّل فهمها للجيل الحاضر، وهذه الأُمور:

أ. أنّ في السماوات أماكن للملائكة تسكن فيها، يتحادثون حول أخبار الحوادث التي ستقع في العالم الأرضي قبل وقوعها.وليس القول بوجود الأماكن في السماوات للملائكة تصديقاً بوجود الأفلاك التي تحتضن الكواكب على ما كان عليه القدماء من أصحاب النجوم.

ب. أنّ الشياطين يصعدون لاستراق السمع ومعرفة بعض الأخبار.

ج. أنّهم يُرجمون ويُرشقون بالشهب، وأنّ هذه الشهب ليست الشهب المرئيّة لنا في الليالي المظلمة، بل هي قوة نارية مهلكة، عبّر عنها بالشهب.

وسيأتي ما يتعلّق بهذا الموضوع عند تفسير الآية الخامسة من سورة الملك، فانتظر.

الآيات ١١ ـ ١٩ (فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا ... فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ).

الآيات: الحادية عشرة إلى التاسعة عشرة

(فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لاَزِبٍ * بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ * وَإِذَا ذُكِّرُوا لاَ يَذْكُرُونَ * وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ * وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَآبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ * قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ * فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ).

المفردات

فاستفتهم: الاستفتاء: طلب العلم ممّن له فيه تخصّص، قال سبحانه:(يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ) يوسف:٤٦، 

ويقرب منه استعماله في طلب الرأي ومعرفته ممّن له رأي، قال سبحانه: (قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي)( النمل:٣٢).

لازب: أي ملتصق بعضه ببعض.

يسخرون: يستهزئون.

آية: معجزة.

داخرون: صاغرون، ذليلون.

زجرة: صيحة.

التفسير

تضمّنت الآيات السابقة الإشارة إلى وحدة الخالق والمدبِّر، وأنّه ليس في صحيفة الكون خالق ولا مدبِّر غيره. ومن المعلوم أنّ الوجود لم يخلق عبثاً، وأنّ للإنسان غاية وهي البعث والأوبة إليه تعالى في يوم القيامة، ولو لم يكن ثمّة بعث ولا جزاء لأصبحت الحياة الدنيا لعباً ولهواً، ولأصبح فعل الخالق عبثاً لا غاية له، وهو سبحانه منزّه عنه كما قال: (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ) المؤمنون:١١٥.ولذلك عاد البيان القرآني إلى طرح مسألة المعاد التي كان المشركون منكرين لها أشدّ الإنكار فأمر سبحانه نبيّه أن يستفتيهم، كما يقول:

١١. (فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لاَزِبٍ):

تأمر الآية (وهي تشير إلى ما يدلّ على المعاد بأُسلوب لا يملك المشركون إزاءه إلاّ الإقرار بما يقتضيه لو حكّموا عقولهم ولم يميلوا مع أهوائهم) تأمر النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) بأن يستطلع رأيهم في الأمر الآتي، وكما قال سبحانه:(فَاسْتَفْتِهِمْ): أي فاستخبرهم واطلب حكمهم في هذا الأمر: (أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا): أي أيّهم أصعب خلقاً وإيجاداً، هل هم أو السماوات والأرض وما بينهما من المخلوقات العظيمة؟ فالقادر على الثاني لا يصعب عليه أن يعيد الحياة إلى الأوّل بعد الموت والبلى. ثمّ أشار سبحانه إلى ضعف خلق الإنسان وقال: (إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لاَزِبٍ): أي طين ملتصق بعضه ببعض.

ويحتمل أن تكون هذه الفقرة برهاناً ثانياً على إمكان البعث، ووجه الاستدلال بها: أنّ الذي خلق جسم الإنسان من هذه المادة الرخوة الضعيفة وبثّ فيها الحياة، قادر على إعادة الأجسام من التراب أيضاً، وبعث الحياة فيها من جديد. وعلى هذا فقد أقام سبحانه هنا برهانين:

الأوّل: أنّ خلق الإنسان أسهل من خلق السماوات والأرض، والقادر على الأشدّ قادر على الأسهل.

الثاني: أنّ الله سبحانه هو الذي خلق جسم الإنسان من طين لازب حتى صار إنساناً سويّاً، فكيف يعجز عن إعادة هذا الجسم بعد أن يصير تراباً؟ فمن قدر على النشأة الأُولى، يقدر على الثانية .

١٢. (بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ):

كان اللازم على الإنسان الواعي العاقل أن ينتفع بهذين البرهانين، لكنّ المشركين تمادوا في عنادهم وإنكارهم مع قيام الحجّة عليهم، فكان النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)يتعجّب من ذلك ومن غفلتهم عن قدرة الله كما قال: (بَلْ عَجِبْتَ)، وأمّا المشركون فكانت لهم ردود فعل عديدة أمام ما يقدّمه(صلى الله عليه وآله وسلم)من الدلائل، وهي:

الأوّل: الهزء والسخرية، كما قال: (وَيَسْخَرُونَ) والاستهزاء من شِيَم الجاهل المكابر الذي تدمغه الحجج، ولا يستطيع لها ردّاً.

الثاني: الإعراض عن التذكير، وعدم الاستجابة له، كما قال:

١٣. (وَإِذَا ذُكِّرُوا لاَ يَذْكُرُونَ):

وأنّى يُجدي التذكير معهم وفي صدورهم كِبْر يصدّهم عن التأمّل في المواعظ والتدبّر في البيّنات والدلائل؟

الثالث: المواجهة بأُسلوب السخرية الجماعية، كما قال:

١٤. (وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ):

أي إذا شاهدوا آية دالّة على صحّة الدعوة وإمكان البعث، واجهوها بأُسلوب التهكّم والسخرية، واستدعى بعضهم من بعض أن يهزأ بها، دون أن يكلّفوا أنفسهم التدبّر فيها، والبحث في دلالاتها. وهذا هو الفرق بين قوله:(ويسخرون) في الآية١٢، وقوله: (يَسْتَسْخِرُونَ)في المقام أي دعوة بعضهم بعضاً إلى الاستهزاء.

الرابع: الاتّهام بالسحر، كما قال:

١٥. (وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ):

وهذه التهمة قديمة قِدم الرسالات، وهي أشبه بالسيف الكهام، والسكّين الكالّة، وهي لا تؤثر إلاّ في البسطاء. نعم هؤلاء كانوا يصفون القرآن بالسحر كما يحكي عنهم بقوله: (وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ).

فأين القرآن المعجز الذي أدهش العقول وحيّر الأدمغة ببيانه وتشريعاته ومفاهيمه وقيمه وحقائقه العلمية، والذي شُيّدت به حضارة إنسانية كبرى ظلّت مزدهرة عبر القرون، أين هذا كلّه من السِّحر الذي لا يقوم على أساس من الواقع، بل على التمويه والاحتيال والخديعة، ولا يبقى إلاّ لفترة محدودة جدّاً؟ وما أجمل قول القائل: تشويه الفضائل من نفايا عقول السفهاء والحاقدين.

القيم الإنسانية للسيد محمود الموسوي:١/٤٠.

ثمّ إنّه سبحانه يذكر علّة إنكار المعاد، قائلاً:

١٦.(أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ):

وهذا من عجائب أقوالهم حيث جعلوا ما تستبعده عقولهم سبباً لإنكار البعث، ولم يعتمدوا في ذلك على دليل أو برهان، وإنّما تعلّقوا بهذه الشبهة: أنّ إعادة الحياة إلى أجسامنا وقد صارت تراباً وعظاماً بالية، أمر غير ممكن، كما قال: (أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ)، ومقتضى هذه الشبهة أنّ القائل شاكّ لأجل الاستبعاد مع أنّهم كانوا منكرين أشدّ الإنكار!!

ثم زادوا في استبعادهم لإمكان البعث، فقالوا:

١٧. (أَوَآبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ):

يعنون أنّه قد مضى على موت آبائهم الأقدمين زمن طويل، وبناءً على ذلك يكون إحياؤهم من جديد أكثر استبعاداً ـ حسب عقولهم القاصرة ـ من إحيائهم هم أنفسهم. ثمّ إنّه سبحانه أجاب عن استبعادهم وتساؤلهم بجواب مقرون بالتحقير، فقال:

١٨. (قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ):

أمر سبحانه في هذه الآية رسوله(صلى الله عليه وآله وسلم) بقوله:(قُلْ): أي أجب عن سؤالهم بقولك: (نَعَمْ)أنتم مبعوثون بعثاً وعليكم «لَبوس الاستكانة، وضَرَع الاستسلام والذِّلّة»نهج البلاغة: الخطبة ٨٣.، كما يقول:(وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ): أي أذلاّء صاغرون.

ثمّ بيّن سبحانه أنّ إحياء هؤلاء وآبائهم الأوّلين شيء يسير عليه، ولا يحتاج إلاّ إلى أمر واحد وهو:

١٩. (فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ):

تستهدف الآية الإشارة إلى أنّ بعثهم من قبورهم ليس بالأمر العسير وإنّما تكفي لوقوعه صيحة واحدة، كما يقول: (فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ)والمراد بها النفخة الثانية، التي ما إن تقع حتّى يخرجوا من مراقدهم أحياء بُصَراء، كما قال: (فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ). أي يشاهدون ما كانوا ينكرونه ماثلاً أمام أعينهم.

وكأنّ هذا النظر مقرون بالخوف و الدهشة حيث ينظرون إلى أرض المحشر فإذا الأوّلون والآخرون مجتمعون فيها لموقف الحساب والجزاء. وهذا النوع من الدهشة نوع عذاب للمجرمين.

الآيات ٢٠ ـ ٣٩ (وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ... وَمَا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ).

الآيات: العشرون إلى التاسعة والثلاثين

(وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ * هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الذي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ * احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ * وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ * مَا لَكُمْ لاَ تَنَاصَرُونَ * بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ * وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْض يَتَسَاءَلُونَ *قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ * قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَان بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ* فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ *فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ * فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ * إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ * وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِر مَجْنُون * بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ * إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الأَلِيمِ * وَمَا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ).

المفردات

يا ويلنا: الويل: كلمة تقال عند المصيبة أو عند الهلاك.

يوم الدّين: يوم الجزاء.

الفصل: التفريق بين المطيع والعاصي، والمحسن والمسيء.

احشروا: اجمعوا.

صراط: طريق.

قِفوهم: احبسوهم.

لا تَناصرون: لا ينصر بعضكم بعضاً.

مستسلمون: منقادون.

عن اليمين: هنا كناية عن النصيحة واليمن والبركة.

سلطان: سلطة قاهرة.

طاغين: متجاوزين الحد.

فحق علينا: أي وجب علينا.

فأغويناكم: أي دعوناكم إلى الغيّ، وهو ضدّ الرُّشد.

التفسير

لمّا أخبر سبحانه بأنّ البعث والإحياء أمر سهل يتحقّق بزجرة واحدة ونفخة فريدة تبعث من في القبور، أخذ ببيان تفصيل ما يجري على المجرمين في هذا اليوم، فأوّل ردّ فعل من هؤلاء المجرمين بعد الإحياء، هو الإحساس بالندم المصحوب بالخوف والهلع، والذي يُظهرونه بقولهم:

٢٠. (وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ):

أي يا هلاكنا فإنّ هذا هو يوم الجزاء. وعندئذ يجيئهم النداء الإلهي موبِّخاً ومعنِّفاً:

٢١.(هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ):

أي هذا يوم التفريق بين الخلائق، وتميّز المحسن عن المسيء، والمحقّ عن المبطل .

وإلى هذا النوع من التمييز أشار سبحانه بقوله:(وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ) يس:٥٩.وقد كانوا في الحياة الدنيا مختلطين، فالمحسن إلى جنب المسيء، والمطيع إلى جنب العاصي، ولكنّهم سيمتازون في ذلك اليوم، لأنّه اليوم الذي يُفصل فيه المجرم عن المحسن وتتميّز الخلائق بعضها عن بعض.

ويحتمل أن يُراد من يوم الفصل اليوم الذي يُقضى فيه بين الناس بالحقّ، فيوم الفصل بمعنى يوم القضاء، قال سبحانه: (إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا) النبأ:١٧..

وعلى كلّ تقدير فهذا اليوم هو اليوم (الذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ) وقد بان بطلان تكذيبكم، فإذا حصل التميّز واجتمع المجرمون في ساحة من ساحات المحشر، يؤمر الملائكة بما في الآية التالية:

٢٢. (احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ):

خطاب صادر من الله سبحانه إلى الملائكة أي اجمعوا (الَّذِينَ ظَلَمُوا) أنفسهم بالكفر والشرك وارتكاب المعاصي، من كلّ جهة، أي اجمعوهم مع (أَزْوَاجَهُمْ)، فيقع الكلام في ما هو المراد بقوله: (وَأَزْوَاجَهُمْ)، وفيه احتمالات:

أ. أنّ المراد به نساء المشركين اللواتي كنّ يعشن معهم في الحياة الدنيا وهنّ على مذهبهم. وهذا هو المتبادر منه مع قطع النظر عن كلمات المفسّرين، لكثرة استعمال الأزواج بهذا المعنى في الذكر الحكيم.

ب. أنّ المراد به قرناؤهم من الشياطين، قال تعالى: (وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ) إلى أن قال: (حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ). الزخرف:٣٨.

ج. ما اختاره كثير من المفسّرين من أنّ المراد به أشباههم من العصاة، فيحشر الزاني مع الزاني، وشارب الخمر مع شارب الخمر، إلى غيرهم.

يلاحظ عليه: أنّ معنى ذلك أنّ طائفة خاصّة تحشر مستقلّة ثم يلحقهم الآخرون.

والآية لا تحتمل ذلك.

٢٣. (مِنْ دُونِ اللهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ):

قوله:(مِنْ دُونِ اللهِ) متعلّق بقوله: (يَعْبُدُونَ) في الآية المتقدّمة، فصل عنه مع كونه جزءاً من الآية المتقدّمة وجُعِل جزءاً من الآية التالية لحفظ وحدة الفواصل، فالرويّ في الآية السابقة (تُكَذِّبُونَ) فناسب هنا أن يقول:(يَعْبُدُونَ)، نظير ذلك قوله سبحانه في سورة البقرة:(كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ * فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ) البقرة:٢١٩ و ٢٢٠. فقوله:(فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ). يدلّ على أنّ المشركين كانوا يعبدون الله تعالى أيضاً فلمّا صدر الأمر بإحضار ما يعبدون صار اللازم أن يقيّده بقوله: (وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللهِ)، وقوله: (فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ): أي أرشدوهم إلى طريق جهنم. وفي استخدام عبارة (فَاهْدُوهُمْ) في المقام نوع استهزاء بهم فإنّها تستعمل في طريق الخير لا في طريق الشر.

ثمّ حكى سبحانه ما يقوله للملائكة الموكّلين بهم، فإنّه يقول لهم:

٢٤. (وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ).

أي قفوا هؤلاء الكفار واحبسوهم للسؤال.

وفي ترك ذكر المتعلّق والاقتصار على قوله:(إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ) دون تحديد ما هو المسؤول عنه، دلالة على سعته، فهم يُسألون عن عقائدهم وأعمالهم، وعن كلّ حقّ كُلِّفوا باتّباعه، فأعرضوا عنه عتوّاً واستكباراً.

يُذكر أنّه ورد عدد من الروايات في مصادر الشيعة والسنّة ما قيل في شأن الآية (من أنّهم يسألون عن ولاية علي(عليه السلام))، لم يروه الإمامية فقط، كما يظهر من عبارة العلاّمة الآلوسي في «روح المعاني:٢٣/٨٠»، بل رواه محدّثو السنّة، كماترى. أنّ الأمر الذي يُسألون عنه، هو ولاية الإمام علي(عليه السلام)، منها:

ما أخرجه أبو شجاع الديلمي الشافعي، عن أبي سعيد الخدري: أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)قال:(وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ) عن ولاية عليّ. الصواعق المحرقة:١٤٩، الباب١١، الفصل الأوّل، الآية الرابعة.

وأخرجها أيضاً الحاكم الحسكاني، عن أبي سعيد الخدري. شواهد التنزيل:٢/١٠٦.

قال ابن حجر الهيتمي(بعد أن نقل رواية الديلمي): وكأنّ هذا مراد الواحدي بقوله: روي في قوله تعالى:(وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ) عن ولاية علي وأهل البيت... قال]يعني الواحدي[: والمعنى أنّهم يُسألون هل والوهم حقّ الموالاة كما أوصاهم النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) أم أضاعوها وأهملوها فتكون عليهم المطالبة والتبعة. الصواعق المحرقة:١٤٩.

وروى الشيخ الطوسي بإسناده عن ثمامة بن عبد الله بن أنس بن مالك، عن أبيه، عن جدّه أنّهم يُسألون عن ولاية علي بن أبي طالب. الأمالي:٢٩٠، برقم ٥٦٤، المجلس١١.

ورواها ـ أيضاً ـ سليمان القندوزي الحنفي، عن أنس بن مالك.( ينابيع المودّة:١٣٣.)

وروى الشيخ الصدوق عن إسحاق بن موسى (الكاظم)(عليه السلام)، عن أبيه، عن آبائه، عن أمير المؤمنين(عليه السلام)، قال: قال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن حبّنا أهل البيت». الخصال:٢٥٣، برقم ١٢٥، باب الأربعة. ورواها الطبراني في «المعجم الكبير» ١١ / ٨٣ برقم ١١١٧٧، عن ابن عباس (وفيه: جسده، بدل شبابه).

وبذلك يمكن القول أنّ ولاية علي(عليه السلام) تعدّ من مصاديق ما يُسأل عنه في الموقف.

ثم خوطبوا تقريعاً واستهزاءً بقوله:

٢٥. (مَا لَكُمْ لاَ تَنَاصَرُونَ):

أي لماذا لا ينصر بعضكم بعضاً وقد كنتم في الدنيا متظاهرين على الظلم، مجتمعين على مضادّة الحقّ، متعاونين على محاربة أهله؟

ثم ذكر سبحانه انقيادهم وخضوعهم لأمر الله، فقال:

٢٦. (بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ):

أي أنّ هؤلاء الذين كانوا مستبسلين في مواجهة الحقّ وأهله قد أصبحوا اليوم أذلاّء مستسلمين أمام القدرة الإلهية، لا يمتنعون بحيلة، ولا ينتفعون بآصرة، وهم يُساقون قهراً إلى العذاب المعدّ لهم .

ثم أخبر سبحانه، في الآيات التالية عمّا يحصل بين هؤلاء المجرمين العصاة من خصام وجدال، بعد ما كانوا في الدنيا متآزرين.

## حوار بين الأتباع والقادة

٢٧. (وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْض يَتَسَاءَلُونَ):

هذه الآية وما بعدها تحكي عن وجود تخاصم ونقاش وجدال بين المُضَلَّلين والمُضلِّين.. بين الأتباع والقادة، حيث يتوجّه الأتباع بالسؤال كما قال: (وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ): أي الأتباع (عَلَى بَعْض): أي القادة (يَتَسَاءَلُونَ) سؤال تخاصم وتوبيخ، محتجّين عليهم بقولهم:

٢٨. (قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ):

فالأتباع، هنا، يُلقون مسؤولية انحرافهم وضلالهم على عاتق المتبوعين .

وفي تفسير هذه الآية قولان:

الأوّل: أنّ معنى قول الأتباع للقادة : (إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ) أي كنتم فيما تدعوننا إليه تأتوننا من جهة الخير والصلاح، وقد تبيّن أنّكم أغويتمونا وبخداعكم صددتمونا عن الفلاح والخير، فعلى هذا فلفظة اليمين كناية عن الخير والسعادة.

ويؤيّد ذلك أنّ اليمين قد جعلت لكاتب الحسنات، والشمال لكاتب السيئات، والمحسن يؤتى كتابه بيمينه، والمسيء بشماله، حتى أنّ أصحاب اليمين (فِي سِدْرٍ مَخْضُود) الواقعة:٢٨. وأصحاب الشمال (فِي سَمُوم وَحَمِيم) الواقعة:٤٢، بل ثقافة عامّة الناس هي التيمّن باليمين والتشاؤم بالشمال.

الثاني: أنّ اليمين كناية عن القوة والقهر، فإنّ الإنسان ـ عادة ـ يبطش باليمين، والمعنى: أنّكم كنتم تأتوننا عن القوة والقهر حتى حملتمونا على الضلال.

ثمّ إنّ ما أجاب به القادة، في الآيات التالية، يناسب كلا الاحتمالين، وهو يتضمّن ثلاثة أجوبة:

٢٩. (قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ):

هذا هو الجواب الأوّل، ومعناه: أنّ الأمر ليس كما زعمتم، بل لم تكونوا مؤمنين في حدّ ذاتكم، لا أنّا صرفناكم عن الإيمان، فشقاؤكم يوم القيامة مستند إلى سوء اختياركم، وقد اخترتم أنتم الكفر والضلال .

وأمّا الجواب الثاني والثالث، فتحكيه الآية التالية:

٣٠. (وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَان بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ):

قوله: (وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَان): أي ما فرضنا عليكم متابعتنا فيما نعتقد بالقوة والسلطة، (بَلْ) إنّكم وراء ما ذكرنا من بُعدكم عن الإيمان (كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ): أي متجاوزين الحدّ في العصيان ، فلم يكن بيننا وبينكم سوى التعاضد والتعاون، فالجميع مسؤولون أمام الله على وجه سواء، كما يقول:

٣١. (فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ):

قوله: (فَحَقَّ عَلَيْنَا): أي وجب علينا جميعاً (قَوْلُ رَبِّنَا) الّذي توعّد فيه الكافرين بالعذاب، قال تعالى: (وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) السجدة:١٣، و (إِنَّا لَذَائِقُونَ)العذاب الذي نستحقّه بسبب الكفر والغواية.

إلى هنا تبيّن أنّ القادة أجابوا بأجوبة ثلاثة:

أ. لم تكونوا مؤمنين .

ب. لم يكن لنا سلطان عليكم.

ج. أنّكم كنتم قوماً طاغين مثلنا.

٣٢. (فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ):

الظاهر أنّه إيضاح للجواب الثاني ـ أعني قولهم:(وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَان) ـ وحاصله: إنّا أغويناكم وأضللناكم وزيّنا لكم الكفر بالوسوسة والإغواء دون جبر وقسر، فأردنا إغوائكم لتكونوا أمثالنا، غير أنّ هذا لم يسلب عنكم الاختيار.

هذا تمام الحوار بين الأتباع والرؤساء، فسكوت الأوّلين كاشف عن أنّهم اختاروا الشرك بإغوائهم من دون جبر وقسر، ولذلك يكون القادة والأتباع جميعاً في نار جهنم.

مصير القادة والأتباع

يظهر من الآية التالية أنّ مصير الجميع من القادة والأتباع واحد، كما قال:

٣٣. (فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ):

الضمير في (فَإِنَّهُمْ) يرجع إلى السائلين والمسؤولين: الأتباع والقادة، والمراد من الظرف (يومئذ) هو يوم القيامة، فالجميع (فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ) من دون فرق بين التابع والمتبوع، ومن دون أن يُعفى أحد من تبعة غيّه وضلاله .

ثمّ إنّ اشتراك الجميع في العذاب لا ينافي اختلافهم في شدّته وضعفه، يقول سبحانه: (إنّ المُنافِقينَ في الدَركِ الأَسْفَلِ مِنَ النّارِ). النساء:١٤٥.

٣٤. (إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ):

تأكيد لاشتراكهم في العذاب، وأنّ هذا جزاء كلّ مَن أجرم وطغى.

ثم إنّه سبحانه يذكر علامة المجرمين بقوله:

٣٥. (إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ):

أي أنّهم إذا سمعوا كلمة التوحيد نفروا واستكبروا عنها، كما يقول: (إِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللّهُ) استوحشوا ثم استكبروا ويقولون في أنفسهم أو في نواديهم:(أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ) ص:٥..

والآية هي ضابطة كلّية لتمييز المشرك عن الموحّد، فالمشرك إذا قيل له لا إلٰه إلاّ الله يستكبر ويتولّى وهو مُعرض ، وأمّا المؤمن فإذا سمع ذلك القول يفرح ويُسرّ.

وفي هذه الآية نكتة نشير إليها ونلفت نظر دعاة الوهابية والتكفيريين منهم إليها، فالآية هي الميزان الوحيد بين المشرك والموحّد، فكلّ مَن سمع قول (لا إلٰه إلاّ الله) واشتاقت نفسه إلى سماعه وأخذ يهتف به في صلاته وقيامه، فهو موحّد لا يجوز وصفه بالشرك، بخلاف مَن إذا سمع (لا إلٰه إلاّ الله) استوحش واستكبر وأخذ يحرك رأسه استكباراً وعناداً.

ونحن نسأل هؤلاء الذين قاموا بتكفير أغلب المسلمين بذرائع وهمية، هل هم من الصنف الأوّل أو من الصنف الثاني؟

ثمّ إنّ هؤلاء المستكبرين لم يقفوا عند حدّ التعالي عن قبول كلمة التوحيد، وإنّما هم يتّهمون إمام التوحيد بالشعر والجنون، وهذه جناية أُخرى وراء شركهم، كما يقول:

٣٦. (وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ):

أي أوَ يصحّ عندنا أن نترك آلهتنا لدعوة شاعر مجنون؟ يعنون بذلك النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم).

ويظهر من بعض الآيات أنّ رميَ الأنبياء بهاتين التهمتين كان أمراً رائجاً بين الأُمم السابقة، كما يقول سبحانه: (كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ) الذاريات:٥٢..

٣٧. (بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ):

لمّا وصفوا دعوة النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)بما مرّ، ردّ عليهم سبحانه بقوله: (بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ) من عند الله وليس هو بشعر ولا بهذيان مجنون، مضافاً إلى أنّه (وَصَدَّقَ): أي الرسول الخاتم(الْمُرْسَلِينَ)قبله، فدعوته إلى التوحيد هي امتداد لدعوتهم، ورسالته هي تجديد وإكمال لرسالاتهم.

ثمّ إنّه سبحانه ختم خطابه بأمرين:

٣٨.(إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الأَلِيمِ):

أي لا مناص لكم إلاّ ذوق العذاب المؤلم لاستكباركم ورميكم أمينَ الله المأمون بالتُّهم الظالمة، التماساً لإطفاء نوره .

٣٩. (وَمَا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ):

أي لا ظلم وإنّما الجزاء ليس إلاّ مثل ما عملتم، فلا ظلم .

الآيات ٤٠ ـ ٦١ (إِلاَّ عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ *أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ ... لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ)

الآيات: الأربعون إلى الحادية والستين

(إِلاَّ عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ *أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ * فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ *عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ * يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ *بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ * لاَ فِيهَا غَوْلٌ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ * وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ * كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ * فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ *أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ * قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ * فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ *قَالَ تَاللهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ * وَلَوْلاَ نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ * أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلاَّ مَوْتَتَنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ):

المفردات

إلاّ: للاشتراك لكن بصورة الاستثناء.

المخلَصين: (بفتح اللام) من خلصت قلوبهم عن كلّ تعلّق بغير الله أو خلص إيمانهم أو دينهم من كلّ شائبة، وتفسيره بالإخلاص في العبادة تفسير بمصداق واحد.

بكأس: نقل عن الأخفش أنّه قال: كلّ كأس في القرآن فالمراد به الخمر، أُطلق الظرف وأُريد المظروف. وقيل: لا يُسمّى الإناء كأساً إلاّ إذا كان فيه شراب، وإلاّ فهو قدح.

مَعين: مشتق من أمعن في الأمر إذا اشتدّ دخوله فيه، والمراد هنا الماء الشديد الجري.

بيضاء: صفة للكأس بما فيه الخمر، فلونها في الآخرة بيضاء على خلاف لون خمر الدنيا فإنّها بين حمرة أو سواد.

غَول: قال الراغب: الغول: إهلاك الشيء من حيث لا يُحسّ به. ومنه: الغيلة، وهي القتل سرّاً. واستعير هنا ـ مبالغة ـ للصداع والألم حيث يعتري السكران من حيث لا يحسّ.

ينزفون: يقال: نزف دمه أو دمعه: نزع كلّه، ومنه قيل: سكران نزيف، باعتبار نزف فهمه بسكره.

قاصرات الطرف: أي قصرن طرفهن على أزواجهن فلا يردن غيرهم لحبّهن إيّاهم.

عِين: جمع عَيناء، وهي الواسعة العين في حُسن.

بَيْض: يطلق على بيض النعام، حيث يكنّ بيضه في حفرة من الرمل ويفرش لها من دقيق ريشه.

مكنون: مستور.

قرين: خليل.

لَمدينون: لَمجزيون.

مطّلعون: مشرفون على أهل النار.

سواء الجحيم: وسط النار.

لَتُردين: لتهلكني.

المحضَرين: المحضرين في النار وغلب استعمال المحضر على الذي يحضر للعقاب.

| |
|---|
| الفوز: الظفر بالمطلوب. |
| التفسير |

٤٠.(إِلاَّ عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ):

قد تكرّرت هذه الآية في هذه السورة أربع مرات. لاحظ الآيات: ٤٠، ٧٤، ١٢٨، ١٦٠. والجميع ورد بصورة الاستثناء، والمفسّرون جعلوا (إلاَّ) استثناءً منقطعاً غير أنّه إنّما يصحّ إذا كانت هناك مظنّة دخول المستثنى في المستثنى منه، ولكن ليس هناك تلك المظنّة ولذلك يلزم أن يفسّر بالاستدراك وإن كان بصورة الاستثناء، أي إكمالاً للموضوع، فإنّ عباد الله بين عاص ومطيع، وبين مشرك ومؤمن، فلمّا ذكر وصف الطائفة الأُولى بدأ سبحانه بذكر حال الطائفة الثانية كما هو شأنه سبحانه في أغلب الموارد، فقال: (إِلاَّ عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ) فهو في الظاهر إمّا استدراك على قوله: (لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الأَلِيمِ)أو من قوله: (وَمَا تُجْزَوْنَ)، فعلى الأوّل فالمجرمون يذوقون العذاب الأليم، دون المؤمنين؛ وعلى الثاني فالمجرمون يُجزون بعملهم، وأمّا المؤمنون فلهم وراء الجزاء بعملهم رزق معلوم كما سيأتي في قوله: (لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُوم).

ثمّ إنّ المخلَص ـ بفتح اللام ـ هو عبد أخلصه الله سبحانه لنفسه فانصرف بقلبه عن زينة الحياة الدنيا وزبرجها وعن نِعَم الآخرة، فقلبه مُرتو من حب الله تعالى أو كما قال أمير المؤمنين (عليه السلام) في وصفه: «وَتَخَلَّى مِنَ الْهُمُومِ، إلاَّ هَمّاً وَاحِداً انْفَرَدَ بِهِ» نهج البلاغة: الخطبة ٨٧ . وهو همّه بمولاه، الذي لذّته وسروره الاهتمام به، والتفرّد بمناجاته ومطالعة أنوار عزّته. شرح نهج البلاغة: ٦ / ٣٦٨ .

وعلى هذا فالمخلَص أخصّ من المؤمن الّذي يدخل الجنة، ولذلك نرى أنّ إبليس استثنى عباد الله المخلَصين (بفتح اللام) من إغوائه، وقال: (إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ) ص:٨٣..

وللعلاّمة الطباطبائي كلام حول المخلَصين ننقله بنصّه لأنّه كلام رائع، قال: وقد سمّاهم الله سبحانه عباد الله المخلَصين فأثبت لهم عبودية نفسه، والعبد هو الذي لا يملك لنفسه شيئاً من إرادة ولا عمل، فهؤلاء لا يريدون إلاّ ما أراده الله ولا يعملون إلاّ له.

ثمّ أثبت لهم أنّهم مخلَصون ـ بفتح اللام ـ أي إنّ الله تعالى أخلصهم لنفسه فلا يشاركه فيهم أحد، فلا تعلّق لهم بشيء غيره تعالى من زينة الحياة الدنيا ولا من نعم العقبى، وليس في قلوبهم إلاّ الله سبحانه.

ومن المعلوم أنّ مَن كانت هذه صفته كان التذاذه وتنعّمه غير ما يلتذّ ويتنعّم غيره، وارتزاقه بغير ما يرتزق به سواه وإن شاركهم في ضروريات المأكل والمشرب، ومن هنا يتأيّد أنّ المراد بقوله: (أُولئكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُوم)الإشارة إلى أنّ رزقهم في الجنة ـ وهم عباد مخلَصون ـ رزق خاص لا يشبه رزق غيرهم ولا يختلط بما يتمتع به من دونهم وإن اشتركا في الاسم. فقوله تعالى: (أُولئكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُوم): أي رزق خاصّ متعيّن ممتاز من رزق غيرهم، فكونه معلوماً كناية عن امتيازه كما في قوله: (وَما مِنّا إلاّ له مَقامٌ مَعْلُوم) الصافات:١٦٤.والإشارة بلفظ البعيد للدلالة على مقامهم. الميزان في تفسير القرآن: ١٧ / ١٣٥ ـ ١٣٦.

٤١. (أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ):

ثمّ إنّه سبحانه عرّف نِعَم المخلَصين بأُمور، هي:

أ. أنّ لهؤلاء رزق معلوم أي رزق خاص يمتاز عن أرزاق الآخرين، وإلاّ فلو كان الجميع متّحدين في الرزق لَما كان ثمّة وجه لقوله: (لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ)، وهذا نظير قوله سبحانه في هذه السورة عن الملائكة:(وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ).

٤٢. (فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ):

ب.(فَوَاكِهُ) خبر بعد خبر لقوله: (أُولَئِكَ لَهُمْ)والفواكه جمع فاكهة، وهي ما يؤكل تلذُّذاً وتفكّهاً لا لأجل الشبع.

ج. (وَهُمْ مُكْرَمُونَ) في مقابل ذلّة أهل الجحيم.

٤٣. (فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ):

أي في جنات ليس فيها إلاّ النعيم.

٤٤. (عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ):

أي يقابل بعضهم بعضاً، ولا شكّ في أنّ رؤية الحبيب ومحادثته تورث الأُنس والبهجة واللّذة الروحية.

٤٥. (يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ):

أي يدار عليهم بكأس من خمر، وقد عرفت أنّه لا يقال كأس إلاّ إذا كان فيها شراب، ثمّ إنّه سبحانه يصف الخمر بأوصاف خمسة:

الأوّل: (مِنْ مَعِينٍ) أي أنّها من خمر يجري بشدّة على وجه الأرض كالعيون والأنهار.

٤٦. (بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ):

تضمنت هذه الآية وصفين آخرين للخمر:

الثاني: (بَيْضَاءَ)، فليس فيها أيّ كدر يشوب صفاءها.

الثالث: (لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ) بخلاف خمر الدنيا فإنّها كريهة الطعم عند الشرب.

٤٧. (لاَ فِيهَا غَوْلٌ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ):

اشتملت الآية على الوصفين الأخيرين وهما:

الرابع: (لاَ فِيهَا غَوْلٌ): أي هلاك، كنّي به عن الصداع المتسبّب عن خمر الدنيا.

الخامس: (وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ): أي يسكرون، يقال : سكران نزيف أي نزفت الخمر فهمه بالسُّكر وأذهبته، فخمر الآخرة لا تشتمل على أيّ ضرر متوهّم موجود في خمر الدنيا، ففيها اللّذة التامّة دون عوارضها.

٤٨. (وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ):

الآية تصف حور الجنة بأمرين:

الأوّل: (قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ): أي حابسات أنظارهن حياء، فلا ينظرن إلى غير أزواجهنّ.

قال السيد الرضيّ: وهذه استعارة، والمراد بقاصرات الطرف هاهنا اللواتي جعلن نظرهنّ مقصوراً على أزواجهنّ، أي حبسن النظر عليهم فلا يتعدّينهم إلى غيرهم، وجيء بذكر الطرف على طريق المجاز، وإلاّ فحقيقة المعنى أنّهن حبسنَ الأنفس على الأزواج عفة وديناً وظلفاً ظَلَفَ (نفسَه عن الشيء): كفَّ عنه. ورجل ظَلِف النفس: مترفّعٌ عن الدنايا. وصوناً، وإنّما وقعت الكناية عن هذا المعنى بقصر الطرف ؛ لأنّ طماح الأعين في الأكثر يكون سبباً لتتبّع النفوس وتطرُّب القلوب، وعلى هذا قول الشاعر:

وكنتَ إذا أرسلتَ طرفك رائداً *** لقلبك يوماً أتعبتْك المناظرُ

والطرف هاهنا واحد في تأويل الجمع، ونظيره قوله تعالى: (خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ): أي على أسماعهم أو مواضع استماعهم. تلخيص البيان في مجازات القرآن:٢٣٢.

الثاني:(عِينٌ): أي واسعات العيون في حُسن .

٤٩. (كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ):

أي أنّ لون قاصرات الطرف كلون البيض المستور، وقد مرّ أنّ النعام يكنّ بيضه في حفر من الرمل، وبما أنّ لونه مشوب بشيء من

الصفرة، فلون قاصرات الطرف أبيض مشوب بصفرة، ويقال إنّه من أحسن ألوان النساء.

إلى هنا تمّ بيان ما وعد الله به المخلَصين من النّعم والكرائم، وقد بلغ عددها ـ حسب ما فهمناه ـ ستّ نِعَم.

ثمّ إنّ المواهب التي وعدها الله سبحانه للمخلَصين من عباده مواهب مادّية تلتذ بها الروح عن طريق البدن، وهناك مواهب معنوية لا يمكننا دركها والإشارة إلى حقيقتها، ولعلّه إلى هذا الصنف أشار سبحانه بقوله: (أُولئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُوم)، كما مرّ في كلام السيد الطباطبائي الذي ذكرناه في تفسير الآية (٤٠).

٥٠. (فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْض يَتَسَاءَلُونَ):

قد تقدّم قوله سبحانه أنّ المخلصين من عباد الله يجلسون (عَلَى سُرُر مُتَقَابِلِينَ)للاستئناس والمحادثة، شأن الأخلاّء الأصفياء المفعمة قلوبُهم بالمودّة والإخاء، وهنا يعرض القرآن بعض ما يدور بينهم من حديث عن ذكرياتهم في الدنيا، فقال أحدهم: إنّه كان لي صاحب مُعاشر يُنكر عليّ إيماني بالبعث، ويشكّكني في أمره، كما يقول سبحانه :

٥١ و ٥٢ . (قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ):

أي كان هذا الصاحب الّذي يختصّ بي في الدنيا ينكر عليّ تصديقي بيوم الدين ويستهجنه.

٥٣. (أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ):

أي وكان يقول متعجّباً مستغرباً: (أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا) بالية، هل نُبعث بعد ذلك ونُجازى على أعمالنا؟ كما يقول: (أَئِنَّا لَمَدِينُونَ)، وهو مشتق من قولهم: كما تَدين تُدان، أي كما تَجزي تُجزى .

٥٤. (قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ):

أي قال هذا القائل لجلسائه: هل أنتم مشرفون على أهل النار حتّى تروا هذا القرين، وأين استقرّ به المقام؟

٥٥. (فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ):

أي أشرف من الجنة على أهل النار فرأى صاحبه في وسط جهنّم.

٥٦. (قَالَ تَاللهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ):

فنادى هذا المؤمن قرينه و (قَالَ تَاللهِ): أي أُقسم بالله سبحانه (إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ): أي إنّك كدت تهلكني بما قلته لي ودعوتني إليه.

٥٧. (وَلَوْلاَ نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ):

أي كاد إغواؤك أن يجعلني من المعاقَبين، ولكن نعمة الله سبحانه أنقذتني ان أكون منهم كما يقول: (وَلَوْلاَ نِعْمَةُ رَبِّي): أي فضله بأن وفّقني للثبات على إيماني (لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)للعذاب مثلك.

إلى هنا تمّ حوار أحد المؤمنين مع بعض قرنائه في الدنيا الذين ساء حظهم وصاروا من أصحاب الجحيم، ولكنّ هناك أُموراً يجب الإيمان بها، وهي أنّ عرض الجنة وسعتها كسعة السماوات والأرض وهذا القائل في وسط الجنة، وأمّا الجحيم فالله سبحانه يعلم مكانها وسعتها، فكيف يشرف القائل من مكانه على الجحيم ويعرف خليله من بين ملايين المعذبين في جهنم حتى يخاطبه ويفهمه ما يقول؟ كلّ ذلك يُعدّ من الأُمور الغيبية الّتي يجب الإيمان بها ولا يمكن فهمها على ما هي عليه إلاّ بعد الخروج من الدنيا.

وعلى كلّ تقدير فقد أخبر سبحانه عن مناداة أصحاب الجنة أصحاب النار، قال: (وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ). الأعراف:٤٤.

وقال سبحانه حاكياً عن حوار آخر بين الفريقين: (وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ

اللهُ قَالُوا إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ).( الأعراف:٥٠.)

٥٨ و ٥٩. (أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلاَّ مَوْتَتَنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ):

هذه محادثة أُخرى لا صلة لها بما سبق، وإنّما هي بين القائل وجلسائه في الجنّة، حيث عاد إلى مخاطبتهم بعد ما رأى المصير السيِّئ لقرينه، قائلاً بأنّ الله سبحانه أنعم عليهم بالخلود وليس لهم إلاّ الموت الأوّل في الدنيا، فأورد كلامه بصورة الاستفهام ولكنّه ليس استفهاماً حقيقياً، لأنّ مَن يتحدّث معهم كانوا يعلمون ذلك، وإنّما قال ذلك سروراً واغتباطاً بحاله، فقال: (أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ) أي أليس كذلك؟ فنحن لسنا بميتين، ثم استثنى موتة واحدة وقال: (إِلاَّ مَوْتَتَنَا الأُولَى) في الدنيا، وبما أنّ أهل الجنة وأهل الجحيم يشتركون في هذين الوصفين، أي أنّ أهل الجحيم ليسوا بميتين أيضاً إلاّ الموتة الأُولى، أشار إلى أنّ الذي يميّز الطائفة الأُولى عن الثانية هو ما في قوله:(وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ): أي أنّ الفرق بيننا وبينهم هو هذا.

يُذكر أن الاستثناء في قوله: (إِلاَّ مَوْتَتَنَا الأُولَى) استثناء منقطع ؛ لأنّ الموت المنفي هو الموت في المستقبل، والموتة الأُولى كانت في الماضي. ثمّ إنّ القائل ختم كلامه بالإشارة إلى ما هم فيه من النعيم، فقال:

٦٠. (إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ):

أي ما تقدّم من ذكر النعم والكرائم هو الفوز العظيم، والنجاح العظيم، والظفر الكبير.

٦١. (لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ):

لمّا سبق أنّ القائل وصف مصيره بالفوز العظيم، أخذ البيان القرآني في دعوة الناس إلى التسابق إلى ما ذكر وهو (لِمِثْلِ هَذَا): أي لمثل هذا الفوز العظيم أو النعيم المقيم (فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ): أي مَن يطلبون الخير ويعملون لأجله.

وبهذا تبيّن أنّ الآية ليست من كلام أهل الجنّة إذ بالدخول فيها ينقضي وقت العمل فلا وجه للدعوة إليه، بل هو كلامه سبحانه يريد به دعوة الناس إلى العمل والسعي حتّى يكون مصيرهم مثل مصير هؤلاء المؤمنين الفائزين.

## الآيات ٦٢ ـ ٧٤ (أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ... إِلاَّ عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ).

### الآيات: الثانية والستون إلى الرابعة والسبعين

(أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ * فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ * ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لإِلَى الْجَحِيمِ * إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ * فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ * وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأَوَّلِينَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ * فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ * إِلاَّ عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ).

### المفردات

نزلاً: النُّزُل: ما يُعدّ للضيف من الطعام والشراب.

الزقّوم: شجرة صغيرة الورق كريهة الرائحة، ونقل عن قطرب أنّ الزقوم شجرة مرّة تكون بتهامة.

فتنة: تطلق الفتنة ويراد بها معان مختلفة منها الاختبار والامتحان، ويراد بها هنا العذاب، كما في قوله: (إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ) البروج:١٠.: أي عذّبوهم بأُخدود النار.

طلعها: الطَّلْع: أوّل ما يظهر من ثمر النخل.

لَشوباً: الشوب: خلط الشيء بما ليس منه وهو شرٌّ منه.

حميم: الحميم: الماء الشديد الحرارة.

ألفَوا: وجدوا.

يُهرَعون: يسرعون.

التفسير

لمّا بيّن سبحانه في الآيات السابقة ما أكرم به عباده المخلَصين بأنواع النعم، قصد هنا إلى بيان جزاء الظالمين وأنواع العذاب المعدّ لهم حتّى يتّضح الفارق الكبير بين الفريقين، فبدأ كلامه باستفهام إنكاري وقال:

٦٢. (أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ):

قوله: (أَذَلِكَ): أي ما تقدّم من النعم والخلود في الجنة (خَيْرٌ نُزُلاً)ضيافة (أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ) ومن المعلوم أنّ الاستفهام استفهام تقريعيّ، توبيخي.

ولا شكّ أنّ النار تشتمل على صنوف العذاب، ولكنّه سبحانه قدّم شجرة الزقوم للحفاظ على التقابل بين رزق أهل الجنة وبين مأكل ومشرب أهل النار، فذكر للفريق الأوّل ما في قوله: (أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ * فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ) وذكر في المقام ضدّه وقال: (أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ)، فغذاء هؤلاء من ثمار تلك الشجرة المرّة الكريهة.

ثمّ ذكر سبحانه بعض خصائص تلك الشجرة، فقال:

٦٣. (إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ):

أي عذاباً للظالمين، فالفتنة وإن كان معناها غالباً الابتلاء والاختبار، ولكن أُريد بها هنا العذاب ـ كما مرّ في المفردات ـ فطعام هؤلاء عذاب لهم على خلاف طعام أهل الجنة، وكيف لا يكون عذاباً وهو من أخبث شجرة منبتاً وطعماً وشكلاً، كما وصفها سبحانه بذلك في سورة الدخان بقوله : (إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ *كَغَلْيِ الْحَمِيمِ) الدخان:٤٣ـ ٤٦. ،

وبقوله في الآيتين التاليتين:

٦٤. (إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ):

أي تنبت في قعر جهنم، وأغصانها ترفع إلى دركاتها، لا تأكلها النار ولا تحرقها.

٦٥. (طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ):

أي ما يبدو من ثمرها كأنّه رؤوس الشياطين، وهو تشبيه المحسوس بالمتخيّل للإنسان، فإنّ الإنسان لم ير الشياطين فكيف برؤوسها؟ ولكنّه يتخيّل لها رؤوساً قبيحة منكرة، كما أنّه لم ير المَلَك ولكنّه يتخيّل له أجمل صورة، ولذا يشبِّه الإنسانَ الجميل به، كما في قول صويحبات امرأة عزيز مصر لمّا رأين يوسف (عليه السلام): (مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ) يوسف:٣١. .

ثمّ علّل سبحانه جعل الشجرة فتنة للظالمين بقوله:

٦٦. (فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِؤُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ):

أي أنّ أهل النار يأكلون من ثمرة تلك الشجرة فيملأون بطونهم منها لشدّة ما يلحقهم من ألم الجوع، وكأنّ ألم الجوع يكون أشدّ من ألم الأكل من ثمرة تلك الشجرة!!

٦٧. (ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ):

بعد أن ذكر سبحانه طعامهم أردفه ببيان شرابهم وقال: (ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ): أي لأهل الجحيم (عَلَيْهَا): أي زيادة على تلك الشجرة الّتي ملأوا منها بطونهم (لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ): أي شراباً من حميم، وهو نظير قوله سبحانه: (لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ)( الأنعام:٧٠).

ولعلّ التعبير بـ«الشوب» مكان «الشرب»، للإشارة إلى اختلاط الماء بالمأكول من شجرة الزقوم، فوصفه بالشوب باعتبار المآل.

والحميم إذا شاب الزقوم اجتمعت المكاره فيه من المرارة والخشونة ونتن الرائحة، والحرارة المحرقة. التبيان في تفسير القرآن: ٨ / ٥٠٣.

٦٨. (ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ):

إذا كان المرجع بمعنى المكان الذي يعود إليه الإنسان الخارج منه، فلعلّه يدلّ على أنّ شربهم في موضع خارج الجحيم فإذا شربوا أُعيدوا إليها، ويحتمل أن يكون شربهم الحميم في مكان خاصّ من الجحيم، ثم يُردُّون إلى مقرّهم الدائم.

٦٩ و ٧٠. (إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ * فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ):

كأنّ هنا مظنة سؤال، لماذا يعذّبون بما ذُكر من فنون العذاب؟ فجاء الجواب أنّ سبب تعذيبهم هو:(إِنَّهُمْ أَلْفَوْا) وجدوا (آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ) عن سواء السبيل، حائدين عن طريق الحقّ، فهؤلاء مكان أن يتأمّلوا في طريقة الآباء وأنّها هل هي طريقة صحيحة أو باطلة، أو أن يتأمّلوا في دلائل الرسل وحججهم ويهتدوا بأنوارها، انقادوا لأهوائهم فاقتصّوا آثار آبائهم في الشرك والضلال، كما يقول: (فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ): أي يسرعون إلى اتّباع خطاهم بلا تأمُّل أو إعمال فكر حيث إنّ الإهراع هو الإسراع المفرط في السير.

وفي هذا دعوة إلى نبذ التعصّب والتقليد الأعمى، وتحرير العقل من سطوة التقديس لمعتقدات الآباء، والانفتاح على الأدلّة والبراهين.

٧١. (وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ):

الآية تسلية للنبيّ الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) وأنّ حال مشركي عصر الرسالة كالماضين منهم(وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ): أي مشركي هذه الأُمة (أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ): أي الغابرين، واللام في قوله:(وَلَقَدْ) للقسم.

٧٢. (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ):

وكأنّ هنا مظنّة سؤال: هل أنّ ضلالة الأوّلين كانت بلا منذر من ربّهم، ومن ثمّ يكون عقابهم عقاباً بلا بيان؟ فدفع سبحانه هذا الظنّ بقوله: (وَلَقَدْ)حالفاً، إذ الواو للقسم (أَرْسَلْنَا فِيهِمْ): أي أكثر الأوّلين (مُنْذِرِينَ) فتمّت الحجّة عليهم، وقد جرت سنّة الله تعالى على عدم تعذيب الأُمم إلاّ بعد بعث الرسل، كما قال سبحانه: (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً) الإسراء: ١٥..

٧٣. (فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ):

الفاء للنتيجة، أي انظر كيف كان مصير أُولئك المنذَرين، وهم الأُممّ السابقة الّذين خوّفوا بأس الله وصولاته، ولكنّهم تمادَوا في العناد وآثروا طريقة الآباء على هداية المرسلين.

٧٤. (إِلاَّ عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ):

أي الّذين استخلصهم الله لنفسه لإخلاصهم في طاعتهم لله تعالى، قد أنجاهم سبحانه من العذاب، ووفّاهم أُجورهم وزادهم من فضله وإحسانه.

| |
|---|
| قصة نوح(عليه السلام) |
| الآيات ٧٥ ـ ٨٢ (وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ... ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ). |
| الآيات: الخامسة والسبعون إلى الثانية والثمانين |
| (وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ * وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ * سَلاَمٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ). |
| المفردات |

| |
|---|
| نادانا: استنصرنا. |
| الكرْب: الغمّ الشديد. |
| تركنا عليه: أبقينا له. |
| سلام: ثناء حسن. |
| التفسير |

٧٥. (وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ):

لمّا دلّ قوله سبحانه:(وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأَوَّلِينَ) على ضلال الأكثر، كما أنّ قوله سبحانه:(إِلاَّ عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ) أشار إلى إيمان قليل من عباده، عاد البيان القرآني إلى ذكر قصص الأوّلين ممّن ضلّ وممّن نجا، وإليك رؤوس هذه القصص:

١. قصة نوح(عليه السلام).
٢. قصة إبراهيم(عليه السلام).
٣. قصة إسماعيل(عليه السلام)
٤. ذكر إسحاق(عليه السلام).
٥. قصة موسى و هارون(عليهما السلام).
٦. قصة إلياس(عليه السلام).
٧. قصة لوط(عليه السلام).
٨. قصة يونس(عليه السلام).

بدأ سبحانه بذكر قصة نوح(عليه السلام) مع قومه، وقال:(وَلَقَدْ نَادَانَا): أي استغاثنا «نوح»، ولعلّه سبحانه يشير إلى قوله:(فَدَعَا رَبَّهُ إِنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ) القمر:١٠، أو قوله: ( رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا) نوح:٢٦، وإنّما استغاث بربّه بعد ما أقام في قومه (أَلْفَ سَنَة إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا) العنكبوت:١٤.يبشّرهم برحمة الله ومغفرته وينذرهم عذابه، ولكنّهم أخذتهم عصبية اقتفاء آثار الآباء واجتمعوا وقالوا: (لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدًّا وَلاَ سُوَاعًا وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا) نوح:٢٣.وقد بلغ لجاج القوم وعنادهم درجة أنّه كلّما دعاهم نبيّهم نوح ليغفر الله ذنوبهم (جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا) نوح:٧.فلمّا يئس (عليه السلام) من هدايتهم وعلم أنّهم لا يلدون إلاّ فاجراً كفّاراً، انظر: نوح: ٢٧ .دعا عليهم وقال: (رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا) نوح:٢٦، فاستجاب له ربّه ونصره كما يقول: (فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ).

ثمّ إنّ وجود اللامين في قوله: (وَلَقَدْ) وقوله: (فَلَنِعْمَ) دليل على شدّة الطلب وسرعة الإجابة.

٧٦. (وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ):

جرت سنّة الله تعالى عند تعذيب العصاة الطغاة على إنجاء المؤمنين المطيعين، ولذلك يقول:(وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ): أي من كان معه على دينه، فعلى ذلك فأُريد بالأهل أهل دينه لقوله سبحانه: (إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ)( آل عمران:٦٨.) ويمكن أن يراد بهم أهل بيته، وإنّما لم يذكر نجاة من آمن به لقلتهم، ومع ذلك ذكر نجاتهم في آية أُخرى، وقال: (قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ) هود:٤٠..

قوله تعالى: (مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ): أي من الغمّ الشديد، وربّما أُريد به الطوفان ؛ لأنّه كان مصيبة عظيمة على الهالكين به، فأنجاه الله ومن آمن معه من هذا الكرب.

٧٧.(وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ):

ظاهر الآية أنّ الباقين في الأرض بعد مهلك قوم نوح هم ذريته (عليه السلام)

فقط، وأنّ مَنْ سواه وسوى ذريته قد فنوا. وهذا يومئ إلى أنّ المؤمنين الناجين معه لم يكن لهم نسل.

وعلى كلّ تقدير فالآية تدلّ على أنّ النسل الموجود من الإنسان يرجع إلى نوح بناءً على أنّ الطوفان أهلك البشر جميعاً (ما عدا

أصحاب السفينة)، ويذكر المؤرّخون أنّه كان لنوح ثلاثة أولاد وهم: سام وهو أبو العرب والفرس والروم، وحام وهو أبو السودان، ويافث وهو أبو الترك والخزر ويأجوج ومأجوج من الصين واليابان ونحوهم.

٧٨ و ٧٩.(وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ * سَلاَمٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ):

الضمير في (عَلَيْهِ) يرجع إلى نوح والمراد بـ (الآخِرِينَ) إمّا الأنبياء العظام الذين جاءوا بعد نوح أو جميع الأُمم إلى انقضاء الدنيا، وفسّرت الآية بأنّا أبقينا على نوح ثناءً حسناً بين الأنبياء أو الأُمم إلى يوم القيامة، وعلى هذا أُريد بالتَّرْك ـ الذي هو في اللغة التخلّي عن الشيء ـ الإبقاء، أي أبقينا على نوح ثناءً زاكياً، حيث حذف مفعول (تَرَكْنَا) وهو الثناء. وقد استعمل الترك في القرآن الكريم وأُريد به الإبقاء كما في قوله سبحانه: (وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ)، الذاريات:٣٧. وسيوافيك تفسير الآية في محلّها.

ثمّ إنّ هذا الثناء بالسلام قد تكرّر في حقّ إبراهيم الصافات:١٠٨.وموسى وهارون الصافات: ١١٩. وإلياس الصافات: ١٢٩.في آيات هذه السورة، غير أنّ السلام على نوح اقترن بقوله:(فِي الْعَالَمِينَ) وجُرّد السلام على الآخرين عنه، وبهذا امتاز السلام عليه عن السلام على الآخرين. وعلى كلّ تقدير فالآية في المقام تحتمل أحد أمرين:

الأوّل: أنّ الآية تحكي عن وجود ثناء حسن لنوح بين الأنبياء والأُمم إلى يوم القيامة. الثاني: أنّ قوله:(وَتَرَكْنَا) بحاجة إلى مفعول، فالمتروك هو الآية التالية أعني:(سَلاَمٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ) وربّما يفسّر (الْعَالَمِينَ)بالملائكة والإنس والجنّ، ولكن الظاهر أنّ المراد بهم الإنس كلّهم (ذكوراً وإناثاً) بشهادة قوله سبحانه حاكياً عن لوط مخاطباً قومه:(أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَد مِنَ الْعَالَمِينَ) الأعراف:٨٠..

ومهما يكن، فإنّ هذا السلام التامّ الّذي يُهدى إلى نوح (عليه السلام)من المجتمعات الإنسانيّة على مرّ العصور، ويتردّد على لسان كلّ موحِّد عبر الأجيال، إنّما خُص به (عليه السلام)لدوره المتميّز في النهوض بمسؤولية الدعوة إلى التوحيد ونبذ الشرك، في صبر وثبات عجيبين، طوال مدة لبثه في قومه الّتي بلغت ألف سنة إلاّ خمسين عاماً، والّتي دأب فيها على التبليغ والنصح لهم بفنون الأساليب النابضة بالعطف، والساطعة بالدليل والبرهان، على الرغم من شدّة عنادهم ولجاجهم، وإصرارهم على التمسّك بعقائدهم الباطلة وأفكارهم المنحرفة.

٨٠. (إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ):

تعليل لقوله: (وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ) وإنّما شملته الكرامة الإلهية لأجل كونه محسناً، فالآية تدلّ على سنّة عامّة وهي (إِنَّا كَذَلِكَ): أي مثل ما جزينا نوحاً(نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ).

٨١. (إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ):

الآية تعليل لكون نوح من المحسنين، وآية إحسانه(إِنَّهُ) كان (مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ)إيماناً صادقاً مطابقاً للواقع. فبما أنّ الشرك ظلم لله سبحانه أي يكون المشرك متعدّياً على حقّ الله، فيكون الإيمان أداءً لحقّه، ولذلك يوصف الإيمان بالإحسان، والشرك بالظلم.

٨٢. (ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ).

المراد بـ(الآخَرِينَ) قوم نوح، والتعبير بـ(ثُمَّ) يدلّ على التراخي، لكن التراخي هنا في البيان والكلام لا الزمان، بشهادة قوله:(وَنَجَّيْنَاهُ) الّذي يدلّ على هلاك الآخرين.

## قصة إبراهيم(عليه السلام)

الآيات ٨٣ ـ ٩٩ (وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ * إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْب سَلِيم ... إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ).

الآيات: الثالثة والثمانون إلى التاسعة والتسعين

(وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ * إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْب سَلِيم * إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ * أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ * فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ *فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلاَ تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لاَ تَنْطِقُونَ * فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ * فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ * قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ * قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ * فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ * وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ).

### المفردات

شيعته: الشيعة: مَن يتقوّى بهم الإنسان وينتشرون عنه، يقول سبحانه:(هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ) القصص:١٥.. وأُريد هنا مَن سار على دينه ومنهاجه واتّبع طريقته.

ومن عجيب القول ما ذكره بعضهم وهو: أصل كلمة الشيعة أتباع الرجل وأنصاره، وكلّ قوم اجتمعوا على أمر فهم متشيّعون له، ثم صارت بعد موت سيدنا علي بن أبي طالب(رضي الله عنه) تطلق على جماعة خاصّة في مواجهة أهل السنة. التفسير المنير:١٢/١٢٠.

لكن عزب عن الرجل أنّ بدء الشيعة وظهورهم كان في عصر النبيّ وأنّه(صلى الله عليه وآله وسلم) هو الذي سمّى أنصار عليّ وأتباعه بالشيعة، وذلك عندما نزل قوله سبحانه:(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ) البيّنة:٧.قال النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) لعليّ: «هم أنت وشيعتك». انظر: الدر المنثور:٦/٥٨٩؛ الصواعق المحرقة:١٦١؛ ربيع الأبرار:١/٨٠٨.وسيوافيك تفسيره في سورة البيّنة، فانتظر. ولم تكن الغاية يوم بذر النبيّ بذرة التشيّع مواجهة أهل السنّة إذ لم يكن لهم، يوم ذاك، وجود في عصر النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم).

أئفكاً: الإفك: الكذب.

سقيم: مريض.

فراغ: قال الراغب: الرّوغ: الميل على سبيل الاحتيال، والمراد هنا: مال إلى الأصنام خفية.

باليمين: كنّي به عن القوّة والشدة.

يزفّون: يسرعون، يقال: زفزف النعام أي أسرع، ومنه استعير: زفّ العروس.

بنياناً: حائطاً من حجارة ملؤها النار.

الجحيم: النار العظيمة.

كيداً: الكيد: ضرب من الاحتيال، وأُريد به هنا: السوء، كقوله تعالى حاكياً عن إبراهيم (عليه السلام): (وَتَاللّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ) الأنبياء: ٥٧ .: أي لأُريدنّ بها سوءاً.

### التفسير

إنّ إبراهيم الخليل(عليه السلام) هو أحد الأنبياء العظام بعد نوح(عليه السلام) وقد توسّط بينهما نبيّان هما هود وصالح، ويشهد لذلك قول هود لقومه:(وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوح) الأعراف:٦٩، وقول صالح لقومه:(وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَاد) الأعراف:٧٤. ومن المعلوم أنّ النبيّ المبعوث إلى عاد هو هود(عليه السلام).

ثمّ إنّه سبحانه وصف النبيّ إبراهيم (عليه السلام)بوصفين، وهما:

۸۳. (وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ):

١. إنّ إبراهيم (عليه السلام)كان ممّن شايع نوحاً(عليه السلام) على دينه واتّبع منهاجه، وهو منهاج التوحيد ورفض الشرك. ويستفاد من الآية التالية وجه آخر لعدّه من شيعته وهو اشتراكهما في طهارة القلب وسلامته، كما في قوله تعالى:

۸٤. (إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ):

٢. إنّه مُقبل على الله بقلبه، كما قال: (إِذْ جَاءَ رَبَّهُ) وهو كناية عن التصديق والإيمان، وأمّا قوله:(بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) فأُريد به ما لا تعلُّق له بغيره تعالى، فكأنّ قلبه كان مملوءاً بالتوحيد والتعلّق بالله؛ ويؤيّد ذلك ما روي عن أبي عبدالله الصادق(عليه السلام): «القلب السليم، الذي يلقى الله عزّ وجلّ وليس فيه سواه». تفسير نور الثقلين:٤٠٦/٤. وعلى هذا فالآية تدلّ على أنّ نوحاً أيضاً كان ذا قلب سليم بحكم وحدة الملاك في التابع والمتبوع، غير أنّ دلالة الآية على المتبوع بالالتزام.

ولا يسعنا بيان ما لإبراهيم من المقامات المعنوية ويكفي في ذلك أنّه (عليه السلام) كان مستسلماً لله منقاداً له في كلّ شأن من شؤونه في باطنه وظاهره، في سرّائه وضرّائه، وفي شدّته ورخائه، صادقاً كلّ الصدق مع نفسه وفي علاقته مع ربّه، عاملاً بما يرضيه، ونائياً عمّا يُسخطه، لا يختلج قلبه بشكّ أو ريب يعكّر صفو إخلاصه لله، ولا يشيب سلامته شرك أو معصية أو غلّ وحقد(إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ).

۸٥ . ( إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ):

إنّ الظرف ـ أعني قوله: (إِذْ) ـ متعلّق بمقدّر أي: اذكر ما (قَالَ)إبراهيم (لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ)قولاً على نحو الاستفهام الإنكاري (مَاذَا تَعْبُدُونَ): أي أي شيء تعبدونه؟ وقد تكرّرت الآية في موضع آخر: (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ) الشعراء:٧٠، وطبع الحال يقتضي أنّ المسؤولين أجابوه بجواب تُرك ذكره في المقام، لكنّه ورد في سورة الشعراء بهذا النحو:(قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ) الشعراء:٧١..

ثمّ إنّ كثيراً من المفسّرين ذهبوا إلى أنّ آزر كان أباً حقيقياً لإبراهيم، ولكن سيوافيك أنّه كان عمه أو خاله، فدعاؤه(عليه السلام) بعد بناء البيت لوالده أفضل دليل على أنّ آزر لم يكن والداً له، قال سبحانه: (رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ) إبراهيم:٤١، وستقرأ تفصيل ذلك عند تفسير الآية الرابعة من سورة الممتحنة، فانتظر. ولمّا كان السؤال لغاية الاحتجاج عليهم شرع في نقد عملهم وقال:

۸٦. (أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ):

قوله:(آلِهَةً) مفعول لقوله: (تُرِيدُونَ) كما أنّ إفكاً حال من ضمير(تُرِيدُونَ)، وتقدير الآية: أتريدون آلهة آفكين أو ذوي إفك (أي كَذِب) دون الله؟ والمراد بالإرادة هو التعلّق بغير الله عقيدة والخضوع له عملاً.

۸۷. (فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ):

الظنّ بمعنى الرأي والفكر، أي ماذا تفكّرون في حقّ رب العالمين إذا لقيتموه وأنتم تركتم عبادته وعكفتم على عبادة مخلوقاته؟ هل تفكّرون في ما يُصنع بكم؟ وبهذا أرشدهم إلى التفكّر في الموضوع. وكلامه يدلّ على أنّهم كانوا يصوّرون رب العالمين إله الآلهة.

وأمّا ما هو جوابهم في مقابل سؤاله فلم يذكر شيء منه، وقد مرّ ما يمكن أن يكون جواباً لهم، ويحتمل أنّه قد أفحمهم بسؤاله هذا، فلم يجيبوه.

۸۸ و ۸۹. (فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ):

ما هي الصلة بين نظره في النجوم ووصف نفسه بالسقم وبين ما تقدّم من احتجاجه على أبيه وقومه؟ الظاهر أنّ أباه والذين كانوا

معه وفدوا إليه ليخرج معهم من المدينة في اليوم التالي لأجل عيد لهم حيث يجتمعون خارج المدينة، وبما أنّه(عليه السلام) كره أن يخرج معهم لِما عزم عليه من تكسير أصنامهم، فلذلك تذرّع واعتذر بما يلي:(فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ)وصارت نتيجة النظر فيها: الاعتذار عن الخروج معهم بقوله: (إِنِّي سَقِيمٌ).

وبهذا ظهرت صلة الآيتين بما تقدّم، لكن يقع الكلام في أمرين:

| الأوّل: ما هو المراد من النظر في النجوم؟ |
| --- |

: ونظرته في النجوم إمّا لتشخيص خصوص الوقت، نظير من به حمّى ذات نوبة يُعيّن وقتها بطلوع كوكب أو غروبه أو وضع خاص من النجوم، وإمّا للوقوف على الحوادث المستقبلة التي كان المنجمون يرون أنّ الأوضاع الفلكية تدلّ عليها، وقد كان الصابئون مبالغين فيها، وكان في عهده(عليه السلام) منهم جمّ غفير. الميزان في تفسير القرآن:١٤٨/١٧.

ثمّ قال: فعلى الوجه الأوّل لمّا أراد أهل المدينة أن يخرجوا كافّة إلى عيد لهم نظر في النجوم وأخبرهم أنّه سقيم ستعتريه العلّة عن قريب فلا يقدر على الخروج معهم.

وعلى الوجه الثاني نظر(عليه السلام) حينذاك إلى النجوم نظرة المنجّمين فأخبرهم أنّها تدلّ على أنّه سيسقم فليس في وسعه الخروج معهم.

وأوّل الوجهين أنسب بحاله وهو في إخلاص التوحيد بحيث لا يرى لغيره تعالى تأثيراً. الميزان في تفسير القرآن:١٤٩/١٧.

وما ذكره(رحمه الله) إنّما يصحّ إذا كان وفود القوم إلى إبراهيم في الليل وكانت السماء صاحية، وأنّه بمجرد النظر إلى نجوم السماء انتقل إلى سقمه، اللّهم إلاّ إذا أُريد من النظر في النجوم، النظر في علم النجوم وأحكامها وما دوّن منها. وهناك وجه آخر لو ثبت لكان أفضل، وهو:

أنّ العرب تقول للشخص إذا تفكّر وأطال الفكرة: نظر في النجوم، أي فأطال الفكر فيما هو فيه.

| الثاني: هل كان إبراهيم (عليه السلام)غير صادق فيما قال؟ |
| --- |

ذهب كثير من المفسّرين إلى أنّ إبراهيم (عليه السلام)لم يكن سقيماً وأنّ كلامه هذا كان من قبيل المعاريض حتى روي عن أبي هريرة أنّ إبراهيم كذب في ذلك المقام!!

ولكن لا دليل على أنّه(عليه السلام) لم يكن سقيماً، بل الأقوى أنّه كان سقيماً فعلاً أو أنّه استظهر سقمه فاعتذر به عن الخروج معهم، فما ذُكر من أنّ كلامه هذا من قبيل المعاريض أي التورية حيث ذكر أنّه سقيم وأراد به معنى آخر، هو غير لائق بالأنبياء وإن كانت المعاريض أمراً جائزاً بشرائطها المذكورة في الفقه. لاحظ مكاسب الشيخ الأنصاري، مبحث التورية.

وأمّا ما روي عن أبي هريرة من (أنّه لم يكذب إبراهيم إلاّ ثلاث كذبات:

١. قوله:(إِنِّي سَقِيمٌ).

٢. قوله: (بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرهم).

٣. قوله عن امرأته حين أتى على الملك: أُختي) انظر: صحيح البخاري: ٢ / ٣٧١، برقم ٣٣٥٨ ؛ سنن الترمذي:٣٠٨/٥، برقم ٣١٤٨؛ مسند أحمد:٢٨١/١.، فهو من الإسرائيليات انظر: التوراة، سفر التكوين:١٢ و ١٣، الاصحاح الثامن عشر. التي تسرّبت إلى كتب الحديث بمكر وخداع، وعصمة الأنبياء تردّ الرواية، ونسبة الكذب إلى الراوي أهون بكثير من نسبته إلى إبراهيم الخليل الذي اشترى رضا ربّه سبحانه باستعداده لمواجهة النار الحارقة.

نعم إنّ عدداً من مفسّري السنّة لم يقبل هذه الرواية ولم يعبأ بها، بالرغم من وجودها في الصحيحين، ومنهم: نظام الدين الحسن

بن محمد النيسابوري غرائب القرآن ورغائب الفرقان: ٩ / ٣٨٥ . (المتوفّى بعد سنة ٧٢٨ هـ)، والمراغي تفسير المراغي: ٢٣ / ٧٠ ، وعبدالكريم الخطيب.( التفسير القرآني للقرآن: ٩ / ٩١٥ ـ ٩١٦.)

٩٠.(فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ):

والظاهر أنّهم اقتنعوا بعذره (فَتَوَلَّوْا عَنْهُ) فأعرضوا وتفرّقوا عنه (مُدْبِرِينَ) تاركيه في مكانه.

## تهديم الأصنام

الآيات التالية تحكي العمل الثوري الذي لا مثيل له في التاريخ، ذلك العمل الذي قام به إبراهيم(عليه السلام) وحده، فقد ذكر علي بن إبراهيم القمّي في تفسيره أنّه خرج نمرود وجميع أهل مملكته إلى عيد لهم، وكره أن يخرج إبراهيم(عليه السلام) معه... فلمّا ذهبوا عمد إبراهيم إلى طعام فأدخله إلى بيت أصنامهم، فكان يدنو من صنم صنم ويقول له: كُل وتكلّم، فإذا لم يجبه أخذ القَدوم فكسر يده ورجله، حتى فعل ذلك بجميع الأصنام، ثم علّق القدوم في عنق الكبير منهم الذي كان في الصدر، فلمّا رجع الملك ومن معه من العيد، نظروا إلى الأصنام مكسّرة فقالوا: (مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ) قالوا: (سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ) الأنبياء: ٦٠ .

وهو ابن آزر... إلى آخر ما ذكره. تفسير القمّي: ١ / ٤٦ .

ويظهر من بعض التواريخ أنّ عبدة الأصنام في مدينة بابل كانوا عندما يخرجون من البلد يهيئون الطعام داخل معابدهم ثم يضعونه بين يدي آلهتهم تيمّناً وتبرّكاً، ثم يخرجون من المدينة، وفي نهاية اليوم يرجعون إلى معابدهم لتناول ذلك الطعام والشراب المتبرَّكين، ولعلّ هذا أظهر. إذا وقفت على ذلك فيظهر لك مفاد الآيات التالية:

٩١. (فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلاَ تَأْكُلُونَ):

قد مرّ أنّ أصل الرّوغ هو الميل بحيلة، فمعنى قوله: (فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ)أنّه أسرع خفية إلى العمل خشية أن تفوته الفرصة، فخاطبهم خطاباً تقريعياً أو استهزائياً بقوله: (أَلاَ تَأْكُلُونَ) ، وقد مرّ أنّ القوم كانوا يضعون الطعام قرب الأصنام عند خروجهم من المدينة للتبرّك. ثمّ خاطبهم بقوله:

٩٢.(مَا لَكُمْ لاَ تَنْطِقُونَ):

وقد صدر هذان الخطابان منه (عليه السلام)مع علمه بأنّهم لا يأكلون ولا ينطقون على سبيل التهكّم المصحوب بالغيظ، وكأنّه قال: لا تأكلون ولا تنطقون مع أنّكم آلهة بزعم عبّادكم وأنّكم مدبّرون لأُمورهم!! فلمّا لم يسمع جواباً منهم عمد إلى ما نواه من قبل، كما قال:

٩٣. (فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ):

اقترن الفعل (راغ) هنا بـ «على» وفي الآية المتقدّمة بـ«إلى» وذلك لأنّه قُصد به في الآية المتقدّمة الإسراع، وهنا تضمّن معنى الإقبال، فيكون معنى (فَرَاغَ عَلَيْهِمْ): أي أقبل عليهم يضربهم (ضَرْبًا بِالْيَمِينِ) وهو كناية عن الضرب بقوة وشدّة لأنّ اليمين أقوى الجارحتين وأشدهما. انظر: تفسير الكشّاف:٣/٣٠٤..

استعدّ إبراهيم (عليه السلام)، بعد أن حطّم أصنام القوم ونال من قداستها المزعومة، استعدّ لاستقبال ردة فعلهم الغاضبة.

٩٤. (فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ):

ذُكرت القصة في المقام بإيجاز، ولكنّها عُرضت بتفصيل في سورة الأنبياء، إذ لا شكّ من وقوع أحداث بين تكسير الأصنام وبين إقبال المشركين إلى إبراهيم(عليه السلام)مسرعين، وهذا ما كشفت عنه الآيات التالية: (قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ

* قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ * قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ * قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ) الأنبياء:٥٩ـ ٦٢..

وبهذا يتبيّن وجه قوله: (فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ): أي أقبل المشركون إلى إبراهيم (يَزِفُّونَ)يسرعون، وذلك لما اشتهر في المدينة من أنّ إبراهيم (عليه السلام) هو الذي يذكر الآلهة بسوء، فهو، إذاً مظنّة ارتكاب هذا الفعل، فلمّا سألوه أجابهم بقوله:

٩٥ و ٩٦. (قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ):

يظهر ممّا جاء في سورة الأنبياء أنّ إبراهيم(عليه السلام) لم ينكر أنّه كسر أصنامهم، بل نسبه إلى كبيرهم تقدمة للاحتجاج، حيث قال: (بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ) الأنبياء:٦٣، ومن المعلوم أنّ نسبة الكسر إلى كبير الأصنام لم يكن عن جدّ، ولم يكن الإخبار عن ذلك بقصد التورية، وإنّما كان بقصد إلزام القوم لغاية إبطال أُلوهية أصنامهم، ولذلك لمّا سمعوا كلامه هذا خاطبوه بقولهم: (لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ) الأنبياء:٦٥..

وهذا الحوار القصير بينه وبينهم قد هيّأ الأجواء لأن يضربهم ضربة أُخرى بطرح برهانه القاطع، وذلك قوله: (أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ) : أي أليس من السفاهة والسخافة بمكان أن تعبدوا أشياءً نحتموها بأيديكم، ثم سمّيتموها آلهة، وزعمتم أنّ بأيديها مصائر أُموركم؟!

ثم أتمّ البرهان بذكر أمر آخر وقال: (وَاللَّهُ) سبحانه هو الّذي (خَلَقَكُمْ)بقدرته (وَ)خلق (مَا تَعْمَلُونَ)و«الواو» عاطفة و «ما» موصولة ـ مثل «ما» في (مَا تَنْحِتُونَ)ـ أي خلقكم وخلق الّذي تعملونه وتصنعونه من الأصنام، فأنتم مكان عبادة خالق الكون خالق السماوات والأرض وما بينهما، تعبدون أخشاباً وأحجاراً تنحتونها بأيديكم صنماً ووثناً.

ثمّ إنّ التدبّر في الآيتين كما مرّ يدلّ على أنّ لفظة «ما» في كلا الموردين موصولة، أعني: (مَا تَنْحِتُونَ) و (وَمَا تَعْمَلُونَ)، ولعلّ المراد من الموصول الأوّل هو الحجارة بقرينة قوله: (تَنْحِتُونَ) لأنّ النحت مستعمل في مورد الأحجار قال سبحانه: (وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا). الأعراف:٧٤.

والمراد من الموصول الثاني الأخشاب، وأساس الاستدلال أنّ ما تنحتون من الحجارة أو ما تعملون فيه من الأخشاب هو مخلوق لله سبحانه، فكيف تركتم الخالق وعكفتم على المخلوق؟!

ومن الغرائب أنّ الشيخ أبا الحسن الأشعري استدلّ بقوله تعالى: (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) على أنّ أفعال العباد مخلوقة لله، قال في الباب الثاني من كتابه «الإبانة»: أنّه لا خالق إلاّ الله وأنّ أعمال العبد مخلوقة لله ومقدورة، كما قال: (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) وأنّ العباد لا يقدرون أن يخلقوا شيئاً وهم يُخلَقون، كما قال سبحانه: (هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ) فاطر:٣. ( الإبانة:٢٠.)

يلاحظ عليه أوّلاً: أنّ ما ذكره مبني على كون «ما» في الآية الأُولى موصولة وفي الآية الثانية مصدرية، وهو خلاف الظاهر.

وثانياً: لو كانت «ما» في الآية الثانية مصدرية يكون مفاد الآية أجنبياً عن الردّ على عبّاد الأصنام والإنكار عليهم، وهو ما يستهدفه إبراهيم (عليه السلام)من كلامه هذا، حيث يكون مرجع الآية: والله خلقكم وعملكم، وعندئذ كيف يكون ردّاً على الوثنية؟!

والعجب أنّ أكثر المفسّرين من السنّة إذا مرّوا على الآية استدلّوا بها على أُصولهم من أنّ أفعال العباد مخلوقة لله سبحانه.

والعجب أكثر من صاحب «التفسير المنير» حيث جمع بين المتناقضين، ففسّر الآية أوّلاً بالنحو الصحيح وقال: خلقكم وخلق تلك الأصنام التي تعملونها بأيديكم. فاتّخذ لفظة «ما» موصولة.

ثمّ إنّه قال بعد ذلك : وفيه دلالة على أنّ الله خلق الإنسان وخلق أعماله . التفسير المنير:١٢/١٢٤.

فعلى الوجه الأوّل تكون «ما» موصولة، وعلى الوجه الثاني تكون مصدرية.

نعم التفت إلى ضعف الاستدلال المفسّر التونسي ابن عاشور حيث قال: وقد احتجّ الأشاعرة على أنّ أفعال العباد مخلوقة لله تعالى بهذه الآية على أن تكون«ما» مصدرية، أو تكون موصولة بناء على أنّ المراد: ما تعملونه من الأعمال، وهو تمسّك ضعيف... إلخ. التحرير والتنوير:٢٣/٦٠.ولا يخفى أنّ تفسير «ما» الموصولة بالعمل كما قال، يوجب خروج الآية عن الردّ على المشركين.

ثمّ إنّ السبب لذهاب الأشاعرة إلى أنّ أفعال الإنسان مخلوقة لله سبحانه وليس للإنسان فيها دور، نابع عن الخطأ في تفسير التوحيد في الخالقية فزعموا أنّه ليس في صفحة الوجود خالق مطلقاً إلاّ الله سبحانه، وبذلك فسّروا الآية على عقيدتهم بأنّ إبراهيم يقول: والله خلقكم وخلق أعمالكم، لكنّهم غفلوا عن حقيقة التوحيد في الخالقية وهو أنّ الخالق المستقلّ في الخالقية هو الله سبحانه، وأمّا الخالق المأذون القادر بإقدار الله سبحانه فهو ثابت لغيره. وبذلك يعلم معنى قوله سبحانه: (هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ) فاطر: ٣ .أي الخالق المستقلّ.

ثمّ إنّهم فرّعوا على عقيدتهم إنكار تأثير العلل والأسباب الطبيعية، إذ بالقول بالتأثير يبطل ما زعموه من حصر الخالقية على وجه الإطلاق بالله سبحانه مع أنّه سبحانه يصرّح بتأثير العلل الطولية في عالم الكون، قال تعالى: (وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلاَ تَجْعَلُوا للهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) البقرة:٢٢.. ونزيد بياناً على وجه الإيجاز: أنّ هناك أفعالاً تمتنع نسبتها إلى الله تعالى على وجه المباشرة، وهذا هو الإنسان يوصف بأنّه آكل، شارب، باطش، إلى غير ذلك من الأفعال، فهل يمكن نسبة هذه الأفعال إلى الله نسبة مباشرية وأنّه خالقها مع أنّها أفعال قائمة بجوارح الإنسان؟ والتفصيل في محلّه.

٩٧.(قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ):

لمّا أُفحم القوم وغُلبوا بالحجّة عن المناظرة عدلوا إلى معاقبة إبراهيم(عليه السلام) بعقوبة مروّعة، حيث اتّفق رأيهم على أن يُهلَك حرقاً في بنيان مليء بنار حامية، وبهذا صدر الحكم عليه.

والعجب أنّ الوثنيّين عامّة قد شاركوا في تأجيج النار، فقد نقل المفسّرون تفسير القرطبي:١٥/٩٨. أنّ المرأة لتغزل الصوف وتشتري به حطباً، حتى بلغوا بذلك ما أرادوا، ولتلك الغاية بنوا حائطاً من حجارة وملأوها ناراً وألقوه فيها كما قال سبحانه: (قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا) حائطاً من حجارة (فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ)وجاء في بعض الروايات أنّهم لمّا أرادوا إلقاء إبراهيم(عليه السلام) في النار لم يدروا كيف يُلقونه حتى توسّلوا بالمنجنيق فوضعوه فيه ثمّ رموه. بحارالأنوار:١٢/٢٣.

٩٨.(فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ):

الكيد في قوله: (فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا) بمعنى الحيلة والشرّ، وأُريد به هنا احتيالهم بإهلاكه وإحراقه بالنار، ولكن انقلب السحر على الساحر، حيث نجّاه سبحانه من كيدهم وأظهره عليهم، كما قال: (فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ): أي المغلوبين، فإنّ القوم قد زيّنت لهم أنفسهم بكونهم الغالبين وأنّ إبراهيم هو المغلوب فانتهى الأمر إلى خلاف ما كانوا يزعمون، فصار إبراهيم رابحاً والقوم خاسرين كما قال في سورة الأنبياء:(وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ)[١] وكان على القوم في هذه اللحظة الحاسمة ـ حيث صارت النار برداً وسلاماً على إبراهيم ـ أن يتركوا الوثنية ويعترفوا بوحدانية الله وربوبيته ويتّبعوا رسالة نبيه إبراهيم(عليه السلام)، لكنّهم أصرّوا على جهلهم وعنادهم!!

وعند ذلك لم يجد إبراهيم بُدّاً من الهجرة من الأرض التي ولد فيها وترعرع، إلى مكان آخر يتمكّن فيه من عبادة الله تعالى وتأدية رسالته، فهاجر ـ مع ابن أخيه لوط ـ من بابل إلى أرض الخيرات والبركات، أعني أرض فلسطين، قال سبحانه:

٩٩. (وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ):

أي إنّي عازمٌ على الخروج والهجرة إلى سبيل ربّي وهو (سَيَهْدِين)، والظاهر أنّ جملة (سَيَهْدِين)حال من ربّ، ولا منافاة بين كون الجملة حالاً ومصدّرة بالسين الدالّة على الاستقبال، إذ ليس المراد من الحال ضد الاستقبال، بل المراد تبيين حال ذي الحال، قال ابن مالك:

الحال وصف فضلة منتصب *** مفهم في حال كفرداً أذهب

وربّما يظهر من بعض الروايات أنّ الطاغية نمرود أمر بنفي إبراهيم من بلاده وأنّه قال: إنّه إن بقي في بلادكم أفسد دينكم وأضرّ بآلهتكم. الميزان في تفسير القرآن:١٤/٣٠٧، نقلاً عن روضة الكافي.

وهجرة إبراهيم(عليه السلام) تُعدّ أوّل هجرة في سبيل الله للابتعاد عن أجواء الشرك الخانقة، والتمكّن من عبادة الله تعالى وتبليغ ما أُمر به، ولو كان هجرة إبراهيم (عليه السلام)الهجرة الأُولى من بلد الشرك إلى بلد آخر، فهجرة النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) من مكة إلى يثرب هجرة ثانية.

الحال وصف فضلة منتصب *** مفهم في حال كفرداً أذهب

وربّما يظهر من بعض الروايات أنّ الطاغية نمرود أمر بنفي إبراهيم من بلاده وأنّه قال: إنّه إن بقي في بلادكم أفسد دينكم وأضرّ بآلهتكم. الميزان في تفسير القرآن:١٤/٣٠٧، نقلاً عن روضة الكافي.

## الآيات ١٠٠ ـ ١١٣ (رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ... وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ).

الآيات: المئة إلى الثالثة عشرة بعد المئة

(رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلاَمٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاَءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ * سَلاَمٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ * كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ * وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ).

### المفردات

بغلام: الغلام: الصبيّ الذي لم يبلغ الحلم، أي الحدّ الفاصل بين الطفل والشابّ.

حليم: وقور صبور.

السعي: العمل، والمساعدة.

أسلما: استسلم كلّ من الوالد والولد لإنفاذ أمر الله.

تلّه: ألقاه.

للجبين: الجبين: ما عن يمين الجبهة أو شمالها، وللوجه جبينان، الجبهة بينهما. والجبهة: ما بين الحاجبين إلى الناصية.

صدّقتَ الرؤيا: امتثلتَ الأمر الذي أمرناك به فيها.

البلاء: الاختبار.

بذِبح: أي حيوان يُذبح.

باركنا: أفضنا عليه البركات.

### التفسير

هاجر إبراهيم (عليه السلام) من بابل إلى فلسطين وهو فتى كما عبّر القرآن الكريم بقوله: (فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ) الأنبياء:٦٠.

فما ربّما يقال من أنّه هاجر وهو طاعن في السنّ لا يوافق ظاهر الآية، نعم إنّ الله سبحانه رزقه ولدين بارّين وهو على كبر في السن كما قال: (الْحَمْدُ للهِ الذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ) إبراهيم:٣٩..

ولمّا حاول الخروج من الوطن شعر بقلّة أهله، إذ لم يكن له ولد وإنّما خرج مع ابن أخيه لوط (عليه السلام)، وهذا هو السبب الذي جعله يدعو الله تعالى في أثناء الهجرة لأن يرزقه ولداً صالحاً، كما قال:

١٠٠.(رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ):

أي هب لي ولداً صالحاً يؤنسني في الغربة ويعينني في الحياة، فاستجاب الله دعاءه كما قال:

١٠١.(فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلاَمٍ حَلِيمٍ):

ظاهر الآية ـ بحكم وجود الفاء ـ أنّ التبشير كان عقيب دعائه، وأمّا أنّه متى يولد له هذا الولد فالآية غير ظاهرة فيه، فلا بُعد إذاً في أن رزقه الله سبحانه ذلك الولد الحليم في كبر سنّه.

نرى أنّه سبحانه يصف هذا المبشَّر به بالحلم قبل ولادته، ولكنّه في نفس السورة يبشِّر إبراهيم بإسحاق موصوفاً بالنبوة ويقول:(وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ) وقد توسّطت البشارتين قصة الذبح، وهذا يدلّ على أنّ الذبيح غير إسحاق، وإلاّ فلا وجه لأن يبشِّره تارة بقوله:(فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلاَمٍ حَلِيمٍ) وأُخرى بقوله:(وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ)، كلّ ذلك يدلّ على أنّ المبشَّر به الأوّل الذي جاءت بعده قصة الذبح هو غير إسحاق ولم يكن للنبيّ إبراهيم(عليه السلام) غير ولدين.

ولك أن تستدلّ على أنّ الذبيح هو إسماعيل بوجه آخر، وهو:

إنّ الله سبحانه بشَّر إبراهيم إبّان الخروج بقوله: (فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلاَمٍ حَلِيمٍ)فهذه البشارة جاءت حين خروج إبراهيم ومهاجرته، هذا من جانب، ومن جانب آخر ترى أنّ الملائكة الذين أرسلوا إلى إهلاك قوم لوط ونزلوا على إبراهيم، بشّروه بغلام عليم، قال تعالى: (فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلاَ تَأْكُلُونَ * فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لاَ تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ * فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ). الذاريات: ٢٧ ـ ٢٩.

ومن المعلوم أنّ هذه المرأة التي صكّت وجهها متعجّبة هي سارة (الزوجة الأُولى لإبراهيم(عليه السلام)) التي كانت عقيماً لا تلد، ولأجل ذلك تزوّج إبراهيم بزوجة ثانية وهي هاجر حتى يكون ذا ولد.

فالبشارة إذاً، إبّان الهجرة، بولد حليم، غير البشارة بولد عليم عند نزول الملائكة على إبراهيم لإعلامه بإهلاك قوم لوط، وهذا يدلّ على أنّ المبشَّر به عند هجرته غير المبشَّر به عند نزول الملائكة، وبما أنّ الثاني متعيّن في إسحاق (عليه السلام)فصار الأوّل متعيّناً في إسماعيل(عليه السلام).

وهذان الدليلان المستمدّان من القرآن الكريم يغنيان عن سائر الدلائل على كون الذبيح هو إسماعيل. نعم روي في كتب الحديث، القول بأنّ إسحاق هو الذبيح منسوباً إلى عدد من الصحابة، ولكنْ ليس ثمّة من شكّ أنّ الأصل في هذا القول يعود إلى مستسلمة اليهود، وفي مقدّمتهم (كعب الأحبار) الّذي كان هو و (وهب بن منبِّه) أشدّ رواة الإسرائيليات تلبيساً وخداعاً للمسلمين، على حدّ تعبير السيد محمد رشيد رضا أُنظر: أضواء على السنّة المحمدية: ١٧٤ . (تلميذ الشيخ محمد عبده).

وممّا يثير العجب أن يميل بعض العلماء من المفسّرين وغيرهم إلى هذا القول، أو يتبنّاه، مع أنّ الرجوع إلى التوراة نفسها ـ بما حملت من تناقض في عرض قصة الذبح ـ يكشف عن زيف هذا القول، بل فضيحة تلك الأيدي الأثيمة الّتي امتدّت إلى التوراة (الّتي أُنزلت على موسى (عليه السلام))، فعبثت بها، وحرّفت الكلم عن مواضعه.

تقول التوراة (المتداولة): (وكان بعد هذه الأحداث أنّ الله امتحن إبراهيم، فقال له: يا إبراهيم، قال: ها أنذا، قال: خذ ابنك وحيدك الّذي تحبه إسحاق، وامضِ به إلى أرض الموريّا وأصعده هناك مُحرَقَةً على أحد الجبال الّذي أُريك...) سِفر التكوين، الإصحاح (٢٢)..

ولست أدري كيف يكون إسحاق الابن الوحيد لإبراهيم، مع أنّ التوراة تقول: (وكان أبْرام [ يعني إبراهيم ] ابن ست وثمانين سنة حين ولدت هاجر إسماعيل لأَبرام) سِفر التكوين، الإصحاح (١٦).، وتقول أيضاً: (وكان إبراهيم ابن مئة سنة حين ولد له إسحاق ابنه) سِفر التكوين، الإصحاح (٢١) .؟!!

فإسماعيل إذاً ـ حسب التوراة ـ كان قد وُلد قبل إسحاق بأربعة عشر عاماً، وهذا يعني أنّ الذبيح هو إسماعيل (عليه السلام)، لأنّه كان الابن الوحيد لأبيه (عليه السلام)قبل مولد أخيه إسحاق (عليه السلام).

ابتلاء إبراهيم(عليه السلام) الثاني

إنّ الله سبحانه امتحن إبراهيم الخليل(عليه السلام) مرّة بعد أُخرى، فكان ابتلاؤه الأوّل هو استعداده للبلاء بعد أن دمّر الوثنية وكسّر أصنامهم، فالله سبحانه نجّاه من كيد المشركين.

وهناك محنة أُخرى وابتلاء ثان، وهو أنّه يؤمر بذبح ولده إسماعيل كما تذكر ذلك الآية التالية.

١٠٢. (فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا ترى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ):

استجاب الله تعالى دعاء نبيه إبراهيم ووهب له ولداً، (فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ) أي بلغ أن يسعى مع أبيه ويمشي معه ويساعده في شؤونه، عندئذ (قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ) فالآية تدلّ على أنّ إبراهيم(عليه السلام) فهم من منامه أنّه أُمر بالذبح، من حيث إنّ منامات الأنبياء لا تكون إلاّ صحيحة، ولو لم يأمره به في اليقظة لمّا جاز أن يعمل على المنامات، التبيان في تفسير القرآن: ٨ / ٥١٦ ـ ٥١٧ . فكانت الصورة العملية للذبح في المنام إشارة إلى القيام بالذبح حتى يتحقّق ما رآه في المنام في الخارج، ولذلك طلب من ابنه إبداء رأيه في ذلك قائلاً:(فَانْظُرْ مَاذَا تَرى): أي فكّرْ فيما قلت، وعيّنْ ما هو رأيك فيه؟ فجاء الرد سريعاً قائلاً (قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ) ولم يقل: يا أبت اذبحني، إشارة إلى أنّه مسلّم لكلّ ما أُمر به أبوه، سواء أكان ذبحاً أم غيره (سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ) وهو نوع تطييب منه لنفس أبيه، ووعدٌ منه بأنّه لا يجزع فيثير عواطف أبيه. وبهذا تمّت الخطوات الأُولى لتنفيذ الأمر الإلهي بذبح إسماعيل بيد والده الخليل، وهذه لحظة حاسمة قطعاً، إذ قلّما يتّفق لإنسان مهما بلغ من الفضل والكمال أن يقوم بهذا الأمر بشجاعة وحماسة.

ثم قلّما يتّفق لولد مهما بلغ من الصبر والحزم أن يسلّم نفسه للذبح عن إيمان ورباطة جأش، ولكن شاء الله سبحانه أن ينال خليله إبراهيم(عليه السلام)هذه الكرامة وأن يتقلّد ولده الحليم إسماعيل وسام الاستسلام التامّ لأمر الله تعالى، عن بصيرة وعن رضىً وطمأنينة.

١٠٣. (فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ):

أي لما خرج الوالد والولد إلى مِنى مستسلمَين إلى أمر الله سبحانه، فعندئذ ( وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ): أي ألقاه على الأرض ووضع جبينه على التراب وأراد أن يذبحه، فعندئذ وافاه الخطاب:

١٠٤ و ١٠٥. (وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ):

أي في تلك اللحظة الحسّاسة التي أخذ فيها الأب السكّين ليذبح بها ولده، وافاه الخطاب كما قال:(وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ) وأمّا ما هو المنادى به بقوله: (قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا)؟ فالظاهر أنّه عبارة عمّا قام به من تهيئة المقدّمات والعزم على تنفيذ ما رآه في المنام،

وبذلك حقّق الرؤيا وصار ما قام به من المقدّمات مصداقاً لما رأى.

ثم إنّه سبحانه عقّب على تصديقه رؤياه بقوله:(إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) والظاهر أنّ (كَذلِك) إشارة إلى قصة الذبح بما أنّه محنة شاقّة وابتلاء شديد، وعلى هذا فيكون معنى هذه الفقرة: على هذه الوتيرة نمتحن المؤمنين المحسنين امتحاناً شاقّاً صورةً، هيّناً معنىً، فإذا أتمّوا الابتلاء جزيناهم أحسن الجزاء.

فالآية تدلّ على أنّ جزاء المحسنين يكون غبَّ ابتلائهم وامتحانهم الذي به يظهر ما يكنّون من صفات عالية وروحيات فائقة أمام أمره سبحانه وطاعته، فلا شيء في قلوبهم إلاّ الله. والذي يدلّ على ما ذكرنا قوله في الآية التالية:

١٠٦. (إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ):

أي إنّ هذا الّذي كان لهو ابتلاء وامتحان بيّن يتميّز فيه المخلص عن المدّعي، بعد ابتلاء آخر.

وهنا سؤال: وهو أنّه سبحانه هو العالم بالسرائر والخفيّات، فلماذا يختبر خليله إبراهيم(عليه السلام)بذبح ولده إسماعيل مع علمه بأنّه سيقوم بما يأمره به؟ فما هو السرّ في هذا الاختبار؟

والجواب: أنّه سبحانه ـ كما قلنا ـ يعلم السرّ وأخفى، ولكنّه يختبر عباده ويمتحنهم بالخير والشرّ وبالسرّاء والضرّاء، حتّى تظهر حقيقتهم، وتنكشف مكنونات قلوبهم، وتظهر أعمالهم الّتي يستحقّون بها الجزاء في يوم التلاق، وهنا نجد ـ مثلاً ـ أنّ إبراهيم (عليه السلام)كان مشتملاً على هذا الكمال أي إيثار كلّ شيء حتى ولده في جنب الله تبارك وتعالى، بَيْد أنّ الكمال كان غير ظاهر للعيان، بل كامناً في وجوده (أي بالقوّة) فأراد سبحانه بالاختبار أن يُخرج ما بالقوّة إلى عالَم الفعلية، ولذلك أمره بذبح ولده.

وفي كلام أمير المؤمنين(عليه السلام) إشارة إلى ذلك، قال في تفسير قوله تعالى:(وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ) الأنفال: ٢٨ . مَعْنَى ذلِكَ أَنَّهُ يَخْتَبِرُهُمْ بِالاْمْوَالِ وَالاْوْلاَدِ لِيَتَبَيَّنَ السَّاخِطَ لِرِزْقِهِ، وَ الرَّاضِيَ بِقِسْمِهِ، وَإِنْ كَانَ سُبْحانَهُ أَعْلَمَ بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَلكِنْ لِتَظْهَرَ الاْفْعَالُ الَّتي بِهَا يُسْتَحَقُّ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ. نهج البلاغة: الكلمات القصار، برقم ٩٣.

وبذلك يظهر أنّ أمره سبحانه كان أمراً اختبارياً لا جدّياً وقد تعلّق أمره سبحانه بمقدّمات الذبح لا بنفسه، ولذلك لمّا قام إبراهيم(عليه السلام) بتهيئة المقدّمات وافاه الوحي: (أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا)، ولم يكن المقام من مقولة النسخ حتى يقال: إنّ النسخ قبل حضور وقت العمل غير جائز، والتفصيل في محلّه.

ثمّ إنّ قوله سبحانه:(إنّ هذا لَهُوَ البَلاءُ المُبين) إشارة إلى إحدى الكلمات التي ابتُلي بها إبراهيم (عليه السلام)حتّى خرج منها مرفوع الرأس مقبولاً عند الله ومن ثمّ أُفيض عليه مقام الإمامة وقيادة الناس ؛ وهناك كلمات أُخرى ابتُلي بها أيضاً كما قال سبحانه:(وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَات فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا) البقرة:١٢٤. فصار أباً للأنبياء وأباً للأئمّة.

١٠٧. (وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْح عَظِيم):

أي فدينا ابنه بكبش عظيم، ولعلّ عظمته لأجل كونه من الله سبحانه.

١٠٨. (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ):

أي أبقينا عليه ثناءً جميلاً وذكراً حسناً بين أتباع الملل كلها، وكان (عليه السلام)قد سأل ذلك بقوله: (وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْق فِي الاْخِرِينَ) الشعراء: ٨٤ .، فأجاب الله تعالى دعاءه .

١٠٩. (سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ):

وهذه تحية منه سبحانه على إبراهيم (عليه السلام).

١١٠. (كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ):

قيل: ذلك إشارة إلى إبقاء ذكره الجميل فيما بين الأُمم، لا إلى ما يشير إليه فيما سبق، فلا تكرار.

وفي «الكشّاف»: لماذا قيل ها هنا (كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) وفي غيرها من القصص (إِنَّا كَذَلِكَ)؟ وقد أجاب بقوله: قد سبقه في هذه القصة (إِنَّا كَذَلِكَ) فكأنّما استخفّ بطرحه اكتفاءً بذكره مرّة من ذكره ثانياً. تفسير الكشّاف: ٣ / ٦١٠ .

١١١.(إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ):

لمّا وصف سبحانه كون إبراهيم (عليه السلام)من المحسنين، علّله بأنّه كان (مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ): أي عبداً حقيقياً بتمام معنى الكلمة، لا يريد ولا يطلب إلاّ ما يريده الله تعالى.

إلى هنا أتمّ سبحانه على إبراهيم نعمتين:

الأُولى: أنّه فدى ذبح ولده بذبح عظيم.

الثانية: أبقى له ثناءً حسناً وذكراً جميلاً بين أتباع الأُمم.

أمّا النعمة الثالثة، فهي ما أشار إليها في الآية التالية:

١١٢. (وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ):

ولعلّ في الآية بشارتين:

أ. أنّه سبحانه يرزقه ولداً صالحاً.

ب. أنّه يكون من الأنبياء.

فيكون مجموع النعم أربعة:

١١٣. (وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ).

الضمير في (عَلَيْهِ) يرجع إلى إبراهيم(عليه السلام) فقوله: (وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ): أي جعلنا الخير و البركة على إبراهيم وولده إسحاق، ولعلّ المراد كثرة الأولاد.

ثمّ إنّه سبحانه يشير إلى سنّة إلهية، وهي أنّ الانتساب إلى البيوت الصالحة لا يُعدّ فضيلة إلاّ إذا سلك الشخص طريق الآباء، ولذلك يقسّم ذرية إبراهيم وإسحاق إلى قسمين ويقول:(وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ)،أي فمنهم من بقي على خطّ التوحيد، ومنهم من انحرف عنه، فإنّ مشركي العرب كانوا من ذرية إبراهيم، كما أنّ اليهود من ذرية إسحاق، وقد كفر هؤلاء بالمسيح وأُولئك بمحمد (صلى الله عليه وآله وسلم).

والحاصل أنّ أمر الفضل والفضيلة يرجع إلى الاعتقاد الصحيح والعمل الصالح، وليس للعِرق والعنصر تأثير في ذلك إلاّ إذا اقترن بالعقيدة السليمة والعمل النافع.

وبذلك يعلم أنّ الدعوة إلى العنصرية التي ينادي بها جماعة في الغرب والشرق، دعوة مرفوضة وهي مأخوذة من اليهود والنصارى حيث يحكي عنهم الله سبحانه قولهم:(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ) المائدة:١٨، وهذه الدعوة المقيتة رفضها الإسلام منذ اليوم الأوّل لبعثة

الرسول الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) حيث إنّه خاطب بني هاشم بقوله: «لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم». روح البيان:٧/٤٧٩.

وقد تبنّى الاستعمار الغربي الكافر مبدأ العنصرية ليضرب المسلمين بعضهم ببعض حتى يقوّض وحدتهم وذلك بالتركيز على اختلافهم العرقي، فروّجوا في البلاد العربية وفي غيرها مبدأ العروبة بعناصر خاصّة بكلّ بلد حتى ينفصم بها حبل الوحدة الذي

أُمروا بالتمسّك به.

## قصة موسى وهارون(عليهما السلام)

الآيات ١١٤ ـ ١٢٢ (وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ... إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ).

الآيات: الرابعة عشرة بعد المئة إلى الثانية والعشرين بعد المئة

(وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ * وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ * وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ * وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الآخِرِينَ *سَلاَمٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ).

### المفردات

مننّا: المِنّة: النعمة الثقيلة يقال: مَنّ فلان على فلان إذا أثقله بالنعمة، ومنه قوله سبحانه:(لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ)( آل عمران:١٦٤). والمنّ: القطع، كما في قوله سبحانه:(فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ)، التين:٦. أي غير مقطوع.

النصر: المعونة، يستعمل في المعونة على الأعداء.

المستبين: القويّ الوضوح، يقال: استبان الشيء إذا ظهر ظهوراً شديداً.

الصراط المستقيم: أُريد هنا: الدين الحق.

### التفسير

هذه قصة ثالثة ذكرها سبحانه للمناسبة التي ألمحنا إليها في قصة نوح(عليه السلام)، وهؤلاء الثلاثة هم أصحاب الشرائع بخلاف ما سيأتي من قصة إلياس، ويونس، حيث كانا من أنبياء الله تعالى ولكن لا بشريعة مستقلّة بل هما على شريعة موسى(عليه السلام)، كما سيوافيك.

بدأ سبحانه هذه القصة بقوله:

١١٤.(وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ):

لم يُذكر الممنون به ليذهب ذهن السامع إلى أي مذهب شاء أو إلى نعمة كبرى، ولعلّ المراد هو النبوّة التي أنعم الله بها عليهما، لكن أنعم بها على موسى لا بسؤال وعلى هارون بسؤال من موسى، ولا نعمة أكبر من نعمة النبوّة. ويحتمل أن تكون أوسع من النبوة بشهادة الآيات التالية الّتي أشارت إلى رؤوس النعم كالتنجية والنصر وإيتاء الكتاب وغير ذلك.

١١٥.(وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ):

تحكي الآية عن نجاتهما ونجاة قومهما وتقول:(وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ): أي الغمّ الشديد، الناتج عن تسلّط الفراعنة عليهم واستعبادهم إيّاهم، واضطهادهم بقتل الأبناء، واستحياء النساء.

١١٦. (وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ):

كان بنو إسرائيل يعيشون حياة الذلّ والهوان في ظل سلطة الفراعنة، عبر سنين طويلة ولكن الله سبحانه أنعم عليهم بالنصر بما مكّن لهم من الخروج من مصر عن طريق البحر بمعجزة إلهية، وإغراق أعدائهم، فرعون وجنوده.

١١٧. (وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ):

ضمير التثنية يرجع إلى موسى وهارون(عليهما السلام)، ومع أنّ التوراة نزلت على موسى لا على هارون، ولكن لمّا كان وزيراً لموسى ونبيّاً مثله ومبيّناً لشريعته، صحّ إسناد الإيتاء إليهما. والمراد بالكتاب المستبين هو التوراة، واللفظ يحكي عن مكانة سامية

لهذا الكتاب، يكشف عنها أيضاً قوله تعالى: (وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ) الأعراف:١٤٥.. ولكنّ اليهود خالفوا التوراة ونبذوا أحكامها التي لا تتّفق مع مصالحهم الخاصّة الضيّقة وحرّفوا كلمها عن مواضعه وانتقوا منها ما لا يتعارض ورغباتهم، ولذا ندّد سبحانه بهم وقال: (أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ) البقرة:٨٥، وعلى هذا فوصف التوراة بالكتاب المستبين ناظر إلى ما قبل التحريف، كما أنّ قوله: (إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ) المائدة:٤٤.يرجع إلى ذلك الكتاب قبل أن تمسّه يد التحريف.

١١٨. (وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ):

أي أرشدهما الله سبحانه إلى الدين الحقّ عقيدة وعملاً.

١١٩. (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الآخِرِينَ):

أي أبقينا لهما من بعدهما ثناءً جميلاً وذكراً حسناً في أتباع الأُمم اللاحقة، كسائر الأنبياء.

١٢٠. (سَلاَمٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ):

أي سلام من الله عليهما. ولا شكّ في أنّهما استحقّا هذه التحية المباركة منه سبحانه، لِما قاما به من عمل جبّار في الدعوة إلى الله، ولِما عانياه من محن وشدائد في سبيله.

١٢١. (إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ):

هو تعليل لِما أفاض عليهما تعالى من عطاياه، وأغدق عليهما من نِعمه.

١٢٢.(إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ):

قد مرّ أنّه تعليل لكونهما من المحسنين ، لأنّهما ممّن آمن بالله إيماناً صحيحاً، واستقام على خط الإيمان في الشدّة والرخاء.

وقد أوجز سبحانه في المقام قصة موسى وهارون اعتماداً على ما جاء فيها من تفصيل في السور المختلفة وخصوصاً سورتي: طه، والقصص.

## قصة إلياس(عليه السلام)

الآيات ١٢٣ ـ ١٣٢ (وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ... إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ)

الآيات: الثالثة والعشرون بعد المئة إلى الثانية والثلاثين بعد المئة

(وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلاَ تَتَّقُونَ * أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ * اللهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * إِلاَّ عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ * سَلاَمٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ *إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ):

### المفردات

أتدعون: أي تعبدون.

بعلاً: اسم صنم قوم إلياس.

تذَرون: تتركون.

لَمُحضَرون: أي محشورون للجزاء.

المخلَصين: الذين خلت قلوبهم عن التعلّق بغير الله تعالى.

### التفسير

هذه هي القصة الرابعة من قصص الأنبياء، وهي تدور حول دعوة النبيّ إلياس (عليه السلام)وهو من ذرية إبراهيم الخليل. وجاء في قاموس الكتاب المقدّس: أنّ إلياس معرّب «إيليا» في العبرية. وكان (عليه السلام) يدعو قومه إلى عقيدة التوحيد ونبذ الشرك المتمثّل بعبادة بعل، حيث ابتلي قومه الذين كانوا من بني إسرائيل بعبادة بعل في منطقة بعلبك ولعلّ اللفظ مركّب من «بعل»: اسم الصنم «بك» اسم البلد و«بعلبك» اليوم جزء من بلد لبنان، ولعلّ إلياس بعث في تلك المنطقة، بسبب مصاهرة بعض ملوك بني إسرائيل للكنعانيّين، ولذلك قام إلياس بدعوتهم إلى التوحيد الذي جاء به بطل التوحيد بعد إبراهيم ـ أعني: نبيّهم موسى(عليه السلام)ـ وهذا ما يحكيه سبحانه في الآيات التالية:

١٢٣. (وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ):

تدلّ الآية على أنّه كان مرسلاً من الله سبحانه ومبلّغاً عنه، لا مرسلاً من جانب أنبياء الله كما كانت الحال كذلك على قول بعضهم في الرسل الثلاثة الذين مرّت قصتهم في سورة «يس».

١٢٤. (إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلاَ تَتَّقُونَ):

الاستفهام في قوله: (أَلاَ تَتَّقُونَ) غرضه الإنكار، والمعنى: ألا تخافون بأس الله وعذابه فتوحّدونه؟

١٢٥ و ١٢٦ . (أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ * اللهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ):

قوله تعالى : (أَتَدْعُونَ بَعْلاً): أي أتعبدون صنماً باسم (بعل) (وَتَذَرُونَ)تتركون عبادة (أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ)؟

لقد أراد (عليه السلام)بكلامه هذا أن يستثير عقولهم ويفتح عيونهم على قضية هامّة وواضحة وهي أنّ المستحق للعبادة هو من بيده زمام الخلق والتدبير، والله تعالى وحده هو مَن يملك هذين الأمرين، فهو أحسن الخالقين، وهو الربّ المدبّر لأمر الخلق أجمعين.

ويظهر أنّهم اعتذروا عن قبول دعوة نبيهم بأنّهم يتّبعون طريقة آبائهم ويمشون على آثارهم، ولذا أجابهم بقوله: (اللهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ) .

وربّما يُسأل: لماذا لم يقل «تَدْعون بعلاً وتَدَعون أحسن الخالقين»، مع أنّ في التعبير الثاني من الجناس الذي هو من المحسِّنات البديعية.

وأُجيب عن ذلك بأنّ الجناس من المحسِّنات إنّما يناسب إذا كان المتكلّم في مقام الرضا لا في مقام الغضب والتهويل، فإنّ إلياس كان في مقام التهويل والتوبيخ، وأمّا الجناس فيناسب المقام الّذي يكون فيه المتكلّم فرحاً بشوشاً لا غاضباً.

وقيلت وجوه أُخرى، ولكن الأَولى أن يقال: إنّ الجناس إنّما يناسب إذا لم يحصل هناك التباس، فإنّ القارئ في بدء الأمر ربّما يقرأ الفعلين على نمط واحد، وإنّما ينتقل إلى الصحيح بعد التأمّل، وهذا ما لا يناسب مقام البلاغة.

١٢٧ و ١٢٨. (فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * إِلاَّ عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ):

قوله: (فَكَذَّبُوهُ): أي أنّه لم يستجب لدعوته من قومه إلاّ القليل، في حين أصرّ أكثرهم على الشرك والتكذيب ولم يكترثوا لأقواله ونصائحه، الأمر الذي عرّضهم لسخط العزيز الجبار ووعيده، كما يقول: (فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ): أي مبعوثون ليمثلوا أمام محكمة الله تعالى لينالوا جزاءهم العادل على سوء أقوالهم وأفعالهم.

وقد مضى الكلام حول قوله: (إِلاَّ عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ) في الآية (٤٠)، وقلنا: إنّه إمّا استثناء إذا صحّ الاستثناء كما في المقام، حيث أمكن استثناؤه من قومه، أو هو استدراك بصورة الاستثناء إذا لم يصحّ الاستثناء.

١٢٩.(وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ):

أي أبقينا عليه ثناءً جميلاً في أتباع الأُمم اللاحقة.

١٣٠. (سَلاَمٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ):

اختلفت كلمات المفسّرين في تفسير الآية وذكروا وجوهاً كثيرة تخالف سياق الآيات المتقدّمة، كما سنذكر، وقد ذكر الطبرسي تلك الوجوه، ومنها:

١.هو إدريس، عن ابن مسعود وقتادة.

٢. هو من أنبياء بني إسرائيل من ولد هارون بن عمران ابن عم اليسع، عن ابن عباس.

٣. هو الخضر صاحب الجزائر.

وكلّ ما ذُكر يخالف سياق سائر الآيات، فإنّ التسليم ورد في هذه السورة في حقّ سائر الأنبياء وأُريد به نوح وإبراهيم وموسى وهارون، فلابدّ أن يكون المسلَّم عليه بصورة «إلْ ياسين» هو نفس النبيّ الّذي جاء ذكره في القصة باسم «إ لياس».

نعم اختلفت كتابته هنا مع ما في السابق، إذ جاء في الآية ١٢٣ (إ لياس) وفي آيتنا هذه بالشكل التالي:(إلْ ياسِيَن) فلابدّ أن يكون للاختلاف وجه. وفي «الكشّاف»: وقرئ على إلياسين وإدريسين وإدارسين على أنّها لغات في إلياس وإدريس، ولعلّ لزيادة الياء والنون في السريانية معنى. تفسير الكشّاف: ٢ / ٦١١ .

هذا على قراءة الفصل، وقرئ بالوصل (إلياسين) على أنّه جمع يراد به إلياس وقومه، كما يقال: المهلّبون، أي المهلَّب وقومه. ثمّ إنّه ضعف هذا الوجه بأنّه لو كان جمعاً لعرّف بالألف واللام. انظر: تفسير الكشّاف: ٣/٣١٠.

وعلى كلّ تقدير فقد وصفه سبحانه في آية أُخرى وقال: (وَزَكَرِيّا ويَحْيى وَعِيسى وَإِلْياس كُلٌّ مِنَ الصّالِحِين). الأنعام:٨.

نعم ورد في بعض الروايات قراءة «على آل ياسين» و حمله في «الكشاف» على أنّ «ياسين» اسم أب إلياس، أُضيف إليه الآل.

وفي روايات أئمّة أهل البيت(عليهم السلام) عن الصادق(عليه السلام) عن أبيه عن آبائه(عليهم السلام)في قوله: (سَلام على آل ياسين): يس محمد، ونحن آل ياسين. تفسير نور الثقلين:٤/٤٣٢.

لكنّه تفسير بالباطن، فلا يخالف ما ذكرناه.

١٣١ و ١٣٢. (إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ *إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ):

تقدّم تفسير أمثال هاتين الآيتين.

| |
|---|
| قصة لوط(عليه السلام) |
| الآيات ١٣٣ ـ ١٣٨ (وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ... وَبِاللَّيْلِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ). |
| الآيات: الثالثة والثلاثون بعد المئة إلى الثامنة والثلاثين بعد المئة |
| (وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ * ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ * وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ). |
| المفردات |
| الغابرين: الغابر: الماكث بعد مضيّ ما هو معه.<br>دمّرنا: أهلكنا.<br>مصبحين: حين الصباح.<br>أفلا تعقلون: أفلا تتفكّرون. |

التفسير

كان لوط (وهو ابن أخي إبراهيم(عليه السلام)) قد آمن بدعوة إبراهيم الخليل الذي بعث في أرض بابل في العراق، ثم رافقه في هجرته إلى الأرض المباركة فلسطين، قال تعالى: (فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) العنكبوت:٢٦..

ولكن لوطاً (عليه السلام) استقرّ في بلاد الأردن وأقام في إحدى مدنها التي تسمّى «سدوم»، قال المسعودي: وأرسل الله لوطاً إلى سدوم وقراها الخمس وهي: صبغة، وعمرة، وإدماء، وصبوغ، وبالع. لاحظ: كتاب الأنبياء حياتهم وقصصهم:١٥٨.

يُشار إلى أنّ القرآن المجيد عبّر عن قرى قوم لوط تارة بالمؤتفكات، التوبة:٧٠.وأُخرى بالمؤتفكة. النجم:٥٣.

وقد أوجز سبحانه هنا قصة لوط، ولكنّها وردت بتفصيل في سور أُخرى كالشعراء، وهود، والحِجر.

وبعد هذا الإيضاح، نشرع الآن في تفسير ما ورد في المقام:

١٣٣. (وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ):

الآية تحكي أنّه كان من الأنبياء الذين أرسلهم الله تعالى إلى طائفة من الناس لهدايتهم في مجالَي العقيدة والسلوك.

١٣٤. (إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ):

لمّا أتمّ لوط الحجّة على قومه، وتمادَوا في عنادهم وفسادهم، دعا (عليه السلام)ربَّه، قائلاً: (رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ) العنكبوت: ٣٠ .، وعندئذ قضت مشيئته سبحانه باستئصالهم، وقد تعلّقت سنّته تعالى بإنجاء المؤمنين من العذاب النازل كما قال: (إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ) وبما أنّ عنوان الأهل يشمل الزوجة، وكانت زوجته كزوجة نوح غير مؤمنة به، قد شملها عذاب الله كما قال:

١٣٥. (إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ):

فإنّها هلكت مع الماكثين المتخلّفين في القرية ولم يخرجوا مع لوط (عليه السلام).

١٣٦. (ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ):

بقلب القرية أسفلها أعلاها، كما يقول: (فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا) الحجر:٧٤..

١٣٧ و ١٣٨. (وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ):

ثمّ إنّه سبحانه أخذ يخاطب مشركي مكّة ويعنّفهم على غفلتهم وعدم اعتبارهم بما حلّ بهؤلاء القوم، الّذين تمرّون على ديارهم وقت الصباح تارة وفي الليل أُخرى عند الذهاب إلى الشام للتجارة، كما قال: (وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ): أي على ديارهم الّتي غدت خراباً (مُصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ).

وختم سبحانه الآية بقوله: (أَفَلاَ تَعْقِلُونَ): أي أفلا تتفكّرون في ما نزل بهم من عذاب بسبب عصيانهم وطغيانهم إذ في قصتهم ومصيرهم عبرة لكم...

وفي آية أُخرى يشير إلى العبرة من رؤية آثار ديارهم، قال تعالى:(إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ) الحجر:٧٥..

## قصة يونس(عليه السلام)

الآيات ١٣٩ ـ ١٤٨ (وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ... فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ).

(وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ * فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ * فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ * وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ).

| المفردات |
|---|
| أبق: هرب، والآبق هو العبد الهارب من سيّده، وقد عبّر عن هجرة يونس بلا إذن ربِّه بالإباق. |
| المشحون: المملوء. |
| ساهَم: قارع، أي عمل القُرعة. |
| المدحَضين: المغلوبين. |
| التقَمَه: ابتلَعه. |
| مُليم: المرتكب عملاً يستحقّ اللوم عليه. |
| بالعراء: العراء: الأرض الخالية من النبات. |
| يقطين: اليقطين: نوع من الخضروات، ينتج ثمرة مستديرة أو بيضيّة، ويسمّى أيضاً (القرع العسلي)، وهو مغذٍّ جداً. ولنبات اليقطين أوراق كبيرة مشوّكة، وهو ينمو على شكل (كرمة) أو (شجيرات) الموسوعة العربية العالمية: ٢٧ / ٣٢١.. |

| التفسير |
|---|
| ورد اسم يونس في القرآن الكريم أربع مرات، والظاهر أنّه من بني إسرائيل وقد جاء ذكره في العهد القديم باسم «يونان بن اَمتاي». جاء في سفر يونان من العهد القديم، قول يونان: أنا عبراني، وإنّي أتّقي الرب إله السموات.و في الإنجيل باسم (يونان) فقط. انظر: إنجيل متّى، الفقرة ١٢ و ١٦، و إنجيل لوقا، الفقرة١١. |
| لم يتعرّض القرآن الكريم إلاّ لطرف من قصة يونس وقصة قومه، فقد تعرّض في سورتنا هذه ـ الصافات ـ إلى إرساله ثم إباقه وركوبه الفلك، والتقام الحوت له، ثم نجاته منها، وإرساله إلى القوم وهدايتهم بدعوته. |
| وفي سورة الأنبياء تعرّض القرآن الكريم إلى تسبيحه في بطن الحوت ونجاته منها. الأنبياء: ٨٧ ـ ٨٨ . |
| وفي سورة القلم تعرّض لندائه المكظوم وخروجه من بطن الحوت واجتبائه. القلم: ٤٨ ـ ٥٠ . |
| وفي سورة يونس تعرّض لإيمان قومه وكشف العذاب عنهم. يونس: ٩٨ . |
| إذا عرفت ذلك، فلنشرع في تفسير آيات سورتنا. |
| ١٣٩. (وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ): |
| تدلّ الآية على أنّ يونس من المرسلين من جانب الله تعالى. ويذكر المؤرّخون أنّه أُرسل إلى أهل نينوى من أرض الموصل في العراق، يقول ابن عاشور: وكانت نينوى مدينة عظيمة من بلاد الآشوريّين وكان بها أسرى بني إسرائيل الذين بأيدي الآشوريين وكانوا زهاء مئة ألف بقَوا بعد (دانيال). وكان يونس في أوّل القرن الثامن قبل المسيح. التحرير والتنوير:٢٣/٨٢. |
| ثمّ إنّه(عليه السلام) قد دعا قومه إلى عبادة الله ونبذ الشرك فلم يجيبوا إلاّ بالتكذيب والردّ، فضاق صدره بهم وأوعدهم حلول العذاب بهم. |
| ومن المعلوم أنّه قد أُوحي إليه بنزول العذاب عليهم، ولا يصحّ لنبي أن يوعدهم وعيداً قطعيّاً دون أن يوحى إليه. |
| ولمّا اطمأنّ بحلول العذاب عليهم خرج من بينهم بدون إذن من ربِّه، فلمّا رأى القوم أمارات العذاب ندموا وأظهروا الإيمان والتوبة إلى الله، فكشف الله عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا. ويظهر ممّا رواه جميل بن درّاج عن الإمام الصادق(عليه السلام) أنّه كان بينهم عالم أرشدهم إلى طريقة التوبة، وذلك أنّ العالم قال لهم: افزعوا إلى الله فلعلّه يرحمكم، ويردّ العذاب عنكم، فاخرُجوا إلى المفازة، وفرّقوا بين النساء والأولاد، وبين سائر الحيوانات وأولادها، ثم ابكوا وادعوا، ففعلوا، فصرف عنهم |

العذاب، وكان قد نزل بهم وقرُب منهم. انظر: تفسير القمي: ١ / ٣١٨ ؛ مجمع البيان: ٣ / ١٣٥ .

وأمّا يونس:

١٤٠. (إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ):

أي أنّ يونس قد ترك قومه لما به من الغضب والسخط عليهم، وكان ظاهر حاله حال من يأبق من ربّه ويهرب من سيّده، ظانّاً أنّه لا يضيِّق عليه الربّ، وسار حتى وصل إلى ساحل البحر فوجد سفينة مملوءة بركابّها فركب فيها.

١٤١.(فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ):

وبعد أن جرت السفينة أشرفت على الغرق، فرأى ركابّها أن يلقوا واحداً منهم، ليخفّ وزنها وتنجو من الغرق، فتقارعوا فخرجت القرعة على يونس، ولذلك يقول: (فَساهَمَ): أي شارك في القرعة(فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ): أي من المغلوبين. وهذا يدلّ على وجود القرعة بين الأُمم السابقة وقد أمضاها الإسلام .

وقد روي عن الإمام الصادق(عليه السلام) أنّه قال: «أيّ قضية أعدل من القرعة إذا فوّض الأمر إلى الله عزّ وجلّ يقول: (فَساهَمَ فَكَانَ مِنَ المُدحَضِينَ)». الوسائل:١٨، الباب١٣ من أبواب كيفية الحكم، الحديث٢٢.

١٤٢. (فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ):

ألقى يونس نفسه في البحر (فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ): أي ابتلعه (وَهُوَ مُلِيمٌ): أي فاعل ما يستحقّ عليه اللوم من مفارقة قومه بدون إذن ربّه.

ثمّ إنّ النبيّ يونس لمّا شعر (وهو في بطن الحوت) بأنّ خروجه بدون إذن ربّه كان أمراً غير لائق بمقام النبوّة، أخذ يلهج بالتسبيح بعد التهليل، وقد حكى سبحانه تسبيحه في سورة الأنبياء، وقال:(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) الأنبياء:٨٧..

وقد قدّم التهليل على التسبيح ليكون العلّة لتسبيحه، فإذا لم يكن إله غير الله فهو اللائق بتنزيهه عن كلّ ما لا يليق بساحته.

وكأنّه يقول: إنّ عملي هذا ـ أي خروجي من أرض قومي بلا إذنك ـ خطأ لا يناسب ساحة العبد بالنسبة إلى ربّه.

ثمّ إنّه سبحانه قَبِلَ توبته كما يقول:

١٤٣ و ١٤٤. (فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ):

ومعنى ذلك أنّه لولا تسبيحه في بطن الحوت لبقي فيه إلى اليوم الذي تُحشر فيه الخلائق.

إنّما الكلام فيمَ هو المراد ببقائه في بطن الحوت إلى يوم البعث؟ فأكثر المفسّرين على أنّه يبقى فيه ميّتاً ويبقى بطن الحوت قبراً يقبر فيه إلى يوم القيامة.

يقول السيد الطباطبائي: وبذلك يظهر أنّ المراد بقوله:(لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)تأبيد مكثه في بطنه إلى أن يبعث فيخرج منه كالقبر الذي يقبر فيه الإنسان ويلبث فيه حتى يبعث فيخرج منه، قال تعالى: (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرى) طه:٥٥.. الميزان في تفسير القرآن:١٦٥/١٧.

ويمكن أن يقال إنّ المراد، هو بقاؤه في بطن الحوت حيّاً إلى يوم القيامة، جزاءً لفعله غير اللائق بمقام النبوّة، وإلاّ فبقاؤه ميّتاً في بطن الحوت لا يكون جزاءً وعذاباً إذ يُصبح بطن الحوت كالأرض ولا فرق بين بقاء الإنسان الميّت في بطن الحوت أو في مكان من الأرض.

ثمّ إنّهم اختلفوا في مدّة لبثه في بطن الحوت، فقيل كانت ثلاثة أيام، وقيل سبعة، وقيل عشرين يوماً، وقيل أربعين يوماً مجمع

البيان:٨/٢٦٦، ولكن المرويّ عن أئمّة أهل البيت(عليهم السلام) أنّه بقي تسع ساعات. تفسير نور الثقلين:٤/٤٤٦.

١٤٥. (فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ):

شاء سبحانه أن يكتب ليونس النجاة، فرمى به الحوت من جوفه على وجه أرض خالية من النبات وهو مريض، لكن المنعم جلّ شأنه تولاّه بعنايته وخصّه برعايته، كما قال:

١٤٦. (وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ):

قد مرّ أنّ نبات اليقطين ينمو أيضاً على شكل شجيرات، وأنّ له أوراقاً كبيرة، وثماراً مغذّية، ولذا أنبت سبحانه حواليه هذا النوع من الخضروات، ليستظلّ به من وهج الشمس، ويمكن أيضاً أن يأكل من ثماره النافعة جدّاً.

ثم قضت إرادته سبحانه بإرساله إلى قومه لنشر التوحيد كما يقول:

١٤٧.(وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْف أَوْ يَزِيدُونَ):

المعروف بين المفسّرين أنّه سبحانه أمر يونس (عليه السلام) بالعودة إلى قومه الذين تابوا إلى الله وندموا على ما فرّطوا في جنبه، فالله سبحانه أمره، بعد تلك التجربة، بالرجوع إليهم وبثّ دعوته، وأنّهم أقبلوا على دعوته واهتدوا بأنوارها، كما قال:

١٤٨. (فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ)

ويؤيّد ذلك قوله: (فَآمَنُوا) حيث يدلّ على إيمانهم بدل تكذيبهم في الفترة الأُولى.

فإن قلت: لو رجع إلى قومه فما معنى قوله:(فَآمَنُوا)، فإنّهم قد آمنوا قبل رجوعه وذلك بفضل العالِم الذي مرّ ذكره.

قلت: المراد آمنوا برسالته ودعوته.

## أسئلة وأجوبة

١. هل يوجد بين الحيتان حوت تسع بطنه لاستقرار إنسان فيه؟

الجواب: نعم، فالحوت حيوان ضخم، وقد قسّم العلماء الحيتان إلى مجموعتين رئيسيتين:

١. حيتان البالين (عديمة الأسنان)، وتوجد منها عشرة أنواع، منها: الحيتان الحدباء، ويصل طولها إلى (١٥ م)، والحيتان الزعنفية، ويصل طولها إلى (٢٤ م)، وحيتان العنبر الأزرق (وهي أضخم الحيوانات كلّها)، ويصل طولها إلى (٣٠ م) أحياناً.

٢. الحيتان ذوات الأسنان، وتتراوح أطوالها ما بين (١،٢ م) و (١٨ م). الموسوعة العربية العالمية: ٩ / ٥٧٠ ـ ٥٧٤ .٢. كيف ابتلعه ولم يقضمه ودخل بطنه بلا جرح ولا إدماء؟

الجواب: أنّ قدرة الله سبحانه أعلى من ذلك وأقوى، فلو عرف الإنسان إله العالمين بما له من القدرة والعلم لترك هذا السؤال، إذ العالَم الإمكاني في قبضة قدرته فله أن يوحي إلى الحوت أن يبتلعه دون أن يصيبه أذىً. يُذكر أن الحيتان ذوات الأسنان تستعمل أسنانها لاقتناص الفريسة فقط، وليس لمضغها، فغذاء جميع الحيتان ذوات الأسنان كتلة واحدة. المصدر نفسه.

٣. يظهر من قوله سبحانه:(فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللهِ التِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ) غافر:٨٤ـ٨٥، يظهر منه أنّ التوبة عند رؤية نُذُر العذاب لا تُقبل، فكيف قبل سبحانه توبة قوم يونس؟ وقد صرّح سبحانه بذلك التخصيص في آية أُخرى وقال: (فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ). يونس:٩٨.الجواب: هناك فرق بين إيمان قوم يونس وإيمان فرعون الّذي قال عندما أدركه الغرق: (آمَنْتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ) . يونس:٩٠. حيث كان إيمان قوم يونس إيماناً عن اختيار، ولأجل ذلك بقوا على إيمانهم بعد رفع العذاب عنهم، وكان

إيمان فرعون إيماناً اضطرارياً غير ناجم عن ثورة روحية على الكفر والوثنية، بل كان وليد رؤية العذاب وهجوم الأمواج، لا أقول: إنّ إيمان قوم يونس كان حقيقياً جدّياً وإيمان الآخرين كان صورياً غير حقيقي، بل: الكلّ كان حقيقياً، وإنّما الاختلاف في كون أحدهما ناشئاً عن اختيار، والآخر ناشئاً عن الخوف والاضطرار، أو قل : ناشئاً عن عامل داخلي أو ناشئاً عن عامل خارجي.

والدليل على ذلك استقرار قوم يونس على الإيمان بعد كشف العذاب عنهم لقوله سبحانه:(وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ) ويقول سبحانه: (وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ) والظاهر من الآيتين أنّ يونس بعد ما نجا ممّا ابتلي به، أُرسل إلى نفس قومه، فاستقبلوه بوجوه مشرقة وتمتّعوا بحياتهم في ظل الإيمان إلى الوقت المؤجّل في علم الله، على القول بأنّه أُرسل إلى هداية قومه.

وأمّا الفراعنة فكانت سيرتهم الوعد بالإيمان عند نزول العذاب، والرجوع إلى ما كانوا عليه من الفساد في مجال العقيدة والعمل، بعد كشفه، والذكر الحكيم يصرّح بذلك كما في قوله تعالى: (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلاَتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ * وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ) الأعراف:١٣٣ـ ١٣٥ .

٤. هل كان خروج يونس من أرض قومه مغاضباً، عصياناً؟

الجواب: ذهبت المخطّئة إلى أنّ خروجه من أرض قومه وهو مغاضب لربه ـ كما يدلّ عليه قوله تعالى: (وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا)( الأنبياء:٨٧) ـ كان عصياناً .

وهذا تفسير بالرأي بل افتراء على النبيّ، إذ لا يغاضب ربَّه إلاّ مَنْ كان معادياً له وجاهلاً بحكمته في أفعاله، ومثل هذا لا يليق بالمؤمن فضلاً عن النبيّ، وإنّما كان غضبه على قومه لإصرارهم على تكذيبه ويأسه من توبتهم، فخرج من بينهم مغاضباً. انظر: تنزيه الأنبياء:١٠٢.

هكذا فسّره الإمام الرضا(عليه السلام) عندما سأله المأمون عن مفاد الآية وقال: ذلك يونس بن متّى ذهب مغاضباً لقومه. بحار الأنوار:١٤/ ٣٨٧.

٥. قد ورد في حقّه قوله سبحانه: ( فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ)، الأنبياء:٨٧. أو ليس هذا الظنّ عصياناً؟

الجواب: أنّ معنى (لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ)أي: لن نضيّق عليه، فالفعل (نَقْدِرَ)هنا من القدر لا من القدرة، كما في قوله سبحانه: (إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ) الإسراء: ٣٠ .: أي يضيّق عليه، وقوله سبحانه: (وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ) الطلاق: ٧. فيونس (عليه السلام)قد ظن أنّه سبحانه لن يضيّق عليه لأجل هذا العمل، وقد تبيّن خلافه.

٦. قد مرّ أنّ يونس أوعد قومه بالعذاب ولكنْ تخلّف وعيده عن الواقع ، أليس هذا يعدّ كذباً؟

الجواب: إنّ هذا هو البداء الذي يدلّ عليه الكتاب والسنّة، وهو أنّ النبيّ(عليه السلام)ربما يعد أو يوعد علماً بالمقتضي لا علماً بالعلّة التامّة، فيخبر دون أن يقف على مانع من تأثير المقتضي، وكان الوعيد في علم الله معلّقاً على عدم إيمانهم وتوبتهم، فإذا لم يتحقّق الموقوف عليه انتفى الموقوف، ولكنّ النبيّ في وعيده هذا لم يكذب بحسب اطّلاعه على المقتضيات، وقد دلّ على صدق قوله ظهور طلائع العذاب في السماء غير أنّ إرشاد المرشد هداهم إلى طريق الإنابة بإخراج الحيوانات إلى الصحراء مع النساء صارخين تائبين.

كلمة حول البداء

قد عرفت قصة يونس (عليه السلام)وأنّه أوعد قومه بنزول العذاب، وظهرت أماراته ولكن التجأ القوم إلى التوبة والإنابة فرفع الله عنهم العذاب، وهذا من مصاديق البداء الّذي تعتقد به الشيعة الإمامية. ولمّا وقعت هذه الحقيقة القرآنية مورد الإنكار زاعمين بأنّ معناه الظهور بعد الخفاء، أخذوا ينكرونه، والشيعة الإمامية عن بكرة أبيهم بريئة من تفسير البداء بهذا المعنى، ولأجل رفع الستر عن وجه الحقيقة نأتي بما يوضح المقام.

البداء في اللغة هو ظهورُ ما خفي. يقول سبحانه: (وَبَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ماعَمِلُوا وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُون) الجاثية:٣٣. ، أي ظهر لهم آثار ما عملوا من السيّئات وأحاط بهم ما كانوا به يستهزئون.

وقال عزّ من قائل: (ثُمَّ بَدا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما رَأَوُا الآياتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حتّى حِين) يوسف:٣٥. ، أي ظهر لهم بعد ما رأوا الآيات الدالّة على براءة يوسف أن يسجنوه إلى حين ينقطع فيه كلام النّاس. وثمّة آيات أُخرى من هذا القبيل تشير إلى أنّ البداء عبارة عن ظهور ما خفي.

وعلى ذلك فالبداء بهذا المعنى من خصائص مَن كان جاهلاً بعواقب الأُمور ثمّ يبدو له ما خفي عليه، ولأجل ذلك نسب البداء في القرآن إلى غيره سبحانه.

نعم إنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)يستعمل كلمة البداء وينسبها إلى الله سبحانه، فقد أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة:

أنّه سمع رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)يقول: إنّ ثلاثة في بني إسرائيل: أبرص وأقرع وأعمى بدا لله أن يبتليهم، فبعث إليهم ملكاً فأتى الأبرصَ، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: لون حسن، وجلد حسن، قد قذرني الناس، قال: فمسحه فذهب عنه فأُعطي لوناً حسناً وجلداً حسناً، فقال: أي المال أحب إليك؟ قال: الإبل ـ أو قال: البقر ـ هو شك في ذلك: إنّ الأبرص والأقرع، قال أحدهما: الإبل، وقال الآخر: البقر ـ فأُعطي ناقة عُشَراء، فقال: يُبارَك لك فيها.

وأتى الأقرع، فقال: أي شيء أحبّ إليك؟ قال: شَعَر حسن، ويذهب عنّي هذا، قد قذرني الناس ؛ قال: فمسحه، فذهب، وأُعطي شَعَراً حسناً، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: البقر. قال: فأعطاه بقرة حاملاً، وقال: يُبارَك لك فيها.

وأتى الأعمى فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: يردّ الله إليّ بصري، فأُبصر به الناس، قال: فمسحه فردّ الله إليه بصره. قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الغنم، فأعطاه شاة والداً، فأُنتج هذان وولّد هذا، فكان لهذا واد من إبل، ولهذا واد من بقر، ولهذا واد من الغنم.

ثمّ إنّه أتى الأبرص في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين تقطّعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ اليوم إلاّ بالله ثمّ بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال، بعيراً أتبلّغ عليه في سفري؛ فقال له: إنّ الحقوق كثيرة. فقال له: كأنّي أعرفك، ألم تكن أبرص يقذرك الناس، فقيراً فأعطاك الله؟ فقال: لقد ورثت لكابر عن كابر، فقال: إن كنت كاذباً فصيّرك الله إلى ما كنت.

وأتى الأقرع في صورته وهيئته فقال له مثل ما قال لهذا، فردّ عليه مثل ما ردّ عليه هذا، فقال: إن كنت كاذباً فصيّرك الله إلى ما كنت.

وأتى الأعمى في صورته فقال: رجل مسكين وابن سبيل وتقطّعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ اليوم إلاّ بالله، ثمّ بك، أسألك بالذي ردّ عليك بصرك، شاة أتبلّغ بها في سفري؛ فقال: قد كنت أعمى فردّ الله بصري، وفقيراً فقد أغناني، فخذ ما شئت، فوالله لاأجحدك اليوم بشيء أخذته لله ، فقال: أمسك مالك فإنّما ابتُليتم، فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك. صحيح البخاري: ٢ / ٤٠٥، برقم ٣٤٦٤ ، كتاب الأنبياء، باب حديث أبرص وأعمى وأقرع في بني إسرائيل.

هذا ما نقله أبو هريرة مِن كلام الرسول الأعظم(صلى الله عليه وآله وسلم)وقد استعمل لفظ البداء في حقّه سبحانه، ومن الطبيعي أنّ النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)لم يستعمل هذا اللفظ في معناه اللغوي لاستلزامه ـ و العياذ بالله ـ الجهل على الله سبحانه، بل استعمله في معنى آخر لمناسبة بينه وبين المعنى اللغوي.

وكم له من نظير في الكتاب والسنّة، وقد اشتهر أنّ كلام البلغاء مشحون بالمجاز.

إنّ البراهين العقلية الرصينة والآيات الباهرة القرآنية قد أسفرت عن إحاطة علمه سبحانه بكلّ شيء في الأرض والسماء و ما مضى وما يأتي على نحو لا يتصوّر في مثله الظهور بعد الخفاء، ولنتبرّك بذكر بعض الآيات وترك ذكر البراهين العقلية إلى محلّها.

قال عزّ من قائل:

(إِنَّ اللّهَ لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرضِ وَلاَ فِي السَّماء). آل عمران:٥.

(وَما يَخْفى على اللّهِ مِنْ شَيْء فِي الأَرضِ وَلاَ فِي السَّماء).( إبراهيم:٣٨.)

(ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَة فِي الأَرْض وَلاَ فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاّ في كِتاب مِنْ قَبلِ أَن نَبْرأَها إِنّ ذلكَ عَلى اللّهِ يَسِيرٌ). الحديد:٢٢.

كيف يمكن طروء الخفاء عليه سبحانه مع أنّه محيط بالعالم صغيره وكبيره، مادّيه ومجرّده، والأشياء كلّها قائمة به قياماً قيّومياً، كقيام المعنى الحرفي بالاسمي؟! وغيبوبة المعنى الحرفي عن المعنى الاسمي تساوي فناءه.

كلّ ذلك يقودنا إلى التفتيش عن تفسير آخر للبداء ينسجم مع ما جاء في الحديث المنقول عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وإلاّ فالرسول وخلفاؤه وعلماء المسلمين قاطبة، أجلّ من أن ينسبوا إلى الله سبحانه البداء بالمعنى اللغوي الآنف الذكر.

ولأجل إيضاح الموضوع سندرس البداء من جوانب:

## ١. حقيقة البداء

حقيقة البداء عند الشيعة الإمامية كلمة واحدة، وهي إمكان تغيير المصير بالأعمال الصالحة أو بالأعمال الطالحة، وأنّه ليس للإنسان تقدير واحد محتّم لا يتغيّر، بل بيده إبدال تقدير مكان تقدير آخر، لكن على ضوء العمل الّذي يقوم به، سواء أكان صالحاً أم طالحاً.

هذه هي حقيقة البداء، دون زيادة أو نقيصة، فمن يريد أن يؤيد تلك العقيدة أو يردّ عليها، فليجعل هذا التعريف منطلقاً له في التأييد أو الردّ ولا يخرج عنه.

والدليل على أنّ الإنسان قادر على تغيير مصيره، الآيات القرآنية الكثيرة، منها:

١. قوله سبحانه:(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَات مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ). الأعراف: ٩٦.

٢. قوله سبحانه:(اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَال وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّات وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا).( الأنفال: ٥٣. )

٣. قوله سبحانه: (إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْم حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ).( إبراهيم: ٧. )

٤. قوله سبحانه:(ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْم حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ...). نوح: ١٠ ـ ١٢.

٥. قوله سبحانه:(وَمَنْ يَتَّقِ اللّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ).( الطلاق:٢ـ٣.)

٦. قوله سبحانه: (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ). الرعد: ١١.

٧. قوله سبحانه:(وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ).( الأنبياء:٧٦.)

٨. قوله سبحانه:(وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ). الأنبياء: ٨٣ ـ ٨٤.

٩. قوله سبحانه: (فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ). الصافات: ١٤٣ ـ ١٤٦.

إنّ هذه الآيات تعرب عن أنّ الأعمال الصالحة مؤثرة في مصير الإنسان، وأنّه يقدر بعمله الصالح على تغيير التقدير وتبديل القضاء ـ غير المبرم ـ لأنّه ليس في أفعال الإنسان الاختيارية مقدّر محتوم حتّى يكون العبد في مقابله مكتوف الأيدي والأرجل.

ما ذكرناه حقيقة قرآنية، ونرى مثلها في السنّة النبوية فهي تؤيّد أنّ للإنسان إبدال تقدير مكان تقدير آخر بالأعمال الصالحة، ونقتصر على ذكر القليل من الكثير.

١. أخرج الحاكم عن ابن عباس، قال: قال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): «لا ينفع الحذر عن القدر، ولكن الله يمحو بالدعاء ما يشاء من القدر». تفسير الدر المنثور:٤/٦٦، طبعة دارالفكر، بيروت، ١٤٠٣هـ.

٢. أخرج ابن سعد وابن حزم وابن مردويه عن الكلبيّ في الآية (يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ) الرعد: ٣٩. قال: يمحو من الرزق ويزيد فيه، ويمحو من الأجل ويزيد فيه؛ فقيل له: مَن حدّثك بهذا؟ قال: أبو صالح عن جابر بن عبد الله الأنصاري، عن النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم).

٣. وأخرج ابن مردويه وابن عساكر عن عليّ (رضي الله عنه) أنّه سأل رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)عن هذه الآية؟ فقال له: «لأقرنّ عينيك بتفسيرها، ولأقرنّ عين أُمّتي بعدي بتفسيرها، الصدقة على وجهها، وبرّ الوالدين، واصطناع المعروف، يحوّل الشقاء سعادة، ويزيد في العمر، ويقي مصارع السوء». الدر المنثور: ٤ / ٦٦ .

إلى غير ذلك من الروايات المبثوثة في كتب التفسير والحديث خصوصاً في آثار الدعاء والإنابة.

هذه هي حقيقة البداء كتاباً وسنّة، وهذه هي عقيدة الشيعة الإمامية في البداء، فهل يمكن لمسلم مؤمن بالقرآن والسنّة أن ينكر هذه الحقيقة ويعتقد خلاف ذلك، حتى يقع في عداد اليهود الذين أنكروا البداء بهذا المعنى وقالوا: (يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ)فردّ عليهم سبحانه بقوله: (غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ). المائدة:٦٤.

هذا كلّه حول الأمر الأوّل الذي يتضمّن بيان حقيقة البداء الذي تعتقده الشيعة والمسلمون عامّة بشرط أن يقفوا على هذا المعنى، وما ذكرناه من المعنى للبداء قد نصّ عليه علماء الشيعة منذ عصر الصدوق حتى يومنا هذا. لاحظ: عقائد الإمامية للصدوق المطبوع في ذيل الباب الحادي عشر:٧٣، وأوائل المقالات للشيخ المفيد:٥٣، ورسائل الشريف المرتضى، المسائل الرازية، المسألة ٥، الصفحة ١١٧، وعدّة الأُصول للشيخ الطوسي:٢/٢٩، وكتاب الغيبة للشيخ الطوسي:٢٦٣، ونبراس الضياء للسيد المحقّق الداماد:٥٦، وأجوبة مسائل جار الله للسيد عبدالحسين شرف الدين:١٠١ـ ١٠٣.

## ٢. الأثر البنّاء للبداء

إنّ الاعتقاد بالبداء له آثار تربوية، فإنّ الإنسان إذا اعتقد بأنّه إذا عصى وحُكم عليه بدخول النار لا يهتم بإصلاح حاله في مستقبل أيام عمره، وذلك لاعتقاده بأنّ التقدير الأوّل ينفذ في حقّه، سواء أعمل صالحاً أم طالحاً، وهذا يوجب توغّله في المعاصي طول حياته؛ وأمّا إذا اعتقد أنّ الله سبحانه هو الرؤوف الرحيم، فلو أصلح حاله في المستقبل فسوف يصلح الله له تقديره ويغيّره بنحو يتناسب مع عمله الصالح.

ولذلك ينادي الله سبحانه عباده بقوله: (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا). الزمر:٥٣.

### ٣. ما يترتّب على القول بالبداء

ربّما أخبر أنبياءُ الله(عليهم السلام) عن وقوع حادثة في المستقبل ولكنّها لم تقع،وذلك كالقضايا التالية التي نرى إخبار الأولياء وعدم وقوعها تالياً، وما ذلك إلاّ لأنّ المورد غيّر تقديره بالعمل الصالح ولولاه لوقع ما أخبر به النبيّ. وسنشير إلى موارد منها:

#### أ. رفع العذاب عن قوم نبيّ الله يونس(عليه السلام)

تقدّم توضيح ذلك، فارجع إليه ـ عزيزي القارئ ـ إنْ أحببت .

#### ب . الإعراض عن ذبح إسماعيل

ذكر القرآن الكريم أنّ إبراهيم(عليه السلام) رأى في منامه أنّه يذبح ابنه إسماعيل، وأعلم إبراهيم ابنه بذلك، ليكون أهون عليه، وليختبر صبره وجلَده وعزمه على طاعة الله وطاعة أبيه، وقال كما عبّر القرآن الكريم: (أَنِّي أَذْبَحُكَ) وهذا القول يحكي عن حقيقة ثابتة وواقعة مسلّمة، إلاّ أنّ الذبح لم يتحقّق، ولم يكن إبراهيم فيما أخبر به كاذباً، وذلك لاطّلاعه على المقتضي دون المانع. لاحظ : سورة الصافات: الآيات ١٠١ـ ١١١.

#### ج . إكمال ميقات موسى(عليه السلام)

ذكر المفسّرون أنّه سبحانه واعد موسى ثلاثين ليلة فصامها موسى(عليه السلام)وطواها، فلمّا تمّ الميقات، أمره الله تعالى أن يُكملها بعشر، قال سبحانه:(وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْر فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً). الأعراف:١٤٢.

ففي هذه القصة إخباران:

إنّه يمكث في الميقات ثلاثين ليلة، ثم نسخه بخبر آخر بأنّه يمكث أربعين ليلة، وكان موسى(عليه السلام) صادقاً في كلا الإخبارين، حيث كان الخبر الأوّل مستنداً إلى جهات تقتضي إقامة ثلاثين ليلة، لولا طروء ملاك آخر يقتضي أن يكون المكث أزيد من ثلاثين. لاحظ : تفسير الدر المنثور:٣/٣٣٥.

هذه جملة من الحوادث التي تنبأ أنبياء الله بوقوعها، وجاء خبرها في الذكر الحكيم إلاّ أنها لم تقع، وهذا ما يعبّر عنه بأنّه بدا لله فيها، وسيوافيك وجه استعمال هذه الصيغة في المقام، فانتظر.

هذا ما في القرآن العزيز، وأمّا ما ورد في الروايات الصحيحة عن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، فإليك شيئاً منها:

١. مرّ يهوديٌّ بالنبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: السام عليك، فقال النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)له:«وعليك» فقال أصحابه: إنّما سلّم عليك بالموت، فقال: الموت عليك؟ فقال النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم): «وكذلك رددت» ثمّ قال النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) لأصحابه: «إنّ هذا اليهودي يعضّه أسود في قفاه فيقتله»، فذهب اليهودي فاحتطب حطباً كثيراً فاحتمله، ثم لم يلبث أن انصرف.

فقال له رسول الله: «ضعه»، فوضع الحطب فإذا أسود في جوف الحطب عاضّ على عود، فقال(صلى الله عليه وآله وسلم): «يا يهوديّ ما عملت اليوم» قال: ما عملت عملاً إلاّ حطبي هذا حملته فجئت به، وكان معي كعكتان فأكلت واحدة وتصدّقت بواحدة على مسكين، فقال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم):«بها دفع الله عنه»، وقال:«إنّ الصدقة تدفع ميتة السوء عن الإنسان». بحارالأنوار:٤/١٢١.

٢. مرّ المسيح(عليه السلام) بقوم مجلبين، فقال: ما لهؤلاء؟ قيل: يا روح الله فلانة بنت فلانة تهدى إلى فلان في ليلته هذه، فقال: يُجلبون اليوم ويبكون غداً، فقال قائل منهم: ولِمَ يا رسول الله؟ قال: لأنّ صاحبتهم ميّتة في ليلتها هذه، فلمّا أصبحوا وجدوها على حالها، ليس بها شيء، فقالوا: يا روح الله إنّ التي أخبرتنا أمس أنّها ميّتة لم تمت، فدخل المسيح دارها فقال: ما صنعت ليلتك

هذه؟ قالت: لم أصنع شيئاً إلاّ وكنت أصنعه فيما مضى، إنّه كان يعترينا سائل في كلّ ليلة جمعة فننيله ما يقوته إلى مثلها. فقال المسيح: تنحّي عن مجلسك؛ فإذا تحت ثيابها أفعى مثل جذعة، عاضّ على ذنبه، قال (عليه السلام): «بما صنعت صُرف عنك هذا».
بحارالأنوار:٤/٩٤.

٤. ما هو معنى: «بدا لله» في حديث الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)؟

لا شكّ أنّ إطلاق البداء على الله سبحانه بمعنى الظهور بعد الخفاء أمر باطل لا يستعمله إلاّ الجاهل، لأنّ الله سبحانه عالم بكلّ شيء قبل أن يخلق ومع الخلق وبعده، ويستحيل أن يوصف أنّه بدا لله أي ظهر له بعد الخفاء.

وأمّا وجه التعبير عن هذه الحقيقة بهذا اللفظ الذي يمتنع وصفه سبحانه به بالمعنى الحقيقي فلأجل أمرين:

١. أنّ الشيعة الإمامية قد اقتفت أثر النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) في إطلاق البداء على الله سبحانه حيث أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة:

أنّه سمع من رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) أنّ ثلاثة في بني إسرائيل: أبرص وأقرع وأعمى بدا لله أن يبتليهم، وقد مرّ الحديث في صدر البحث .

٢. أنّ إطلاق هذا اللفظ يأتي من باب المشاكلة، وهو باب واسع في كلام العرب فإنّه سبحانه في مجالات خاصّة يعبّر عن فعله سبحانه بما يعبّر به الناس عن أفعالهم، وما ذلك إلاّ لأجل المشاكلة الظاهرية، وهذا ما نقرأه في الآيات التالية:

أ. قوله سبحانه:(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَ هُوَ خَادِعُهُمْ).( النساء:١٤٢.)

ب. قوله سبحانه: (وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ). آل عمران:٥٤.

ج. قوله سبحانه: (وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا). الجاثية:٣٤.

إذ لا شكّ أنّه سبحانه لا يخدع ولا يمكر ولا ينسى، لأنّ هذا من صفات الإنسان الضعيف، إلاّ أنّه سبحانه وصف أفعاله بما وصف به أفعال الناس من باب المشاكلة، والجميع كناية عن إبطال خدعتهم ومكرهم وحرمانهم من مغفرة الله سبحانه، ومن ثمّ عن جنّته ونعيمها.

٣. إنّ اللام في قول رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم):«بدا لله» هي بمعنى «من» أي بدا من الله للناس، تقول العرب: قد بدا لفلان عمل صحيح، أو بدا له كلام فصيح، كما يقولون: بدا من فلان كذا، فيجعلون اللام مقام «من»، فقولهم: بدا لله، أي بدا من الله سبحانه للناس.

فعلى ضوء هذه الجهات يصحّ إطلاق «البداء» على الله سبحانه ووصفه به، حتّى لو قلنا بتوقيفية الأسماء والصفات، وما ينسب إليه تعالى من الأفعال، لوروده في الحديث النبويّ كما عرفت.

***

هذا جلّ ما يمكن أن يطرح حول حياة يونس، وأمّا التفصيل خصوصاً بما في كتب قصص الأنبياء فليرجع إليها، ونحن لا نعتمد على أكثر ما فيها لمناقضته الآيات الكريمة.

الآيات ١٤٩ ـ ١٦٣ (فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ... إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ).

الآيات: التاسعة والأربعون بعد المئة إلى الثالثة والستين بعد المئة

(فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ * أَمْ خَلَقْنَا الْمَلاَئِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ * أَلاَ إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ * فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ

كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ * إِلاَّ عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ * فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ * مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ * إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ).

المفردات

فاستفتهم: الاستفتاء: الرجوع إلى شخص في موضوع له فيه رأي، وقد مرّ توضيحه في قوله سبحانه:(فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لاَزِبٍ) الصافات:١١..

إفكهم. الإفك: هو كلّ مصروف عن وجهه الّذي يحقّ أن يكون عليه، ولذلك يُطلق على الكذب.

بفاتنين: بمضلّين ومفسدين.

صال الجحيم: أي من دخلها وعُذِّب فيها، أصله صالي، ويحذف الضم لثقله على الياء، وتحذف الياء لالتقاء الساكنين: الياء الساكن، واللام.

التفسير

الظاهر أنّ هذه الآيات عطف على قوله المتقدّم في هذه السورة: (فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا) لكن الاستفتاء في الآية المتقدّمة كان حول البعث، وأمّا المقام فالاستفتاء فيه حول الشرك .

قد ذكرنا في أغراض السورة أنّ آياتها تدور على محاور، منها نقد آراء المشركين وعقائدهم في صفاته وأفعاله عزّ وجلّ، ولذلك عاد البيان القرآني إلى ذكر افتراءاتهم على الله سبحانه مشفوعة بالرّدود القائمة على المنطق الرصين، والبرهان المبين، وكما يلي:

١٤٩ و ١٥٠. (فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ * أَمْ خَلَقْنَا الْمَلاَئِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ):

هذه هي إحدى مقولاتهم المفتراة، وليس الاستفتاء هنا استفتاءً حقيقياً، وإنّما هو على سبيل الإنكار، والغرض منه توبيخهم على ما يتبنّون من عقيدة خرافية، حيث جعلوا البنات لله سبحانه، والبنين لأنفسهم كما مرّ في الآية، فقوله: (فَاسْتَفْتِهِمْ): أي اسألهم يا رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) (أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ)اللواتي يكرهونهنّ، (وَلَهُمُ): أي للمشركين (الْبَنُونَ)؟ وقد أشار سبحانه إلى هذا المعنى في آية أُخرى وقال: (أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى). النجم:٢١ـ ٢٢.

ولمّا استفتاهم (على سبيل الإنكار)، أخذ في نسف أصل عقيدتهم الخرافية، أعني دعوى أنّ الله سبحانه خلق الملائكة إناثاً، فما هو مستندهم في هذه الدعوى؟ هل شاهدوا خلقه تعالى لهم فعلموا بوساطة الحسّ أُنوثة الملائكة، كما يقول: (أَمْ خَلَقْنَا الْمَلاَئِكَةَ إِنَاثًا وهُمْ شَاهِدُونَ) وفي آية أُخرى قال تعالى: (وَجَعَلُوا الْمَلاَئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ). الزخرف:١٩.

اتّخاذ الولد على وجه الإطلاق

١٥١ و ١٥٢.(أَلاَ إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ):

إنّ دعوى المشركين أنّ الملائكة بنات الله، إنّما هو من لوازم ما ذهبوا إليه من نسبة الولد إلى الله، فما أجرأهم على هذا القول الّذي ليس هو إلاّ إفك وافتراء، كما قال:(أَلاَ إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللهُ) حيث زعموا أنّ الملائكة بنات الله تعالى (وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) فيما يقولون. ولعلّ إيراد هذه الصيغة المؤكّدة بأمرين: (إنّ) و (اللام) للتنبيه على أنّ الكذب سجيّتهم .

١٥٣. (أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ):

كرّر هنا الإنكار عليهم فيما يدّعون أنّ الله سبحانه اختار الأدْون والأحطّ قدراً بحسب منطقهم الفاسد. والهمزة هنا للاستفهام وقد حُذفت بعدها همزة الوصل، والأصل «إصْطَفَى».

١٥٤. ( مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ):

أي كيف تتقوّلون بذلك مع أنّه سبحانه حكيم لا يختار لنفسه الأدون، ويترك الأعلى اللائق بكماله وجلاله.

١٥٥. (أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ):

أي أفلا تعقلون هذه الأدلّة الّتي نقيمها على سُقم تصوّراتكم؟.

١٥٦. (أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ):

أي هل لكم دليل واضح يثبت صحّة هذه العقائد الخرافية، فأين هذا الدليل؟

١٥٧. (فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ):

أي إذا كان لكم كتاب من الكتب السماوية يخبر عمّا تتبنّونه من مقولات، فأْتوا بهذا الكتاب حتى يكون دليلاً على صحّة عقيدتكم.

فكلّ ما تتبنّونه من اتّخاذ الولد أوّلاً، وكون الملائكة إناثاً ثانياً، واتّخاذ الله إيّاهم لنفسه ثالثاً، كلّه هراء لا يعتمد عليه، لأنّه لا يستند إلى برهان عقلي واضح، ولا إلى دليل نقليّ قاطع، والقضايا الإيمانية (العقائد) لا تُبنى إلاّ على هذين الأساسين، لا على الظنون والأوهام.

ثم أشار سبحانه في الآية التالية إلى عقيدة أُخرى لهم هي كما تقدّمها في الفساد والبطلان، وهي:

| ادّعاء النسب بين الله والجنّ |
|---|

١٥٨. (وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ):

تضمّنت الآية افتراء آخر للمشركين، وهو أنّهم قد جعلوا بين الجنّة وبين الله نسباً، والظاهر أنّهم جعلوهم أولاد الله كما جعلوا الملائكة بنات له.

وتأنيث الجِنّة باعتبار كونه وصفاً للطائفة، والظاهر من الآية أنّ الجنّة غير الملائكة، وقد حان بيان عقيدتهم في الجنّ ، بعد أن تمّ الكلام عن تصوّراتهم المنحرفة عن الملائكة.

وقيل في تفسير الآية وجوه غير تامّة، منها:

أ. أنّ المراد بالجنّة الملائكة، والمراد بالجعل المذكور ما تضمّنه قولهم: الملائكة بنات الله.

يلاحظ عليه: أنّه يلزم التكرار إذ قد مرّ في قوله: (أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ) وأُريد هنا بالبنات: الملائكة، بقرينة قوله قبل هذه الآية: (أَمْ خَلَقْنَا الْمَلاَئِكَةَ إِنَاثًا).

ب. أنّ الله صاهر الجنّ فولدت له الملائكة.

يلاحظ عليه: أنّ النسب لا يطلق على المصاهرة.

ج. أنّهم أشركوا الشيطان في عبادة الله تعالى. انظر: مجمع البيان:٨/٣٧٠.

يلاحظ عليه: أنّ الإشراك في العبادة لا يوصف بالنسب إلاّ إذا جعلوا الجنّ أولاداً له.

ثمّ إنّه سبحانه أبطل عقيدتهم هذه بأنّ الجنّة علموا أنّهم يحضرون للعذاب يوم القيامة، فكيف يكونون أولاداً أو شركاءَ لله، كما قال تعالى: (وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ) أي أنّ الجنّ علمت (إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ)، وكأنّ الإحضار في الآية وفي غيرها كناية عن الإحضار للعذاب، وعندئذ كيف اتّخذهم الله أولاداً لنفسه؟ وأمّا أنّ الجنّ في أي وقت علموا أنّهم محضرون للعذاب؟ فليس في الآية ما يحدّد وقت إحضارهم، ولا يبعد أن يكون وقت ذلك بعد بعثة النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)حسبما ورد في سورة الجنّ، فقد

جاء فيها: (وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا * وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا). الجن:١٤ـ١٥.

١٥٩. (سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ):

لمّا ذكر تعالى عقائدهم الخرافية الباطلة، استدعى ذلك ختم الكلام بإنشاء تنزيهه عمّا يصفون.

١٦٠.(إِلاَّ عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ):

استثناء منقطع من قوله:(إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ) والأَولى أن يقال: إنّه استدراك بصورة الاستثناء، فإنّهم لا يحضرون للعذاب. ويحتمل أن يكون استثناءً من قوله: (وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا)، والأوّل أوضح. وقد مرّ أنّ المراد من (الْمُخْلَصِينَ) هم الذين خلت قلوبهم عن التعلّق بغير الله تعالى.

١٦١ ـ ١٦٣.(فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ * مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ * إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ):

تفسير الآيات رهن بيان إعرابها:

١.(مَا تَعْبُدُونَ): عطف على الضمير المتّصل في قوله: (فَإِنَّكُمْ)والمعطوف، والمعطوف عليه مبتدأ خبره: (مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ).

٢. إنّ لفظة (مَا) في قوله :(مَا أَنْتُمْ)، نافية.

٣. الضمير في قوله:(عَلَيْهِ) يرجع إلى الله، ومتعلّق بقوله:(بِفَاتِنِينَ).

٤. (إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ)استثناء مفرغ والمستثنى منه مقدّر، أي: ما من أحد.

والمعنى: (أنّكم) أيّها المشركون (وَمَا تَعْبُدُونَ) من الأصنام، لو اجتمعتم وتصافقتم على أن تضلّوا على الله أحداً من عباده لن تستطيعوا (إلاّ) مَن هو (صَالِ الْجَحِيمِ): أي مَن يتّبع ذلك الفاتن وينقاد له في سلوك طريق الضلال، فهو يصلى الجحيم. والآية أصدق شاهد على أنّ الضلال بيد الإنسان، وأنّ الفاتنين الّذين يدعون إلى الضلال بالإغواء والتزيين لا سلطة لهم على إضلال أحد إلاّ إذا كان الإنسان مريداً له.

قد تعرّفت على عقائد المشركين في حقّه سبحانه، وكيف أنّهم افتروا عليه افتراءات واهية سافرة، فمن أراد أن يعرف الله سبحانه بما يليق بساحة كبريائه، فعليه أن يتدبّر الآيات الواردة في وصفه سبحانه في سورة الحشر، كما عليه أن يرجع إلى الثقل الثاني ـ أعني: أئمة أهل البيت المعصومين(عليهم السلام) ـ وعندئذ يقف على أنّه سبحانه لا يُدرك شأوه ولا يُعلم كنهُه، قال الإمام علي(عليه السلام):

«الحَمد لله الّذي لا يَبلُغ مِدحَتَهُ القَائِلُونَ، وَلاَ يُحْصِي نَعْماءَهُ الْعَادُّونَ، وَلاَ يُؤَدِّي حَقَّهُ الْمُجتَهِدُونَ، الّذي لا يُدْرِكُهُ بُعْدُ الْهِمَمِ، وَلاَ يَنالُهُ غَوْصُ الْفِطَنِ، الَّذي لَيْسَ لِصِفتِهِ حَدٌّ مَحْدُودٌ، وَلاَ نَعْتٌ مَوْجُودٌ، وَلا وَقْتٌ مَعْدودٌ، وَلاَ أَجَلٌ مَمْدُودٌ. فَطَرَ الْخَلائِقَ بِقُدْرَتِهِ وَنَشَرَ الرِّياحَ بِرَحْمَتِهِ، وَوَتَّدَ بِالصُّخُورِ مَيَدانَ أَرْضِهِ.

أَوّلُ الدّين مَعْرِفَتُهُ، وَكَمالُ مَعْرِفَتِهِ التَّصديقُ بِهِ، وَكَمَالُ التَّصْديقِ بِهِ تَوْحِيدُهُ، وَكَمالُ تَوْحِيدِهِ الإِخْلاصُ لَهُ، وَكَمَالُ الإِخلاصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفاتِ عَنْهُ، لِشَهادَةِ كُلِّ صِفَة أنَّها غَيْرُ المَوصوفِ، وَشَهادَةِ كُلِّ مَوْصُوف أَنَّهُ غَيْرُ الصِّفَةِ: فَمَنْ وَصَفَ اللهَ سُبْحانَهُ فَقَدْ قَرَنَهُ، وَمَنْ قَرَنَهُ فَقَدْ ثَنَّاهُ، وَمَنْ ثَنّاهُ فَقَدْ جَزَّأَهُ، وَمَنْ جَزَّأَهُ فَقَدْ جَهِلَهُ، وَمَنْ جَهِلَهُ فَقَدْ أَشارَ إِلَيْهِ، وَمَنْ أَشارَ إِلَيْهِ فَقَدْ حَدَّهُ، وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ، وَمَنْ قالَ«فِيمَ» فَقَدْ ضَمَّنَهُ، وَمَنْ قالَ «عَلامَ؟» فَقَدْ أَخْلَى مِنْهُ. كائِنٌ لاَ عَنْ حَدَث، مَوْجُودٌ لاَ عَنْ عَدَم. مَعَ كُلِّ شَيْء لاَ بِمُقارَنَة، وَغَيْرُ كُلِّ شَيْء لاَ بِمُزايَلَة، فاعِلٌ لا بِمَعْنَى الْحَرَكَاتِ وَالآلَةِ، بَصِيرٌ إِذْ لاَ مَنْظُورَ إِلَيْهِ مِنْ خَلْقِهِ، مُتَوَحِّدٌ إِذْ لاَ سَكَنَ يَسْتَأْنِسُ بِهِ وَلاَ يَسْتَوْحِشُ لِفَقْدِهِ». نهج البلاغة: الخطبة رقم ١.

الآيات ١٦٤ ـ ١٧٠ (وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ... فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ).

الآيات: الرابعة والستون بعد المئة إلى السبعين بعد المئة

(وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ * وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ *لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الأَوَّلِينَ * لَكُنَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ * فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ).

المفردات

الصافّون: المصطفّون.

ذِكراً: كتاباً.

التفسير

لمّا نسب المشركون إلى الله سبحانه ما هو منزّه عنه، وزعموا أنّ الملائكة بنات الله سبحانه، عاد البيان القرآني إلى تنزيه الله على لسان الملائكة، وكأنّ كلامهم ردّ على عقيدة المشركين، وقد وصفوا أنفسهم بأوصاف ثلاثة، قالوا:

١٦٤. أ. (وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ):

هذا هو الوصف الأوّل. وهنا احتمالان:

١. يُراد بالمقام المعلوم درجاتهم حسب طاعتهم وعبادتهم، قال الإمام علي(عليه السلام):«ثُمَّ فَتَقَ مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ الْعُلاَ، فَمَلاَهُنَّ أَطْوَاراً مِنْ مَلاَئِكَتِهِ، مِنْهُمْ سُجُودٌ لاَ يَرْكَعُونَ، وَرُكُوعٌ لاَ يَنْتَصِبُونَ، وَصَافُّونَ لاَ يَتَزَايَلُونَ، وَمُسَبِّحُونَ لاَ يَسْأَمُونَ، لاَ يَغْشَاهُمْ نَوْمُ الْعُيُونِ، وَلاَ سَهْوُ الْعُقُولِ، وَلاَ فَتْرَةُ الأَبْدَانِ، وَلاَ غَفْلَةُ النِّسْيَانِ». نهج البلاغة: الخطبة١.

٢. يُراد به ما أُوكل إليهم من أمر تدبير العالم بإذنه سبحانه كما قال سبحانه: (فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا)( النازعات:٥.) فهم أسباب بين الله وبين خلقه كما قال تعالى: (بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ) الأنبياء:٢٦ ـ٢٧.

١٦٥. ب.(وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ):

فيه احتمالان:

الأوّل: ما مرّ في كلام الإمام علي(عليه السلام):«صافّون لا يتزايلون»، ولعلّ المراد به الصافّون للعبادة.

الثاني: أُريد به كونهم صافّين لتلقّي الأوامر الإلهية ليقوموا بامتثالها حسب ما أراد الله، قال سبحانه: (لاَ يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ). التحريم:٦.

١٦٦. ج. (وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ):

هذا هو الوصف الثالث. ويراد به أنّهم منزّهون له تعالى عمّا لا يليق بساحة كبريائه، على خلاف وصف المشركين، قال تعالى: (يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ). الأنبياء:٢٠.

وهذه الصفات الثلاث كلّها في طريق تنزيهه سبحانه مقابل وصف المشركين.

ومن عجيب الأمر أنّ المشركين وراء تشبيهه تعالى بالجسم والجسمانيات حاولوا تبرئة أنفسهم من تحمل مسؤولية ضلالتهم قائلين: بأنّهم معذورون في كفرهم وشركهم بعدم وجود كتاب من الله بينهم مثل كتب السابقين.

١٦٧ ـ ١٦٩. (وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ * لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الأَوَّلِينَ *لَكُنَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ):

ما حكاه سبحانه في هذه الآيات عن المشركين من عجائب القول، إذ أنّ المشركين ـ من جانب ـ قالوا باستحالة أن يبعث الله رسولاً من البشر، وإنّما يجب أن يكون من الملائكة، كما قالوا: (مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ)،

الفرقان:٧.ومن جانب آخر يحمّلون مسؤولية كفرهم وشركهم على أنّه لو كان عندهم كتاب سماويّ من جنس الكتب النازلة قبلهم على الأوّلين كما قال: (لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ)لاهتدوا ولأخلصوا العبادة لله سبحانه، كما قال: (لَكُنَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ).

وفي كلامهم مغالطة بعد مغالطة، أمّا أوّلاً: فقد مرّ أنّهم أحالوا رسالة الإنسان من السماء، فكيف يتمنّون بعث رسول إليهم بكتاب من الله؟

وثانياً: أنّه سبحانه أرسل إليهم كتاباً من السماء، وهو القرآن الكريم، لكنّهم لم يهتدوا بهداه، كما يقول:

١٧٠. (فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ):

كلّ ذلك يدلّ على أنها أعذار واهية، وإنّما التجأوا إليها لتبرير عقائدهم الفاسدة وأعمالهم الإجرامية.

فعن أبي جعفر الباقر(عليه السلام) في تفسير الآية: «فهم كفّار قريش (كَانُوا لَيَقُولُونَ) لو كان (عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ * لَكُنَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ)، يقول الله عزّ وجلّ: (فَكَفَرُوا بِهِ)حين جاءهم محمد (ص)يقول الله: (فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ). تفسير نور الثقلين:٤/٤٤٠.

| الآيات ١٧١ ـ ١٨٢ (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ... وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ). |
|---|

## الآيات: الحادية والسبعون بعد المئة إلى آخر السورة

(وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ * فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ * وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ * أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ * فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ * وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ * وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ * سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ).

### المفردات

كلمتنا: وعدُنا.

المنصورون: الغالبون.

جندنا: أُريد بهم هنا مَن يتبع الرسل وينصرهم.

بساحتهم: الساحة: المكان الواسع.

### التفسير

لمّا أوعد سبحانه الكافرين بقوله: (فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) ناسب أن يذكر شيئاً يقوّي به قلب رسوله (صلى الله عليه وآله وسلم)، فأشار إلى سنّة إلهية جارية في رسله، وهي وعده لهم بالنصر والغلبة، وقال:

١٧١. (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ):

أَطلقت لفظة(كَلِمَتُنَا) وأُريد بها الكلام الذي تضمّن وعده بنصر الرسل، ولعلّه عبارة عن قوله: (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ)، غافر:٥١. كما يحتمل أن يراد بالكلمة قضاؤه الحتميّ بنصر الرسل ونشر رسالتهم. وعلى كلّ تقدير، فمصير الرسل كما يقول:

١٧٢ و١٧٣. (إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ* وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ):

المراد بالجند هنا المؤمنون الذين اتّبعوا الرُّسل، وغدوا من أنصارهم وأعوانهم، وقد أضافهم إليه تعالى تشريفاً لهم. والآيتان تشيران إلى غلبة الرسل وأتباعهم على قوى الكفر والطغيان، وعندئذ يجب أن يلاحظ ما هو المراد من الغلبة، فهناك وجوه:

١. الغلبة في ساحة الاحتجاج، وأنّ قوّة منطقهم ستعمّ العالم وتُفحم المعاندين إذا نظروا بعين الإنصاف بعيداً عن التعصّب.

فلو أُريد هذا المعنى فهو يشمل عامّة الرسل، فإنّ مواقفهم الّتي تشهد بأنّهم منصورون بالحجج والبراهين، أمر واضح للجميع.

٢. أن يراد بها الغلبة في ساحات الجهاد واستئصال الكافرين، فلو قيل بأنّ الآية تختصّ بالنبيّ الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) فقط، فلا شكّ في انتصاره على العدو المشرك، وإن كان قد انتصر عليهم العدو في غزوة أُحد، ولكنّ هذا صار ذريعة للنصر الغالب عبر حياته(صلى الله عليه وآله وسلم)، على أنّ انتصار المشركين على المؤمنين في تلك الغزوة كان نتيجة تخلّف المسلمين عن الخطوط التي رسمها النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)للرماة الموجودين عند الجبل، كما هو مذكور في كتب السيرة، والقرآن الكريم يشير إلى أنّ الهزيمة كانت لوجود الفشل والتنازع بين المسلمين ولولاهما لم يُغلَبوا في تلك المعركة، قال سبحانه: (وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْل عَلَى الْمُؤْمِنِينَ). آل عمران:١٥٢.

٣. أنّ المراد بها تحقّق هذا النصر عند ظهور الحجّة المهدي (عج) الذي وعد به الله الأُمم، وبذلك فُسّر قوله تعالى:(هُوَ الذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ). الصف:٩.

وسيأتي مزيد بيان عن هذا الموضوع عند تفسير الآية (٥١) من سورة غافر، فانتظر.

١٧٤. (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِين):

هذه تسلية للنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)، حيث أمره أن يُعرض عنهم ويتركهم وشأنهم (حَتَّى حِين): أي إلى الوقت المعلوم. والمظنون أنّ المراد به الوقت الذي كتب الله فيه النصر والظفر للمؤمنين في وقعة بدر الكبرى.

١٧٥. (وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ):

هذا تأكيد لوقوع الميعاد، والمعنى: انظر وارتقب ما يصيبهم حينئذ من العذاب (فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ) ذلك، أو فسوف يرون انتشار دينك واخضرار عود الإيمان. والأوّل هو المتعيّن. وفي الآية دلالة على المعجز، لأنّه تعالى وعد نبيّه بالنصر، فكان الأمر على ما قال .

التبيان في تفسير القرآن: ٨ / ٥٣٨ .

١٧٦.(أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ):

يظهر من الآية أنّهم كانوا يطلبون عذاب الله عاجلاً قبل وقته، على غرار الأقوام الغابرة حيث كانوا يطلبون من أنبيائهم ما يوعدونهم به، ولذلك قال: (أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ) أو لا يتأمّلون في عاقبة طلبهم، فإنّه إذا نزل لا يبقي ولا يذر كما قال:

١٧٧. (فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ):

أي إذا نزل العذاب بأفنية دورهم فبئس (صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ) وإنّما خصّ الصباح بالذكر لأنّ الله سبحانه جرت سنّته بتعذيب الأُمم وقت الصباح كما قال: ( إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيب). هود:٨١.

١٧٨. (وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِين):

تذكير للنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) وتطييب لقلبه ووعد له باستئصال عدوه، فيأمره بالتولّي عنهم وعدم الاعتناء بهم إلى يوم نزول العذاب.

١٧٩. (وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ):

أي انتظر فسوف ينتظرون، و يرون من المنصور ومن المغلوب.

لمّا تمّ ذكر ما عليه المشركون من العقائد الفاسدة حول صفاته سبحانه، عاد البيان القرآني إلى ذكر أُمور ثلاثة:

الأوّل: تنزيهه سبحانه، كما يقول:

١٨٠. (سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ):
أي تنزيهاً لربّك أيّها الرسول ربّ العزة والقوّة التي لا تُغلب، فهو منزّه عن الصاحبة والولد والصهر وغير ذلك، مقابل وصف المشركين.
الثاني: التأمين للمرسلين من كلّ مكروه، كما قال:
١٨١. (وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ):
سلاماً خالصاً من ربّ العزّة على المرسلين الذين تحمّلوا بإخلاص مسؤولية نشر دعوته، وخاضوا إلى رضوانه تعالى كلَّ غمرة.
الثالث: التحميد لرب الثقلين، كما قال:
١٨٢. (وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ):
تحميد لرب الثقلين وثناء عليه.

روى عبدالله بن جعفر الحِمْيري في «قرب الإسناد» بإسناده إلى أبي عبدالله الصادق (عليه السلام)قال: «قال أمير المؤمنين(عليه السلام): مَن أراد أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة، فليكن آخر كلامه في مجلسه: (سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ). تفسير نور الثقلين:٤/٤٤١. وقال الماوردي: رواه الشعبي، وذكره الثعلبي من حديث عليّ بن أبي طالب (عليه السلام)مرفوعاً. غرائب القرآن ورغائب الفرقان: ٩ / ٤٠٦ .

تمّ تفسير سورة الصافات

## ٣٩- سورة ص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (٢) كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ (٣) وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥) وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (٦) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ (٧) أَؤُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ (٨) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (٩) أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ (١٠) جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ (١١) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (١٢) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ (١٣) إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (١٤) وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ (١٥) وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (١٦) اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (١٩) وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ (٢٠) وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ (٢٥) يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦) وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨) كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ
(٢٩) وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ
عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣) وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ
جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ
رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٣٨) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ
حِسَابٍ (٣٩) وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ (٤٠) وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (٤١)
ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٤٣) وَخُذْ بِيَدِكَ
ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٤٤) وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي
وَالْأَبْصَارِ (٤٥) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ (٤٧) وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا
الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ (٤٨) هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩) جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ (٥٠) مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ
فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ (٥١) وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ (٥٢) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ (٥٣) إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ
نَفَادٍ (٥٤) هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦) هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧) وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ
أَزْوَاجٌ (٥٨) هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ
الْقَرَارُ (٦٠) قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (٦١) وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ (٦٢)
أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ (٦٣) إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (٦٤) قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ
الْقَهَّارُ (٦٥) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٦٦) قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨) مَا كَانَ لِيَ
مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩) إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٧٠) إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ
(٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ
مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ
خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (٧٦) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي
إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٨٠) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ
مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ
مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨)

## خصائص السورة

### تسمية السورة

سُمّيت السورة في المصاحف بسورة «ص» كتابة، وأمّا تكلّماً فيقال: «صاد» شأن حروف التهجّي، فيكتب «ق» ويُقرأ «قاف»، ومثله «ن»، وربّما تُسمّى السورة بسورة داود، لورود قصته(عليه السلام) فيها، وهي تسمية غير مشهورة. وقد وردت فيها قصص عدد من الأنبياء.

### عدد آياتها ومحلّ نزولها

آياتها ثمان وثمانون آية في عدّ الكوفي، وست وثمانون في عدّ الحجازي والشامي. وقد ذكر في المجمع مواضع اختلاف عدّ الآيات.

| |
|---|
| لاحظ : مجمع البيان:٨/٣٧٥.<br>والسورة مكّية، وتشهد لذلك مضامينها. |
| أغراض السورة |
| الظاهر أنّ الغرض من هذه السورة هو نفسه غرض سورة الصافات، حيث تدلّ آياتها على وجود جدال ونقاش بين النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) والمشركين حول الدعوة إلى التوحيد وإخلاص العبودية له سبحانه والدعوة إلى البعث. وقد جاء في ثنايا السورة قصص تسعة من الأنبياء كداود وسليمان<br>وأيوب واليسع و ذي الكفل بينما جاء في ثنايا سورة الصافات قصص ثمانية منهم، وسنذكر وجه ذكرهم فيها. والإمعان في الآيتين الأُولى والثانية من هذه السورة يكشف عن الغرض النهائي منها، وأنّ الجدال والشقاق بين المشركين والنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) كان قائماً على قدم وساق، فانتظر. |
| الآيات ١ ـ ١١ (ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا ... جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الأَحْزَابِ). |
| الآيات: الإحدى عشرة الأُولى |
| (ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّة وَشِقَاق * كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْن فَنَادَوْا وَلاَتَ حِينَ مَنَاص * وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ * وَانْطَلَقَ الْمَلأَ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاَقٌ * أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ * أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ * أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ * جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الأَحْزَابِ). |
| المفردات |
| الذكر: يُفسَّر تارة بالشرف، وأُخرى بالبيان الذي يؤدّي إلى الحقّ ويهدي إلى الرُّشد.<br>في عزّة: في استكبار عن اتّباع الحقّ.<br>شِقاق: الشِّقاق: المخالفة.<br>قَرن: قال في «المفردات»: القَرن: القوم المقترنون في زمن واحد، وجمعه قرون المفردات للراغب: مادة «قرن».. ومما يثير العجب تفسيره بمئة عام، تفسير المنير:١٢/١٨٦. فإنّه مصطلح مُحدَث لا صلة له باللغة، ولا دليل عليه من القرآن.<br>نادوا: استغاثوا.<br>لات: أصلها «لا» النافية المشبّهة بـ (ليس)، أُضيفت إليها التاء لتعطي معنى التأكيد، وتستخدم للزمان، ولابدّ من حذف اسمها، وتقدير الآية: ليس الحين حين مناص.<br>مناص: ملجأ.<br>الملّة الآخرة: قيل: أُريد به النصرانية، وسيوافيك ما هو الحقّ.<br>اختلاق: كذب وافتراء.<br>الأسباب: المعارج والطرق الّتي يُتوسَّل بها إلى المقصود.<br>جندٌ ما: أي جند كثير عظيم، نظير قول القائل: لأمر ما جدع قصيرٌ أنفه. ويحتمل أن يكون التنكير في الآية بقصد التحقير والتصغير من شأن الأحزاب. |

مهزوم: مغلوب.

الأحزاب: الجماعة المجتمعة لهدف خاص.

التفسير

١.(ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ):

(ص) من الحروف المقطّعة في القرآن، ولم يُعدّ آية، ولعلّه لإفراده نظير (ق) و (ن). والمفسّرون وإن اختلفوا في تفسير الأحرف المقطّعة إلى أقوال تناهز العشرين، ولكنّ الظاهر من بين الأقوال أنّه إشارة إلى إعجاز القرآن وأنّه كتاب نازل من السماء وليس من صنع النبيّ، وذلك لأنّه مؤلّف من هذه الحروف الهجائية، فلو أنّكم أيّها المشركون تتصوّرون أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) صنع هذا القرآن من عند نفسه، فَهلُمَّ إلى صنع مثله، لأنّ المادة التي ألِّف منها القرآن هي بين أيديكم وفي متناولكم، كما يقول سبحانه: (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) البقرة:٢٣.ولكن عجزكم أفضل دليل على أنّ القرآن فوق طاقة الإنسان. وسيأتي مزيد بيان عند تفسير سورة الأحقاف.

قوله: (وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ) الواو للقسم وقوله: (ذِي الذِّكْرِ) وصف للقرآن، وهو ذكر بجميع المعاني، فهو شرف للنبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) وقومه، وهو يذكّر بما جاء به الرسل من قضايا العقيدة وأركان الإيمان، ويذكّر الإنسان الغافل، ليستيقظ من غفلته، ويعود إلى ما جُبل عليه من الاستعداد لقبول التوحيد والإسلام. والحقّ «إِنَّ أَسْمَعَ الأَسْمَاعِ مَا وَعَى التَّذْكِيرَ وَقَبِلَهُ!». نهج البلاغة: الخطبة ١٠٥.

ثمّ إنّ وصف القرآن بـ(ذِي الذِّكْرِ) لا يخلو من إشارة إلى أهميّة الذكر، وما للنسيان من آثار سلبية، فلو كان متعلّق الذِّكر في الآية أمراً عامّاً (يعمّ ذِكر الله وذكر رسله وأوصيائه)، فمن الواضح أن يصبح نسيان الله سبحانه رأسَ كلّ خطيئة، حيث إنّه سبحانه يصف نسيان الله بأنّه يعادل نسيان أنفسهم ويقول:(وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) الحشر:١٩.وهذا أمر دقيق كشف عنه الوحي الإلهي، فإنّ نسيان الله يلازم نسيان الأنفس، وما ذلك إلاّ لأنّ الإنسان فُطر على معرفة الصانع والإيمان به كما دلّ عليه قوله سبحانه:(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ التي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا) الروم:٣٠.فمن نسي الله سبحانه فقد نسي واقع وجوده، ونسيان الذات ونكرانها يلازم الجهل بما فيه سعادة الإنسان ومصلحته، وإلى هذا يشير عزّ وجلّ ويقول في حقّ المنافقين:(نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) التوبة:٦٧..

وسيوافيك توضيح ذلك في تفسيرنا لسورة الحشر، فانتظر.

وهنا سؤال: إذا كانت الواو للقسم، فما هو المقسم عليه؟

الجواب: الظاهر أنّ المقسم عليه محذوف، وتقديره: إنّك لمن المنذِرين أو من المرسَلين، ويدلّ على ذلك قوله تعالى:

٢. (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ):

وصف سبحانه كفّار قريش بأنّهم في عزّة وشقاق أي في استكبار عن قبول الحق وفي حميّة جاهلية، وشقاق وعداء.

وعلى هذا فالصلة بين المقسم به (الْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ) والمقسم عليه المقدّر «إنّك لمن المنذرين أو المرسلين» واضحة ؛ لأنّ القرآن من وسائل إنذاره وأدوات تحذيره، نظير ذلك ما في سورة (ق) قال سبحانه: (ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ * بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ). ق: ١ـ٢.

وربّما يجعل قوله: (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا) جواباً للقسم، وهو بعيد.

وأمّا كون الكافرين في (عِزَّةٍ): أي استكبار وجدال، فهذا أمر واضح كما سيوافيك في شأن نزول بعض الآيات من هذه السورة.

وتسأل : كيف صارت العزّة وصف ذمٍّ هنا، كما يقول: (فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ) مع أنّها من الصفات الممدوحة، قال تعالى: (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ)( المنافقون: ٨ .)، ومن صفاته سبحانه (العزيز)؟

الجواب: أمّا العزّة الّتي لله سبحانه فكناية عن قدرته وتسلّطه على كلّ شيء دون أن يتسلّط عليه شيء، وهو سبحانه العزيز، أي القاهر الّذي لا يُقهر ولا يُغلَب، وأمّا العزّة الّتي لرسوله وللمؤمنين، فهي مكتسبة من عزّته تعالى، وهي عزّة حقيقية لا يشعر معها الإنسان المؤمن بالذلّ والهوان، وأمّا العزّة هنا فهي ترادف الكبْر والعناد أمام الحق، ولذلك نرى أنّه سبحانه يصف المنافق بقوله:(وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ) البقرة:٢٠٦. .

ثمّ إنّ الأصل في: (بَلِ) إنّما هو للإعراض والإبطال، ومن المعلوم أنّ ما سبقه ليس قابلاً للإبطال فلابدّ من أن يقال: إنّ (بَلِ) إضراب انتقالي من كلام إلى كلام آخر دون إبطال ما سبق، فهو بعدما أفاد أنّ القرآن مذكّر لمن أراد التذكّر، صارت هنا مظنّة سؤال: لماذا لم ينتفع به المشركون، أهو لضعف في القرآن؟ أجاب عنه سبحانه: إنّ عدم انتفاعهم يرجع إلى القابل دون الفاعل، فاستكبارهم وجدالهم منعهم من الانتفاع به.

٣. (كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلاَتَ حِينَ مَنَاصٍ):

جاءت الآية تحذيراً لمشركي عصر الرسالة من سوء المصير، وذلك بتوجيه نظرهم إلى ما حلّ بأمثالهم من الأُمم المكذّبة المتجبّرة الّتي خلتْ من قبلهم، كما قال: (كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ): أي أُمم كثيرة (فَنَادَوْا): أي استغاثوا حين حلّ بهم العذاب طلباً للنجاة، ولكن (وَلاَتَ حِينَ مَنَاصٍ): أي وليس الوقت وقت منجى وفرار من بأس العزيز الجبّار. ويشهد لعدم نفع الإيمان حين نزول العذاب وأنّ هذا الحكم سنّة من سنن الله، قوله سبحانه في حقّ الأُمم الغابرة الذين تدرّعوا بالإيمان عند نزول العذاب: (فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ).( غافر: ٨٤ ـ ٨٥ .)

٤. (وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ):

يحكي سبحانه في هذه الآية موقف المتكبّرين المعاندين من الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، وأنّهم كانوا يعترضون على بعث رسول إليهم وهو من جنسهم، ويعدّونه أمراً عجيباً، كما قال:(وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ) وهذا الاعتراض على بشرية الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)لم يستحدثه هؤلاء، بل هو قديم قِدم الرسالات، وقد وجّهه الأقوام السابقون إلى أنبيائهم، قال تعالى حكاية عن قوم نوح (عليه السلام): (مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِثْلَنَا) هود: ٢٧ .، وقال حكاية عن قوم صالح (عليه السلام): (أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ).( القمر: ٢٥.)

وقد تعلّل المشركون في ردّ رسالة النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) بوجوه:

الأوّل: اتّهام النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) بالسحر والكذب، كما يقول: (وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ)أمّا أنّه ساحر فلِما أتى به من المعجزات، وفي مقدّمتها القرآن الكريم الّذي يمتاز بجاذبية عجيبة، ويفعل في النفوس فعل السحر الّذي كان عندهم، وأمّا أنّه كذّاب فلأنّه ـ في نظرهم ـ ادّعى أنّه مُرسل من ربّه، وأنّ ما يتلوه عليهم هو من الوحي النازل عليه. ومن الواضح أنّ الغرض من رميه بهاتين التهمتين، وإشاعتهما بين الناس، هو تشويه سمعته (صلى الله عليه وآله وسلم)، ومن ثمّ صدّ عامّة الناس عن الإيمان به، واتّباع دعوته المباركة، وقد أحسن من قال: (الإشاعات الباطلة مَشغَلة للحكماء، مَهلَكة للبسطاء).( القيم الإنسانيّة لمحمود الموسوي: ١ / ٢٥.)

ثم ذكر سبحانه وجهاً آخر لتعجبهم وهو رفض النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)الآلهة المكذوبة جميعاً والدعوة إلى إله واحد، فقد عجبوا

من ذلك كما قال:

٥. (أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ):

الثاني: جعل الآلهة إلهاً واحداً وهو عندهم أمر عجيب، لأنّهم ورثوا عن آبائهم عبادة آلهة كثيرة، قال المفسّرون: إنّ أشراف قريش، وهم خمسة وعشرون، منهم الوليد بن المغيرة وهو أكبرهم، وأبوجهل، وأُبيّ وأُميّة ابنا خلف، وعتيبة وشيبة ابنا ربيعة، والنضر بن الحارث، أتوا أبا طالب (رضي الله عنه) وقالوا: أنت شيخنا وكبيرنا، وقد أتيناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك، فإنّه سفّه أحلامنا، وشتم آلهتنا؛ فدعا أبو طالب رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، وقال: يا ابن أخي، هؤلاء قومك، يسألونك، فقال: ماذا يسألونني؟ قالوا: دعنا وآلهتنا ندعك وإلهك، فقال(صلى الله عليه وآله وسلم): أتعطوني كلمة واحدة تملكون بها العرب والعجم؟ فقال أبو جهل: لله أبوك، نعطيك ذلك عشر أمثالها، فقال: قولوا: لا إله إلاّ الله، فقاموا وقالوا: أجعل الآلهة إلهاً واحداً، فنزلت هذه الآيات. مجمع البيان:٨/٣٧٨.

ثمّ إنّ ما ذكرناه هو الذي نقله الطبرسي في «مجمع البيان» غير أنّ ابن هشام نقل القصّة بلفظ آخر، وكلٌّ يشتمل على نكتة فلا بأس بأن نشير إلى ما نقله، قال: إنّ قريشاً حين قالوا لأبي طالب هذه المقالة، بعث إلى رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، فقال له: يا ابن أخي، إنّ قومك قد جاءوني، فقالوا لي كذا وكذا، للذي كانوا قالوا له، فأبقِ عليّ وعلى نفسك، ولا تُحمّلني من الأمر ما لا أُطيق؛ قال: فظنّ رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه قد بدا لعمه فيه بداء أنّه خاذله ومُسْلِمُه، وأنّه قد ضعف عن نصرته والقيام معه، قال: فقال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): يا عمّ، والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك فيه، ما تركته. قال: ثم استعبر رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)فبكى ثم قام، فلما ولّى ناداه أبو طالب، فقال: أقبلْ يابن أخي، قال: فأقبل عليه رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، فقال: اذهب يابن أخي، فقل ما أحببت، فوالله لا أُسلمك لشيء أبداً. السيرة النبوية لابن هشام:١/٢٦٦.

ثمّ إنّ من طبيعة المجتمعات المتخلفة، مقاومة كلّ دعوة إلى الإصلاح والتغيير، وذلك باتّهام المصلح بتهم كثيرة كالجنون وطلب الرئاسة وغير ذلك، ولذا نرى أنّ كلّ عالم في فن من الفنون إذا طرح نظرية جديدة وكان المجتمع غير مستعد لقبولها، فإنّه سيقابَل بالنفي والردّ، وأحياناً يصل الأمر إلى التصفية الجسدية، ويشهد لهذا تاريخ العلوم في عالم الغرب، فكم من عالم قد خدم المجتمع بفكره وعلمه، لكنّه عوقب من جانب الكنيسة بأشد العقوبات، ومن تصفّح كتاب «قصة الحضارة» للكاتب الأمريكي وِل ديورانت، يجد ما يؤكّد ذلك.

وكان المجتمع المكّي في أشدّ حالات العناد والثبات على أفكار آبائهم وأعراف أسلافهم، فأي رأي يطرح وفيه نسيم المخالفة أطاحوا به وسعوا إلى إطفاء نور دعوته، فتعاملوا مع النبيّ الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) بهذا النفَس، وتآمروا عليه بمؤامرات عديدة أوضحتها كتب السيرة والتاريخ.

٦.(وَانْطَلَقَ الْمَلأ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ):

لمّا سمع أشراف القوم ما سمعوه من النبيّ الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) وأنّه يركّز على توحيد الإله ولا يفارق تلك العقيدة ولا يداهنهم، قاموا من مجلس أبي طالب كما يقول:(وَانْطَلَقَ الْمَلأ مِنْهُمْ): أي أشرافهم قائلين (أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ): أي امضوا على ما كنتم عليه واثبتوا على عبادة آلهتكم (إِنَّ هَذَا): أي ما يدعو إليه محمد(لَشَيْءٌ يُرَادُ): أي مؤامرة علينا وذريعة إلى التوصّل إلى الرئاسة والتحكّم بنا وبأموالنا بما يريده، فقولهم: (يُرَادُ) كناية عن أمر يُراد به ضررهم ومؤامرة عليهم، ويؤيّد هذا المعنى قوله سبحانه في قصة نوح، في خطاب الملأ لقومه: (مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ) المؤمنون:٢٤، وكأنّ

هذا سنّة ثابتة في مواجهة المصلحين، حيث إنّ زعماء القوم ووجهاءهم، ولأجل التشكيك في أهداف المصلح السامية، يتّهمونه بالرغبة في الترأس والتسلُّط، وأنّ ما أتى به من مشاريع إصلاحية كلّها ذريعة لأجل تسنُّم مقام الصدارة، غافلين عن أنّه لو وُجد أحياناً مَن يتظاهر بالإصلاح لهذه الغاية، فلا يدلّ ذلك على أنّ كلّ مَن يضحّي بنفسه ونفيسه في طريق دعوته، فإنّما يريد الرئاسة والاستعلاء على الشعب.

وهناك احتمال آخر، وهو أنّ كفار قريش أرادوا بهذا بيان كون النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) إنساناً صامداً، وأنّه لا يترك دينه بأي قيمة، وعلى ذلك فعلينا أن نتمسّك بديننا أمام إرادته القاطعة.

٧. (مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاَقٌ):

يظهر من مجموع الآيات الواردة حول منطق الملأ أنّهم استدلّوا على صحّة ما يقولون وعدم صحّة ما عليه الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) بدلائل ثلاثة:

الدليل الأوّل: ما تقدّم من أنّ هذا الرجل يُريد أن يجعل الآلهة إلهاً واحداً وهذا شيء عجيب.

الدليل الثاني: أنّ الدعوة إلى التوحيد أمر غريب (مَا سَمِعْنَا بِهَذَا): أي التوحيد (فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا): أي التوحيد (إِلاَّ اخْتِلاَقٌ): أي افتراء وكذب، ولو كان صحيحاً لكان له أثر ووجود. وأكثر المفسّرين على أنّ المراد بالملّة الآخرة هو النصرانية، لأنّهم قالوا بالتثليث لا بالتوحيد.

يلاحظ عليه أوّلاً: أنّ النصرانية تدعو إلى التثليث لكن في لباس التوحيد، فهذا النوع من التعدُّد عندهم لا ينافي التوحيد، ولذلك لا يصحّ أن يستدلّ بها المشركون.

وثانياً: أنّ المشركين كانوا يعتمدون على سنن وشرائع آبائهم وأجدادهم ولم يظهر منهم الاعتماد على التوراة والإنجيل ومن ورائهما اليهود والنصارى. وعلى كلّ تقدير فهؤلاء قد جعلوا عدم وجدان التوحيد في الملّة الآخرة دليلاً على بطلان التوحيد، ومن ثم نسبوا الدعوة النبويّة إلى الكذب والافتراء وقالوا: (إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاَقٌ)!!.

٨. (أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ):

الدليل الثالث: استغرابهم نزول الوحي على محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وعدم نزوله على رؤساء قريش وأشرافهم، فقالوا بصورة استفهام إنكاري(أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا): أي هل يمكن ذلك؟ وقد اعتمدوا على هذا الدليل أيضاً في موضع آخر، حيث أبطلوا دعوة النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) بقولهم: (لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ). الزخرف:٣١.

ثمّ إنّه سبحانه ردّ على كلّ ما تعلّلوا به من الأمور الثلاثة بوجوه:

الأوّل: (بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي): أي أنّ المشركين وإن تظاهروا بالإنكار والردّ الجدّي لكنّهم في باطن أمرهم شاكّون في أمر النبيّ ورسالته، لأنّ ما اعتمدوا عليه من الأدلّة يكشف عن وجود الشكّ والترديد في أذهانهم لا الإنكار القطعيّ.

ولكن يظهر من بعض الروايات أنّهم كانوا عالمين بصدق دعوة النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) بيد أنّهم كانوا ـ لعنادهم وشقاقهم ـ يجحدونها، نظير ما جاء في قوله تعالى في مورد النبيّ موسى(عليه السلام): (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا) النمل:١٤، نقل القرطبي في تفسير قوله تعالى: (وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ) الجاثية:٢٣، أنّ أبا جهل طاف بالبيت ذات ليلة ومعه الوليد بن المغيرة فتحدّثا في شأن النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)فقال أبو جهل: والله إنّي لأعلم أنّه صادق فقال له: مه، وما دلّك على ذلك!؟ قال: يا أبا عبد شمس، كنّا نسمّيه في صباه الصادق الأمين، فلمّا تمّ عقله وكمُل رشده، نسمّيه الكذّاب الخائن؟! والله إنّي لأعلم أنّه لصادق؟!

قال: فما يمنعك أن تصدّقه وتؤمن به؟ قال: تتحدّث عنّي بنات قريش أنّي قد اتّبعت يتيم أبي طالب من أجل كسرة، واللاّت

والعُزّى إن اتّبعته]لن أتبعه[ أبداً، فنزلت: (وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ). تفسير القرطبي:١٦/١٧٠.

الثاني: (بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ): أي أنّ هؤلاء باقون على إنكارهم وعنادهم ما لم (يَذُوقُوا عَذَابِ) وهذا هو السبب لعنادهم واستمرارهم على الكفر، كما قال: (بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ)ولعلّ المراد عذاب السيف يوم بدر.

إلى هنا تمّ الدليل الجامع على ما اعتمدوا عليه من الأمرين الأوّلين، وبقي الكلام في ردّ دليلهم الثالث وهو: كيف نزل الوحي على إنسان فقير، مع وجود الأشراف بيننا، فردّهم بنحوين:

أوّلهما: هو قوله:

٩. (أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ):

أي هل عندهم خزائن فضل الله تعالى ورحمته حتى يهبوها لأحد ويحرموا آخر منها، كما يقول: (أَمْ عِنْدَهُمْ): أي هل عندهم (خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ): أي مواهب الخير (الْعَزِيزِ) الغالب الذي لا يُغلب (الْوَهَّابِ)لضروب النّعم. نعم لو كانت خزائن رحمة الله بيد قريش كان لهم أن يهبوها لأشرافهم ويحرمونها عن مثل النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) ولكن مفاتيح الرحمة بيده، وهو أعلم بمواضع الرحمة.

ثانيهما: قوله:

١٠. (أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ):

إضراب بعد إضراب وانتقال بعد انتقال مع عدم إبطال ما قبله، وحاصله: هل لهم ملك هذه الأجرام السماوية والأجرام السفلية حتى يتكلّموا في تقسيم المواهب؟ وإنّما ذلك لمن يملكهما لا لغيره كما قال: (أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا)، فلو كان الأمر كذلك (فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ) ويصعدوا إلى السماوات بالأسباب والعلل حتى يمنعوا من نزول الوحي على أمثال محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)ويصرفوه إلى أمثال أنفسهم.

إلى هنا تمّ النقاش الدائر بين المشركين وما ورد في الوحي، ثمّ إنّه سبحانه تطييباً لنفس النبيّ وتسلية له يذكر مصير المعاندين في الفترة المكّية، قائلاً:

١١. (جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الأَحْزَابِ):

(جُنْدٌ) مبتدأ، و(مَا) مزيدة للتحقير أو للاستعظام، (هُنَالِكَ) صفة لجند (مَهْزُومٌ) خبر لجند، أي جند موصوف بكونه هنالك مهزوم، أي كتبت عليهم الهزيمة.

قوله: (مِنَ الأَحْزَابِ) بيان لـ (جُنْدٌ)، فما في الآية كلّه من الأخبار الغيبية، حيث يخبر بأنّ كفّار قريش يشكّلون حزباً مهزوماً، ومصارعهم هناك، فإذا كان هؤلاء مغلوبين فالنبي(صلى الله عليه وآله وسلم) هو الغالب.

الآيات ١٢ ـ ١٦ (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ ... رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ):

الآيات: الثانية عشرة إلى السادسة عشرة

(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ * وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ أُولَئِكَ الأَحْزَابُ * إِنْ كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ * وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلاَءِ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ * وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ):

المفردات

الأوتاد: جمع «وتد» وهو ما يُدقّ في الأرض أو الحائط لتُربط الأشياء به، ولعلّه في الآية كناية عن ثبات الملك والعزّ، ويشهد لذلك قول الأسود بن يعفر:

ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة *** في ظلّ مُلك ثابت الأوتادِ

وربّما يفسّر بالأهرام، حيث إنّ منظرها في عين الرائي منظر الوتد المغروز في الأرض.

قال السيد الرضي: وهذه استعارة على بعض الأقوال وهو أن يكون معنى ذي الأوتاد: ذا الملك الثابت والأمر الواطد والأسباب التي يثبت بها السلطان كما يثبت الخباء بأوتاده ويقوم على أعماده، وقد يجوز أيضاً أن يكون معنى ذي الأوتاد: ذا الأبنية المشيَّدة والقواعد الممهّدة التي تشبَّه بالجبال في ارتفاع الرؤوس ورسوخ الأُصول، لأنّ الجبال قد تسمّى أوتاد الأرض قال الله سبحانه: (أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا). النبأ:٦و٧؛ تلخيص البيان في مجازات القرآن:٢٣٣.

أصحاب الأيكة: هم قوم شعيب، والأيك: الشجر الكثير الملتفّ، والظاهر أنّ الأيكة اسم للناحية.

فَواق: المهلة، أو الفاصل الزماني بين «حلبتين».

قال السيد الرضي: وقرئ فواق بالضم، وقد قيل: إنّهما لغتان، وذلك قول الكسائي، وقال أبو عبيدة: من فتح أراد ما لها من راحة، ومن ضمّ أراد ما لها في إهلاكهم من مهلة بمقدار فواق الناقة، وهي الوقفة التي بين الحلبتين، والموضع الذي يحقّق فيه الكلام بالاستعارة على قراءة مَن قرأ (مِنْ فَوَاق) بالفتح، أن يكون سبحانه وصف تلك الصيحة بأنّها لا إفاقة من سكرتها ولا استراحة من كربتها كما يفيق المريض من علّته والسكران من نشوته، والمراد أنّه لا راحة للقوم منها، فجعل تعالى الراحة لها على طريق المجاز والاتّساع، ومثله كثير في الكلام. تلخيص البيان في مجازات القرآن:٢٣٣.

قِطنا: القطّ : النصيب المفروض.

التفسير

لمّا أخبر سبحانه عن هلاك المشركين في المستقبل كما في قوله: (جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ) أشار تعالى إلى هلاك أقوام كانوا مثل مشركي قريش في الشرك وتكذيب الأنبياء، وهم ستة، وقال:

١٢ و ١٣.(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ * وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْـأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ):

أشار سبحانه إلى الأقوام الستة، حيث إنّهم أُهلكوا بأمر من الله تعالى، وهم:

أ. (قَوْمُ نُوحٍ) فقد أُهلكوا بالغرق، قال تعالى: (مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا). نوح:٢٥.

ب. (وَعَادٌ)، وهم قوم هود فقد أهلكهم الله تعالى بالريح، قال: (وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ).( الحاقة:٦.)

ج. ( وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ)، حيث أهلكهم بالغرق، كما في قوله تعالى:(فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ) المؤمن:٤٥..

د. (وَثَمُودُ): أي كذبت قبيلة ثمود وهم قوم صالح، فلمّا عقروا الناقة أهلكهم الله بالصيحة، قال سبحانه: (إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ) القمر:٣١..

هـ. (وَقَوْمُ لُوطٍ) فأُهلكوا بالخسف والزلزلة، قال سبحانه: (فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ). الحجر:٧٤.

و. (وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ) وهم قوم شعيب، قال سبحانه: (فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) الشعراء:١٨٩..

ثمّ إنّ الله سبحانه قال: (أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ): أي هؤلاء المذكورون هم الأحزاب حقّاً، وقد بلغوا من القوّة والقدرة مبلغاً عظيماً، ولكن لم يمنع تحزّبهم من إهلاكهم واستئصالهم، فليعتبر مشركو قريش بمصائر هؤلاء فهم ليسوا بأشدّ قوّة وتحزّباً منهم. ولمّا كانت هنا مظنّة سؤال عن سبب استئصال هؤلاء قال سبحانه:

١٤. (إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ):

الآية تأكيد لما مرّ (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ): أي كلّ هؤلاء كذّب الرسل (فحقّ): أي فثبت ووجب لذلك عليهم (عِقَابِ): أي عقابي.

١٥. (وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ):

أي ما ينتظر(هَؤُلَاءِ) أي كفّار مكّة، والإشارة بهؤلاء للتحقير (إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً)وهي النفخة الثانية في الصور التي بها تقوم الساعة وتعود الحياة إلى الإنسان من جديد، وعندئذ (مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ) والفواق يطلق على الفاصل الزماني لما بين الحلبتين، وهو زمان يسير، وعلى هذا فيراد من قوله: (مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ): أي ليس بعد هذه الصيحة (مِنْ فَوَاقٍ): أي مهلة بالمقدار القليل، وعلى هذا فتعود الآية إلى بيان حالهم يوم القيامة وأنّه ليس بين النفخة الثانية وبين عذابهم أيّة مهلة ولو بمقدار فواق.

ويحتمل أنّ الآية راجعة إلى حالهم في الدنيا، والمراد ما ينتظر هؤلاء المكذّبون من أُمّتك إلاّ صيحة واحدة تقضي عليهم وتهلكهم ما لها من رجوع أو مهلة، وهي عذاب الاستئصال.

وهذا الاحتمال الذي ذكره بعض المفسّرين كالسيد الطباطبائي الميزان في تفسير القرآن:١٨٦/١٧. لا يخلو من إشكال، لأنّه سبحانه قد وعد الأُمّة الإسلامية أن لا يعذّبهم عذاب الاستئصال مادام فيهم أمران:

١. مادام الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) حيّاً بينهم.

٢. مادام يوجد في الأُمّة الإسلامية مستغفرون، يستغفرون الله تعالى.

وكان هذان الأمران موجودين عند نزول الآية، وبعد رحيل النبيّ الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) ارتفع الأوّل وبقي الأمان الثاني، قال سبحانه: (وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ). الأنفال:٣٣.

١٦. (وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ):

ما جاء في هذه الآية آخر ما في كنانة القوم، حيث إنّهم مكان أن يتدبّروا ما آتاهم النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)من بيّنات ودلائل واضحة على صحّة دعوته وما يترتّب عليها من مصالح الأُمور، توسّلوا إلى الله سبحانه بأن يعجّل لهم قسطهم من العذاب قبل يوم القيامة، كما قال: (وَقَالُوا): أي مشركو قريش: (رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا): أي نصيبنا من العذاب الذي توعّدتنا به (قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ): أي لا تؤخّره إلى يوم القيامة!!

ولا شكّ أنّهم قالوا ذلك تهكّماً واستهزاءً إذ لم يكونوا معتقدين بيوم الحساب ولا معتقدين بوعيد الله لهم، وإنّما يصوّرون أنفسهم عباداً لله، وغايتهم الاستهزاء والسخرية.

نعم، هؤلاء مع أنّهم سألوا الله تعالى أن ينزل عليهم العذاب، ولكنّه سبحانه ـ تكريماً لنبيّه ـ لم يأخذهم بما أخذ به الأُمم المكذّبة السابقة من عذاب الدنيا، كما أشار إليه سبحانه في قوله: (وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ). الأنفال:٣٣.

| |
|---|
| سورة ص: الآيات ١٧ ـ ٢٠ (اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُد ... وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ). |
| الآيات: السابعة عشرة إلى العشرين |
| (اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ * وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ). |
| المفردات |
| الأيْد: جمع يد، وأُريد بها هنا القوّة لأنّ يد الإنسان هي مظهر القوّة. |

أوّاب: راجع إلى الله، وهي صيغة مبالغة من قولهم: آب أي رجع.

الإشراق: وقت الإشراق.

محشورة: مجموعة.

شدَدْنا مُلكه: قوّيناه.

الحكمة: الكلام الموافق للحقّ، أو هي المعارف الحقّة الّتي تهدي الإنسان إلى الخير في العقيدة والسلوك.

فصل: الفصْل: الحاجز بين الشيئين، وفصل الخطاب هو الكلام القاطع للنزاع.

التفسير

إنّ الله سبحانه يذكر للنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) ـ تطييباً لنفسه وتقوية لروحه ـ قصص عدد من الأنبياء الذين اضطلعوا بمسؤولية الهداية والإرشاد والدعوة إلى التوحيد وإلى الخير والفضيلة والصلاح. فهو تارة يذكرهم بشكل تفصيلي، وأُخرى بالإشارة إلى أسمائهم فقط، وهم الأنبياء العظام:

١. داود ٢. سليمان ٣. أيوب ٤. إبراهيم ٥. إسحاق

٦.يعقوب ٧. إسماعيل ٨ . اليسع ٩.ذوالكفل.

فإنّ في تضحياتهم ومعاناتهم مع أقوامهم وصبرهم على أشواك الطريق، دروساً وعبراً للجميع.

١٧. (اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ):

أي اصبر على ما يقوله مشركو قومك، فإنّ الصبر من شيم الأنبياء كما قال سبحانه:(فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ). الأحقاف:٣٥.

قوله:(وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ): أي واذكر في هذا المقام الّذي أُمرتَ فيه بالصبر قصة عَبْدَنَا دَاوُدَ، الذي تحلّى بالأوصاف(الستة) التالية:

الوصف الأوّل: (ذَا الأَيْدِ): أي صاحب القوّة والقدرة على طاعة ربّه وعبادته، أو صاحب البطش والشجاعة في مواجهة الأعداء، كما يقول سبحانه: (وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ). البقرة:٢٥١.

الوصف الثاني: (إِنَّهُ أَوَّابٌ) اسم مبالغة من الأَوْب بمعنى الرجوع، والمراد به كثرة رجوعه إلى ربّه وذكره ليلاً ونهاراً، للفوز بمرضاته.

١٨و ١٩. (إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ):

هذا هو الوصف الثالث، الذي تذكره الآيات لداود(عليه السلام)، وهو أنّه (عليه السلام)قد بلغ من السموّ الروحي درجة أنّه حينما كان يسبّح الله تعالى فالجبال والطير تشاركه في التسبيح، فقوله: (والطّير)معطوف على (الجِبَالَ): أي سخرنا الجبال معه والطير محشورة(يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ)ويشهد لذلك قوله تعالى : (وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ) الأنبياء:٧٩. ، وفي آية أُخرى قال تعالى: (يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ).( سبأ:١٠).

إنّ للمفسّرين حول تسبيح الجبال والطيور أنظاراً نشير إليها، وسيوافيك تفصيل الكلام فيه عند تفسير سورتي: الحديد، والحشر، بإذن الله تعالى:

١. أنّ تسبيح هؤلاء كان تسبيحاً تكوينياً غير نابع عن شعور، والمراد أنّ النظام السائد على خلقة هؤلاء يدلّ بوضوح على أنّ خالقهم في أقصى درجات العلم والقدرة والحكمة والعزّة بما يبهر العقول.

يلاحظ عليه: أنّ هذا الكلام وإن كان صحيحاً في نفسه لكنّه لا صلة له بمضمون الآية؛ لأنّ تسبيح هؤلاء كان أمراً ثابتاً لهم قبل أن يسبِّح داود، بل قبل أن يُخلق داود(عليه السلام)، إذ أنّ القرآن يحكي عن وجود التقارن بين تسبيحه وتسبيحهم، وأنّ هناك صلة

بين تسبيحهم وتسبيحه.

٢. أنّه كان لسيدنا داود صوت رخيم شجيّ، يلتذّ بسماعه كلّ مَن سمعه، فإذا سبّح ينعكس صوته في الجبال ويُتخيّل أنّ الجبال تسبّح معه.

يلاحظ عليه: أنّه لو صحّ هذا الوجه ـ ولن يصح ـ فإنّما يصحّ في تسبيح الجبال دون الطيور، مضافاً إلى أنّه على خلاف ظاهر الآية فإنّ ظاهرها أنّ الجبال تسبّح لا أنّ صوت داود ينعكس في الجبال فيتخيّل السامع تسبيحها.

٣. أنّ عامّة الموجودات لها نصيب من العلم والشعور حسب درجة وجودها، فعندما يسبّح داود (عليه السلام)فتسبيحه يؤثر ـ بما له من ولاية تكوينية بإذن الله ـ في الجبال والطيور، فتنطلق بالتسبيح معه عن شعور وعلم، وهذا يُعدّ فضيلة رابية له(عليه السلام).

قوله: (كُلٌّ لَهُ أوّاب): أي كل من الجبال والطير أواب له أي رجّاع إلى ما يريد مطيع له بالتسبيح معه.

ومعنى الآية: أنّ كلاًّ من الطيور والجبال مطيعة لأوامره وتسبّح معه الباري تعالى (كُلٌّ لَهُ أوّاب): أي كلّ منهما أوّاب لداود، أي رجّاع.

ويحتمل بعيداً أن يرجع الضمير إلى الله سبحانه.

٢٠. (وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ):

تشتمل هذه الآية على أوصاف ثلاثة أُخرى لداود (عليه السلام)، وهي:

الوصف الرابع: (وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ) وهو كناية عن تقوية ملكه بالجنود وحسن التدبير، وقد ظهرت شخصيته اللامعة وتدابيره الحكيمة في حروبه مع جالوت.

الوصف الخامس: (وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ) ولعلّ المراد بها النبوّة، ويمكن أن يراد بها المعارف الحقّة الّتي ترشد إلى الخير والفلاح.

الوصف السادس: (وَفَصْلَ الْخِطَابِ): أي القول الحاسم الّذي يوضّح الأُمور، ويحدّد المعنى، ويقطع النزاع فيها .

إنّ هذه الأوصاف الثلاثة الأخيرة أعني: تقوية ملكه بالجنود أوّلاً، وإيتاءه النبوّة أو المعارف الحقّة الّتي يدل عليها قوله: (وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ)، ثم إيتاءه القدرة على توضيح الأُمور بشكل قاطع وتمييز حقّها من باطلها، إنّ هذه الأوصاف هي أساس الحكم وإدارة المجتمع.

| الآيات ٢١ ـ ٢٦ (وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ... لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ). |
|---|
| الآيات: الحادية والعشرون إلى السادسة والعشرين |
| (وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لاَ تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْض فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلاَ تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ * إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ* قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْض إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ * فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآب * يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ). |
| المفردات |
| الخصم: هو المدّعي على غيره حقّاً من الحقوق، ويُستعمل للمفرد والمثنى والجمع، وللمذكر والمؤنث، بلفظ واحد.<br>تسوّروا : التسوّر : الارتقاء إلى أعلى السور، كالتسنّم الذي هو الارتقاء إلى سنام البعير. |

المحراب: مجلس الأشراف الذي يحارب دونه لشرف صاحبه، ومنه سمّي المصلّى، وموضع القبلة: محراباً.

ففزع: الفزع: انقباض ونفار يعتري الإنسان من شيء مخيف.

تشطط: الشَّطط: الجور.

نعجة: النعجة: الأُنثى من الضأن.

اكفلنيها: اجعلها في كفالتي وتحت سلطتي.

عزّني: غلبني.

راكعاً: أُريد به هنا ساجداً، وقد يطلق السجود على الركوع مع القرينة، قال الشاعر:

فخرّ على وجهه راكعاً *** وتاب إلى الله من كلّ ذنب

التفسير

ذكر سبحانه القصة التي دارت بين داود والخصمين، ولإيضاح مفاد الآيات نذكر ما ورد في شأنها: كان داود(عليه السلام)جالساً في غرفته عاكفاً على عبادة ربّه، إذ دخل عليه شخصان فجأة، بعد أن اعتليا السور، فداخله خوف منهما، فبادرا إلى طمأنته، وبيّنا أنّهما جاءا للتقاضي عنده، ثم

قال أحدهما: إنّ أخاه يملك تسعاً وتسعين نعجة بينما يملك هو نعجة واحدة ، فطلب منه أخوه أن يعطيه النعجة التي تحت يده مدّعياً كونه محقّاً فيما يقترحه عليه، وقد ألقى صاحب النعجة الواحدة كلامه هذا على وجه هيّج به عطف النبيّ داود(عليه السلام). وقبل أن يستمع داود لكلام المدّعى عليه، قضى طبقاً لكلام المدّعي، وكان الأَولى به أن لا يقضي بشيء قبل استماع كلام الآخر. ولما تنبّه من فوره إلى أنّ ما صدر منه كان غير لائق بساحة النبوة، استغفر ربّه وخرّ راكعاً وأناب. إذا عرفت ذلك فلنذكر تفسير الآيات.

٢١. (وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ):

لمّا ذكر سبحانه أنّه أعطى داود الحكمة وفصل الخطاب، ذكر قصة حَكَم فيها داود على النحو الآتي، فقال:(وَهَلْ أَتَاكَ) أيها النبيّ (نَبَأُ الْخَصْمِ)قصة الخصمين (إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ)أي حين صعدوا إلى المحراب، (وهو المكان الّذي كان يتعبّد فيه داود (عليه السلام))، معتليَين سوره.

٢٢. (إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لاَ تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْض فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلاَ تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ):

تقدّم أنّهم تسوّروا المحراب لغاية الدخول كما يقول: (إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ)، ولمّا كان دخولهم عليه من غير الجهة المعتاد الدخول منها، انتابه خوف منهم ، كما يقول: (فَفَزِعَ مِنْهُمْ)والإحساس بالخوف انفعال طبيعي يدفع الإنسان إلى الحذر وإبداء ردّ فعل معيّن إزاء الحدث المهمّ الّذي يواجهه، وهذا إبراهيم(عليه السلام) لمّا رأى أنّ أيدي الضيوف لا تصل إلى الطعام الذي قدّمه إليهم أحسّ بالخوف، كما قال (فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً) الذاريات:٢٨. ولا يعدّ مثل ذلك عيباً ولا نقصاً.

ولمّا رأى الخصمان ما انتاب داود (قَالُوا لاَ تَخَفْ): أي لا يصل منّا إليك ما تكره، وقد جئنا لتقضي بيننا، ثم شرعا ببيان مورد القضاء إجمالاً وهو أنهما (خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْض): أي اعتدى بعضنا على بعض فنطلب منك قضاء بالنحو التالي (فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ) أوّلاً (وَلاَ تُشْطِطْ)ثانياً، أي لا تجور (وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ) ثالثاً، أي أرشدنا إلى الطريق السويّ المستقيم، وقد راعى الخصمان الأدب في عرض القضية، حيث عرضا الموضوع إجمالاً ثم شرحاه، فقال أحدهما بصورة الشكوى:

٢٣. (إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ):

فقوله: (إِنَّ هَذَا أَخِي) إمّا أخوه نسباً أو أخوه في الدين، والظاهر الثاني (لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً) وهي أُنثى الضأن، فيُلزمني ويقول: (أَكْفِلْنِيهَا): أي ملّكنيها (وَعَزَّنِي) غلبني (فِي الْخِطَابِ) في مقام المحاجّة.

ولازم التعبّد بالظواهر حمل النعجة والنعاج على ظاهرهما، ولكن للسيد الشريف الرضي (رضي الله عنه)كلام يُقضى منه العجب قال: هذا الكلام داخل في حيّز الاستعارة، لأنّ النعاج هاهنا كناية عن النساء، وقد جاء في أشعارهم الكناية عن المرأة بالشاة، وعلى ذلك قول الأعشى:

فرميتُ غفلة عينه عن شاتهِ *** فأصبتُ حبةَ قلبها وطحالَها

أي عن امرأته، وقال عنترة:

يا شاة ما قَنَص لمن حلّت له *** حَرُمتْ عليَّ وليتها لم تَحرُمِ

وربّما سمّوا الظبية نعجة، والظبية مشبّهة بالمرأة، فتكون اللفظة مستعارة على هذا التركيب، وإنّما شبّهت النساء بالنعاج لأنّ النعاج يرتبطن للاحتلاب والاستنتاج، والنساء يصطفين للاستمتاع والاستيلاد. تلخيص البيان في مجازات القرآن:٢٣٤.

ما ذكره السيد(رحمه الله) من أنّ النعاج هنا كناية عن النساء، قد ورد أيضاً عن عدد من المفسّرين، منهم مجاهد، انظر: صحيح البخاري: ٢ / ٣٩٤، كتاب أحاديث الأنبياء، الباب ٤١ .وهو مبنيّ على روايات إسرائيلية حتى أنّهم جعلوا داود مصداقاً لمن له تسع وتسعون امرأة!! وسيوافيك ما هو الحقّ في هذه الروايات.

٢٤. (قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْض إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ):

إنّ صاحب النعجة الواحدة طرح الموضوع بشكل أثار فيه المشاعر العاطفية لدى داود(عليه السلام) ضد خصمه، حيث صوّر نفسه أنّه إنسان فقير لا يملك إلاّ نعجة واحدة، والطرف الآخر الذي يخاصمه إنسان ثريّ قد طمع حتى في النعجة الواحدة التي كان يملكها، وأنّه لم يزل يطلبها منه حتّى غلبه في المحاورة، ولا شكّ في أنّ طرح الموضوع بالنحو الّذي برز فيه جور الخصم يؤثر في المخاطب، ولذلك أقدم داود على الحُكم قبل أن يسمع كلام الطرف الآخر، فقال: (لَقَدْ ظَلَمَكَ) خصمك (بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ): أي بسؤاله إيّاك نعجتك ليضمّها (إِلَى نِعَاجِهِ) .

ثمّ أشار إلى قضية كلّية وهي (وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ): أي الشركاء (لَيَبْغِي): أي يتعدّى (بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْض) ثم استثنى قليلاً منهم وقال: (إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ)، «ما» زائدة لتأكيد القلّة. ثم إنّه(عليه السلام)تنبّه إلى أنّ الدعوى كانت فتنة وامتحاناً له من الله تعالى كما يقول: (وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ)امتحناه، أي علم أنّ ما قام به من القضاء قبل سماع الطرف الآخر كان أمراً غير صحيح (فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا): أي ساجداً بقرينة قوله:(خَرَّ)، (وَأَنَابَ): أي رجع إلى الله وطاعته .

ثمّ إنّه سبحانه عاد عليه بالغفران كما قال:

٢٥. (فَغَفَرْنَا لَهُ ذلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآب):

قوله: (فَغَفَرْنَا لَهُ ذلِكَ): أي قبلنا استغفاره (وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى): أي قربى وكرامة (وَحُسْنَ مَآب): أي حسن مرجع في الآخرة.

هذا هو تفسير الآيات، غير أنّ هنا أُموراً نشير إليها:

الأوّل: أنّ القرائن الحافّة بالآية تشعر بأنّ الخصمين لم يكونا من جنس البشر. وهذه القرائن عبارة عن:

أ. تسوّرهما المحراب أي جدار الغرفة ثم دخولهما على داود دخولاً غير عادي، مع أنّ طبع الحال يقتضي أن يكون محرابه محفوفاً

بالحرس، فلو كان دخولهم باستئذان لم يخفَ ذلك على داود، ومن ثمّ لم يكن هناك أي فزع.

ب. إنّ الخصمين دخلا عليه بصورة أنّهما من الرعايا، ولكنّهما خاطباه بقولهم: (لا تَخف)ولا يصدر مثل هذا القول إلاّ من صاحب مقام سام.

ج . إنّ ظنّ داود (عليه السلام)بأنّ ما وقع كان فتنة من الله، قد يوحي بأنّه لم يجدهما أمامه بعد الحكم، وأنّهما غابا عنه بشكل غير طبيعي، الأمر الّذي يؤيد كونهم من الملائكة، وقد تمثّلوا له في صورة البشر . يُذكر أنّ عدداً من المفسرين لم يقتنع بهذه القرائن، واعتبر أنّ الخصمين كانا من الإنس .

الثاني: إنّ طرح الدعوى كان امتحاناً من الله سبحانه، وكانت الغاية تسديده في خلافته وحكمه حتى يمارس القضاء بالنحو اللائق بساحته ولا يغفل عن التثبّت، ولذلك خاطبه سبحانه بعد تلك الواقعة بقوله كما سيأتي:( يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ).

الثالث: إنّ استغفاره كان لأجل ترك الأَولى، والدليل على ذلك هو أنّ قضاءه لم يكن قضاء باتاً خاتماً للقضية، بل كان قضاء على فرض السؤال أي لو صحّت دعوى المدّعي فقد ظلم شريكه الآخر، ومع ذلك كان المجال بالنسبة إلى سماع دعوى الخصم الآخر مفتوحاً، ولا يعدّ مثل هذا إلاّ تركاً للأَولى.

يقول السيد الطباطبائي: إنّ خصوصيات القصّة كتسوّرهم المحراب ودخولهم عليه دخولاً غير عادي بحيث أفزعوه، وكذا تنبّهه بأنّه إنّما كان فتنة من الله له لا واقعة عادية، وقوله تعالى بعد: (فاحكُم بينَ النّاسِ بِالحقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الهَوى) الظاهر في أنّ الله ابتلاه بما ابتلاه لينبّهه ويسدده في خلافته وحكمه بين الناس، كلّ ذلك يؤيّد كونهم من الملائكة وقد تمثّلوا له في صورة رجال من الإنس. الميزان في تفسير القرآن:١٧/١٩٣.

وفي الختام نقول: لما كانت الشكوى مرفوعة إليه من قبل الملائكة، ولم يكن ذلك الظرف ظرف تكليف، كانت خطيئة داود في ظرف ليس فيه ثمّة تكليف هناك، كما أنّ خطيئة آدم(عليه السلام)كانت في الجنة ولم تكن الجنّة دار تكليف، ومع ذلك كلّه لمّا كان التسرّع في القضاء بهذا الوجه أمراً مرغوباً عنه، استغفر داود وأناب إلى الله استشعاراً بخطر المسؤولية بحيث يُعدّ ترك الأَولى منه ذنباً نسبياً (لا ذنباً مطلقاً) يحتاج إلى الاستغفار.

لقد صدرنا في تفسير هذه الآيات عن الأخذ بظواهرها من دون أن نتأثّر بما روي حول القصة من أخبار، سواء أكان في العهدين أو في الكتب الروائية .

وما ذكرناه من التفسير كاف في الوقوف على مفاد القصة، مع سلامتها من أيّ إشكال يُثار عليها.

ونحن لا نورد هنا شيئاً ممّا ورد في العهدين حول القصة، ولكن لا بأس أن نُطلع القارئ على إحدى الروايات الّتي وردت في شأن هذه القصة، وهي ممّا يعرق له الجبين: أخرج ابن أبي شيبة (واللفظ له)، وابن أبي حاتم عن ابن عباس، قال: إنّ داود(عليه السلام) حدّث نفسه إنِ ابتُلِيَ أن يعتصم، فقيل له إنّك ستُبتلى وتعلم اليوم الذي تُبتلى فيه، فخذ حذرك، فقيل له: هذا اليوم الذي تبتلى فيه، فأخذ الزبور فوضعه في حِجره، وأغلق باب المحراب، وأقعد مِـنْصَفاً على الباب، وقال: لا تأذن لأحد عليّ اليوم. فبينما هو يقرأ الزبور إذ جاء طائر مُذهَب كأحسن ما يكون الطير، فيه من كلّ لون، فجعل يدرُج بين يديه، فدنا منه، فأمكن أن يأخذه، فتناوله بيده ليأخذه فاستوفزه من خلفه، فأطبق الزبورَ وقام إليه ليأخذهُ، فطار فوقع على كوّة المحراب، فدنا منه أيضاً ليأخذه فوقع على خُصّ، فطار فأشرف عليه لينظر أين وقع، فإذا هو بالمرأة عند بركتها تغتسل من المحيض، فلمّا رأت ظلّه حرّكت رأسها، فغطت جسدها بشعرها، فقال داود للمِنصَف: اذهب فقل لفلانة تجيء، فأتاها فقال لها: إنّ نبي الله يدعوكِ، فقالت: ما لي ولنبي الله؟ إن كانت له حاجة فليأتيني، أمّا أنا فلا آتيه، فأتاه المِنصَف فأخبره بقولها، فأتاها فأغلقت الباب دونه فقالت: ما لك يا داود؟

أما تعلم أنّه من فعل هذا رجمتموها كذا، ولعلّ الصواب: رجمتموه.؟! ووعظته، فرجع.

وكان زوجها غازياً في سبيل الله، فكتب داود(عليه السلام) إلى أمير المَغْزى: انظر أُوريا فاجعله في حَمَلة التابوت ـ وكان حَمَلة التابوت إمّا أن يُفتح عليهم، وإمّا أن يقتلوا ـ فقدّمه في حملة التابوت فقُتل، فلمّا انقضت عدّتها خطبها، فاشترطت عليه إن ولدت غلاماً أن يجعله الخليفة من بعده، وأشهدت عليه خمسين من بني إسرائيل، وكتبت عليه بذلك كتاباً، فما شعر لفتنته أنّه فُتن حتى ولدت سليمان وشبّ، فتسوّر الملكان عليه المحراب، فكان شأنهما ما قصّ الله ، وخرّ داود(عليه السلام) ساجداً، فغفر الله له....

المصنّف لابن أبي شيبة: ١٦ / ٥٦٢، برقم ٣٢٥٥٦ ؛ تفسير الدر المنثور:٧/١٥٦.

وليست هذه الأسطورة هي الوحيدة في هذا المقام، بل تعدّد ذكرها بصور مختلفة، وقد نقلها السيوطي في تفسيره، فراجعه إن أحببت. لاحظ: تفسير الدر المنثور:٧/١٥٥ـ ١٦٠.

ونحن نعرض هذه الحكاية على القرآن الكريم لنعرف قيمتها من الصحّة، فهل يصحّ في منطق العقل أن تنسب هذه الخرافة إلى نبيّ يصفه سبحانه في هذه الآيات بصفات عشر، كلّ واحدة منها تدلّ على جلالته وتقواه، والصفات هي:

١. إنّ الله سبحانه يأمر نبيّه(صلى الله عليه وآله وسلم) وهو يُدعى إلى الصبر، كما يقول: (اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ)، يأمره أن يذكر في هذا المقام داود (عليه السلام)، ويقول: (وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ).

٢. يصفه بكونه (ذَا الأَيْدِ): أي القدرة التامّة التي منحها الله له.

٣. (إِنَّهُ أَوَّابٌ): أي رجّاع إلى الله سبحانه مرّة بعد أُخرى.

٤. تسخير الجبال معه والطير للتسبيح(وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ).( الأنبياء: ٧٩ .)

٥. تشديد ملكه كما يقول:(وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ).

٦. إيتاؤه الحكمة.

٧. إيتاؤه فصل الخطاب.

فمن كانت له هذه المواهب، هل يصحّ أن تنسب إليه هذه الأفعال المكذوبة؟

ولأجل ذلك كان الإمام عليّ(عليه السلام) يقول في حقّ مَن وضع هذه الترّهات أو ينسبها إلى النبيّ داود(عليه السلام): «لا أُوتى برجل يقول إنّ داود ارتكب فاحشة إلاّ ضربته حدّين: أحدهما للقذف، والآخر لأجل النبوّة». التبيان في تفسير القرآن: ٨ / ٥٥٥ .

٢٦. (يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ):

ثمّ إنّه سبحانه لما منّ على داود(عليه السلام) بالحكمة وفصل الخطاب، اقتضت المصلحة أن يتمتع الناس بهذه النعمة التي أُوتيها داود (عليه السلام) وعلى هذا فقوله في الآية السابقة:(وَآتَيْنَاهُ الحِكْمَةَ وَفَصْلَ الخِطاب) كأنّه مقدمة للخطابات التي توجّهت إلى داود في هذه الآية.

إذا عرفت ذلك فاعلم أنّه سبحانه في هذه الآية يخاطب داود بخطابات ثلاثة، ثم يتبعها ببيان المفاسد التي تترتّب على الضلال عن سبيل الله، وإليك بيان الجميع:

الأول: جعله خليفة في الأرض، كما قال:(يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ)، والخليفة هو مَن يخلف غيره ويقوم مقامه في تدبير الأُمور، والله سبحانه قد استخلف، في هذه الآية، داود على الناس، أي خوّله أمر تدبير المجتمع وإدارة شؤونه في إطار الأحكام والضوابط الّتي جاء بها الدين، ثمّ رتّب سبحانه على هذا الاستخلاف أمره بأن يحكم ويقود الناس بالعدل والحق، كما قال

:

الثاني: (فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ)، لما جُعل داود خليفة لله في الأرض فقد أُمر بأن يفصل بين المختلفين من الناس والمتخاصمين بالحق، لأنّه سبحانه عادل وهو حقّ بذاته، فيجب أن يكون خليفته حاكياً لوصفه وفعله، ولعلّ هذه الفقرة تدلّ على أنّ منشأ القوانين والحقوق هو الحقّ، فكلّ حكم بُني على الحقّ والعدل فهو الحكم النافذ سواء اكتسب أصوات الناس أم لا. وبهذا يختلف الإسلام عن التشريعات الوضعية التي تجعل ما يصوّت عليه الناس، هو القانون الذي يجب أن يُتَّبع سواء أكان مبنيّاً على العدل أم لا، أم كان مبنياً على الحقّ أم على الباطل، محقّقاً لمصالح الناس أم لا، وعلى هذا ـ مثلاً ـ أصبح الزواج المثلي أمراً قانونياً في بعض بلدان الغرب ـ وإن كان فيه مضار كثيرة كقطع النسل وفساد المجتمع ـ ، لماذا؟ لأنّه حظي برأي أكثرية النواب!!!

الثالث: (وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى) لماذا؟ لأنّ اتّباع الهوى يساوي العدول عن الحقّ والانحراف عن العدل، وفيه زعزعة للنظام الّذي يسود المجتمع، قال الإمام علي(عليه السلام):«إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ اثْنَتَانِ: اتِّبَاعُ الْهَوَى، وَطُولُ الأمَلِ». نهج البلاغة، الخطبة:٢٨.

وروي عن الإمام الباقر(عليه السلام):«ثلاث موبقات: شُحٌّ مطاع، وهوى مُتَّبع، وإعجاب المرء بنفسه». تفسير نورالثقلين:٤/٤٥٣.

ثمّ إنّه سبحانه يبيّن وجه النهي عن اتّباع الهوى، فقال: (فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ) وذلك لأنّ سبيل الله هو الحق والعدل.

فالقضاء دائر بين القضاء بالعدل والحق، وبين القضاء بالهوى والباطل، ولذلك روي عن النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه قال: «لسان القاضي بين جمرتين من نار، حتى يقضي بين الناس، فإمّا إلى الجنة، وإمّا إلى النار». الوسائل: ١٨، الباب٣ من أبواب آداب القاضي، الحديث٣.

ومن هنا يتبيّن أنّ لمنصب القضاء مكانة كبرى، وأنّه منصب إلهي لا يناله أحد إلاّ بإذن من الله سبحانه، وذلك لأنّ القاضي يتصرّف في الأموال والنفوس، وليس لأحد التصرّف فيهما كيفما شاء، وإنّما يختصّ ذلك بخالق الإنسان فإنّ خالقه أولى بالتصرّف فيه وفي أمواله، ولأجل ذلك يعتبر في صحّة القضاء ونفوذه كونه مأذوناً من قبل الله سبحانه إمّا مباشرة كأنبيائه ورسله، أو غير مباشرة كالمأذونين من قبلهم، ولذلك يقول الإمام علي(عليه السلام)لشريح القاضي: «يا شريح قد جلست مجلساً لا يجلسه إلاّ نبيّ أو وصي نبي أو شقّي». الوسائل:١٨، الباب١٣ من أبواب صفات القاضي، الحديث٢.وفي رواية أُخرى عن الإمام الصادق(عليه السلام) أنّه قال: «اتّقوا الله فإنّ الحكومة إنّما هي للإمام العالم بالقضاء، العادل في المسلمين، لنبي أو وصي نبي». الوسائل:١٨، الباب٢٣ من أبواب صفات القاضي، الحديث٦.

ثمّ إنّه سبحانه يهدّد كلّ مَن يضلّ عن سبيل الله بالعذاب الشديد، ويقول: (إِنّ الَّذِينَ يُضِلّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ) إنّما الكلام فيما هو المبدأ للانحراف عن سبيل الله، وهذا ما بيّنه قوله تعالى في آخر الآية: (بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ)فنسيان الآخرة ونسيان يوم الحساب ـ وأنّ كلّ إنسان مجزيّ بعمله إنْ خيراً فخير وإنْ شراً فشر ـ يجعل القاضي مطلق العنان يحكم بما يمليه عليه هواه ومصالحه، بخلاف المعتقد بدار الجزاء، فإنّه يكون عادلاً، عاملاً بأُصول الشرع، موضوعياً في أحكامه.

وممّن ابتُلي بهم المسلمون من قضاة الجور في عهد طغاة بني أُمية: بلال بن أبي بُردة بن أبي موسى الأشعري، قال عمر بن شبّة: كان بلال ظلوماً جائراً، لا يبالي ما صنع في الحُكم، ولا في غيره . تهذيب الكمال: ٤ / ٢٧١، الترجمة ٧٧٩ . وقال أبو العباس المبرّد: كان يقول: إنّ الرجلين ليختصمان إليّ، فأجد أحدهما أخفّ على قلبي، فأقضي له . تهذيب التهذيب: ١ / ٥٠١، الترجمة ٩٢٨ .

الآيات ٢٧ ـ ٢٩ (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ... وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ ):

الآيات: السابعة والعشرون إلى التاسعة والعشرين

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ * أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ * كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ ):

المفردات

باطلاً: عبثاً ولعباً.

فويل: ويل: دعاء للهلاك.

مبارك: كثير المنافع.

الألباب: واحدها لبّ وهو العقل.

التفسير

جاء بين القصّتين: قصّة داود(عليه السلام) وقصّة سليمان(عليه السلام)، أنّ الله سبحانه خلق السماوات والأرض وما بينهما لغاية من الغايات لا للّهو واللّعب، وأنّه يشتمل على حِكَم باهرة وأسرار بالغة، ومن تلك الحِكم جعل الإنسان خليفة في الأرض لغاية معرفة الله سبحانه ومعرفة أسمائه وصفاته ثم التخلّق بهما، إلى غير ذلك من الغايات، فيقع الكلام في ما هي المناسبة لذكر هذه القضية بين القصتين؟

ولعلّ وجه المناسبة أنّه سبق في قوله سبحانه أنّ مَن ضلّوا (عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ) فأخبر سبحانه في هذه الآيات بأنّه لولا يوم الحساب الّذي يُوفّى فيه كلّ إنسان جزاء عمله، للزم أن يكون إيجاد الكون لغواً وباطلاً، وتكويناً بلا غاية ولا غرض، وهذا لا يتّفق مع حكمة الباري جلّ وعلا، فقال:

٢٧. (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ):

إنّ الله سبحانه هو خالق السماوات والأرض وما بينهما، وإيجاد هذا النظام على غاية الإحكام يقتضي أن يكون لغاية من الغايات، ولولاها للزم العبث والبطلان في فعله سبحانه وهو حكيم نزيه عنه، كما يقول :(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً) ولا يقول بذلك المؤمن بالله الحكيم بل (ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا): أي أنّ خلْق هذا العالَم بلا غاية، هو ظنّ الكافرين الّذين لا يؤمنون بالبعث. ثمّ توعّد سبحانه مَن هذه صفته، فقال: (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ).

وبعبارة أُخرى: أنّ الحياة الدنيوية يشترك فيها المؤمن والكافر، والظالم والعادل، فلو لم يكن وراء هذه الدنيا حياة أُخرى يُجازى فيها المحسنون والمسيئون كلٌّ وِفقَ عمله، للزم أن يكون الخلق بلا غاية، والخلوّ عن الغاية يلازم كون فعله عبثاً، والفاعل عابثاً.

إنّ إنكار البعث والجزاء يلازم كون نظام الكون مجرّداً عن الغاية ولابدّ لتنزيه الحقّ عن العبث، كون النظام مقروناً بالغاية، وهو وجود الحياة على البسيطة واختبار الناس وتكليفهم ومجازاة الجميع بعملهم أنفسهم.

٢٨. (أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ):

(أَمْ) في المقام إضرابية لكن لا بمعنى الإعراض عن السابق وإبطال له، بل إعراض عنه لبيان أمر فوقه، وهو تنبيه الكافرين بأنّ إنكار البعث بمعنى الحكم بالمساواة بين الصالح والطالح والمتقي والفاجر، كما يقول: (أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ) وكأنّ إنكار يوم البعث يلازم التسوية وهي مرفوضة في منطق العقل.

ثمّ هنا أمران:

الأوّل: لا شكّ أنّ الله سبحانه هو الغنيّ المطلق، والقول بأنّ فعله لغاية ربّما يُفهم منه أنّ له حاجة، ويريد بهذا الفعل رفع حاجته، فما معنى القول بأنّ الله سبحانه يعمل لغرض ولا يعبث لأنّه حكيم، والفعل المجرّد عن الغاية فعل الفاعل العابث لا فعل الحكيم؟

أقول: كون الفاعل فاعلاً لغاية على معنيين:

أحدهما: ما مرّ في السؤال وهو أن يكون للفاعل حاجة يريد بفعله رفعها، وهذا محال على الله سبحانه.

ثانيهما: أن يراد أنّ لفعله غاية، أي ليس فعله عبثاً وإن لم تكن له هو حاجة يريد رفعها بذلك الفعل، فالله سبحانه لم يخلق السماوات والأرض باطلاً وعبثاً وإنّما خلقها لغاية ترجع إلى فعله، والذي له ترجع الغاية والفائدة إنّما هو المخلوق نفسه لا الخالق، ولذلك قال تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ) الذاريات:٥٦.ونظير ذلك مثلاً: أنّ إنساناً ثريّاً يبني مستشفى لمداواة المستضعفين من الرجال والنساء، فهو في غاية الغنى عن هذا الفعل وما يترتّب عليه، ومع ذلك ففعله ليس فعلاً عابثاً وباطلاً وإنّما يستعقب ويترك غاية إنسانية.

الثاني: المعروف بين الأشاعرة أنّ فعله سبحانه مجرّد عن الأغراض والغايات، وهذه الضابطة صحيحة بالمعنى الأوّل ـ أي أنّ الغاية المكمّلة لفاعلية الفاعل، كما في الإنسان إذ لولا الغاية لا يقوم الفاعل بالعمل، والله سبحانه فاعل تام لا يحتاج في عمله إلى أمر خارج عن ذاته ـ وأمّا بالنسبة إلى المعنى الثاني فغير صحيح، وهذا محجوج بالآيات الكثيرة مضافاً إلى حكم العقل.

الثالث: إنّ قوله سبحانه: (أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)إشارة إلى أنّ الإنسان المجرّد عن كلّ هوى يميّز الحسن عن القبيح وأنّ معرفتهما أمر عقلي لا شرعي ويحكم بأنّ التسوية بينهما أمر باطل، والله سبحانه يستدلّ على بطلان عقيدة الكافرين بما عليه ارتكاز الإنسان وفطرته، وقد أوضحنا ذلك في رسالتنا حول الحسن والقبح، فراجع. وقد مضى ما يفيدك في سورة النحل عند تفسير قوله: (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ) النحل: ٩٠ . فلاحظ .

٢٩.(كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ):

لمّا مرّ في الآيتين السابقتين أنّ فعله سبحانه منزّه عن العبث أشار في هذه الآية إلى أنّ ما جاء به النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) كتاب(مُبَارَكٌ) كما قال:(كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ): أي ذو خير مستمر ووافر، فلو تدبّروا آياته لظهر لهم أنّ خلق السماوات والأرض حقّ كما هم ينطقون، فعلى ذلك (لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ): أي لغاية التدبّر والتذكّر.

ثمّ إنّه سبحانه لم يذكر متعلّق التدبّر وقال: (لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ) فيكون جميع الناس مأمورين بالتدبّر، وإنّما خصّ التذكّر بأُولي الألباب، لأنّ التذكّر من شؤون أصحاب العقول حتى يرجعوا إلى فطرتهم ويميّزوا الحقّ عن الباطل.

## قصّة سليمان(عليه السلام)

الآيات ٣٠ ـ ٣٣ (وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ... فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ).

## الآيات: الثلاثون إلى الثالثة والثلاثين

(وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ * فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ *رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ).

### المفردات

العشيّ: مقابل الغداة، وهو آخر النهار بعد الزوال.

الصافنات: جمع الصافنة، وهي الخيل الواقفة على ثلاثة قوائم وطرف حافر الرابعة.

الجياد: جمع جواد، وهي السّراع من الخيل كأنّها تجود بالركض.

الخير: ضد الشر، وقد يطلق على المال كما في قوله سبحانه: (إِنْ تَرَكَ خَيْرًا) البقرة:١٨٠، والمراد به هنا الخيل، وكانت العرب تُسمّي الخيل خيراً، وسمّى رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) زيد الخيل بـ : «زيد الخير»، وروي عنه (صلى الله عليه وآله وسلم)أنّه قال: «الخير

معقود بنواصي الخيل إلى يوم القيامة».

حبّ الخير: بدل عن المفعول المحذوف، وتقديره: إنّي أحببت الخيل حبّ الخير.

عن ذكر ربّي: بيان لمنشأ حبّه للخير وسببه، وأنّ حبّه له ناشئ من ذكر ربّه.

توارت بالحجاب: غُيّبت عن البصر، لأنّ ركض الخيل يثير الغبار.

طفق: شرع.

مسحاً: المسح: إمرار اليد على الجسم.

بالسوق: السوق: جمع الساق.

## التفسير

قبل أن نشرع في تفسير الآيات، نذكر إجمال القصة ليتّضح به مضمون الآيات، وهو أنّ النبيّ سليمان(عليه السلام) قام في عشيّة يوم بعرض عسكري، حيث أجرى الفرسان والخيل بين يديه إلى أن غابت عن بصره، فأمر أصحابها بردّها عليه، حتّى إذا ما وصلت إليه، شرع يمسح أعناقها وسيقانها، تعبيراً عن سروره بها واستحسانه لها، ولم يفعل ذلك لجهة إظهار القدرة والسطوة أو للبطر والشهوة، بل إطاعة لأمر الله سبحانه وذكره، حتى يقف الموحّدون على وظائفهم، ويستعدّوا للكفاح والنضال ما تمكّنوا، ويهيئوا الأدوات اللازمة في هذا المجال.

هذا هو المفهوم من الآيات وليس في هذا الفعل أي شيء يضادّ عصمة الأنبياء، بل يدلّ على أنّ الملك أو القائد يجب أن يقوم بعروض عسكرية، ليطمئنّ إلى وسائل قوّته التي يعدّها لميادين الجهاد.

إذا عرفت ذلك، فلندخل في تفسير الآيات:

٣٠. (وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ):

من نعمه سبحانه الجزيلة على داود أنّه وهب له ولداً باسم سليمان، مضافاً إلى سائر النِّعم، كما قال: (وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ) ولداً (سُلَيْمانَ نِعْمَ الْعَبْدُ)سليمان (إِنَّهُ أَوَّابٌ): أي رجّاع إلى الله تعالى في عامّة الأُمور ابتغاء مرضاته. وهذا الوصف الرفيع قد وُصف به داود نفسه، كما تقدّم في قوله تعالى: (وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ).

## سليمان(عليه السلام) واستعراضه الخيل تفسير خاطئ للقصّة

### سليمان(عليه السلام) واستعراضه الخيل

٣١. (إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ):

لمّا سبق أن أثنى عليه سبحانه بقوله: (نِعْمَ الْعَبْدُ) شرع يذكر شيئاً من أفعاله الممدوحة، فما سيوافيك من فعله فهو من مدائحه، قال تعالى اذكر: (إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ): أي امدحه إذ عُرض عليه الجياد الصافنات من العصر حتى آخر النهار، ليتعرّف على مدى نشاطها ومقدار صلاحيتها للاستخدام في القتال والجهاد، وهذا يدلّ على أنّ عرض الجياد للقائد أمر يُعدّ أمراً إلهياً لا لعباً ولا بطراً، وإنّما قام سليمان باستعراض الخيل أمام عينيه، لأنّها كانت أمضى وسيلة في الحرب، وأمّا اليوم فالعرض يكون بشكل آخر، يتناسب مع الظروف المحيطة.

٣٢. (فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ):

أي إنّي أحببت حب الخيل نابعاً (عَنْ ذِكْرِ رَبِّي)، وأفعل هذا عن أمر ربّي لا عن هوى في نفسي (حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ): أي أُجريت وغابت عن بصره، حيث إنّ جرْيَ الخيل يثير غباراً غليظاً يشكل حجاباً بين الناظر والخيل. وقيل: المراد بالحجاب: حجاب

الظلام، والمعنى: أنّه (عليه السلام) مازال ينظر إلى الخيل، ويستعرض بعينه تناسب أعضائها، وتناسق بنائها، حتّى توارت عنه بهذا الحجاب الّذي أرخاه الليل عليها، إذ أنّ عَرْضَها عليه كان بالعشيّ، أي في آخر النهار. انظر: التفسير القرآني للقرآن: ١٢ / ١٠٨٣ ـ ١٠٨٤ .ولمّا غابت عن بصره أمر بردّها، كما يقول:

٣٣.(رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ):

أي لمّا أمر بردّها وجاءت الخيل إلى مجلس سليمان، أخذ (عليه السلام)يمسح سيقانها وأعناقها سروراً بها وتعبيراً عن إكرامه لها لما لها من دور مهمّ في منازلة الأعداء .

هذا هو مجمل القصة وهذا هو تفسير الآيات، غير أنّ عدداً من المفسّرين قد فسّر الآيات بما لا يليق بساحة النبيّ(عليه السلام) الذي وصفه الله سبحانه بقوله: (نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ)، وذلك اعتماداً على روايات غير موثوقة، لا يصحّ الركون إليها.

تفسير خاطئ للقصّة

ثمّة تفسير آخر للآيات، لا يقبله العقل ولا ينسجم مع منطق الوحي ولا ظاهر الآيات، ويبدو عليه تأثير الإسرائيليات الّتي تسرّبت إلى كتب الحديث، قالوا: إنّ سليمان (عليه السلام) استعرض خيلاً له في العشيّ ففاتته صلاة كان يصلّيها قبل الغروب، فقال: ردّوها عليّ، فردّوها عليه فجعل يضرب أعناقها وسيقانها جزاء ما شغلته عن ذكر ربه.

وهذا التفسير ممّا نقده العلماء المحقّقون الذين ينزّهون المعصومين عن كلّ ما يمسّ ساحتهم المقدّسة، قال السيد المرتضى: ظاهر الآية لا يدلّ على إضافة قبيح إلى النبيّ، والرواية إذا كانت مخالفة لما تقتضيه الأدلّة لا يُلتفت إليها لو كانت قويّة ظاهرة، فكيف إذا كانت ضعيفة واهية، والذي يدلّ على ما ذكرناه على سبيل الجملة أنّ الله تعالى ابتدأ الآية بمدحه والثناء عليه، فقال: (نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ) وليس يجوز أن يثني عليه بهذا الثناء ثم يتبعه من غير فصل بإضافة القبيح إليه، وأنّه تلهّى بعرض الخيل عن الفعل المفروض عليه من الصلاة.

والّذي يقتضيه الظاهر أنّ حبه للخيل وشغفه بها كان عن إذن ربه وأمره وبتذكيره إيّاه، لأنّ الله تعالى قد أمرنا بإرباط الخيل وإعدادها لمحاربة الأعداء، فلا ينكر أن يكون سليمان(عليه السلام)مأموراً بمثل ذلك. تنزيه الأنبياء:٩٥، ونقله عنه المجلسي في بحار الأنوار:١٤/١٠٣.

ومن أراد التفصيل في نقد هذا التفسير وبطلان الروايات الواردة في شأن هذه القصة، فليرجع إلى كتابنا «القصص القرآنية». لاحظ : القصص القرآنية:٢/٢٦٥ـ٢٧٢.

| |
|---|
| الآيات ٣٤ ـ ٤٠ (وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ... وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآب ). |
| الآيات: الرابعة والثلاثون إلى الأربعين |
| (وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ * قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَ يَنْبَغِي لأَحَد مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ * فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ * وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاء وَغَوَّاص * وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ * هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَاب * وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآب ). |
| المفردات |
| فتنّا: ابتلينا.<br>جسداً: أي جسماً بلا روح.<br>أناب: رجع. |

رُخاء: ليّنة.

أصاب: قصد.

مقرّنين: مربوطين.

الأصفاد: واحدها صفد، وهو الغُلّ الذي يجمع اليدين إلى العنق.

لزلفى: الزلفى: التقرّب والكرامة.

مآب: مرجع.

التفسير

الفتنة الّتي امتُحن بها سليمان(عليه السلام)

٣٤ و ٣٥. (وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ * قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَ يَنْبَغِي لأَحَد مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ):

يحكي القرآن الكريم ضمن هاتين الآيتين أنّه سبحانه قد امتحن سليمان (عليه السلام)بإلقاء جسد على كرسيّه، ثم يحكي عن استغفاره وطلبه من الله سبحانه أن يهب له ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، وتوضيح مفاد الآيات رهن البحث عن مفاد الأُمور التالية:

١. ما هي الفتنة التي امتحن بها سليمان؟

٢. ما معنى طلب المغفرة مع التمسّك بحبل العصمة؟

٣. لماذا يطلب لنفسه الملك؟

٤. لماذا يطلب ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده؟

أمّا السؤال الأوّل، فنجيب عنه بالقول: إنّ موضوع الفتنة لم يرد في القرآن الكريم إلاّ في هذه الآية وهو قوله سبحانه:(وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ): أي اختبرناه وابتليناه وشدّدنا المحنة عليه (وَأَلْقَيْنَا): أي طرحنا (عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا)لا روح فيه، والآية تشير إلى حادثة ما، ولكنّها لم تفصّل فيها لتتوضّح حقيقتها.

وأمّا الروايات، فقد نقل أهل الحديث حول تبيين الفتنة روايات يلوح منها أنّها إسرائيليات، بثّها أحبار اليهود بين المسلمين، وقد ابتلي بها المسلمون في كثير من المجالات التفسيرية والتاريخية والعقائدية وغيرها، ورجاؤنا من الله سبحانه أن يقيّض جماعة من العلماء المحقّقين ويوفّقهم لتنقية الكتب الإسلامية منها وتنقيحها وتهذيبها.

ولكن من بين هذه الروايات ما يمكن أن يُركن إليه، وهو ما قيل: كان لسليمان ولد شاب ذكي كان يحبّه حبّاً شديداً، فأماته الله على بساطه فجأة بلا مرض، اختباراً من الله تعالى لسليمان وابتلاء لصبره في إماتة ولده، وألقى جسمه على كرسيه. تنزيه الأنبياء:٩٩، الطبعة القديمة.

ولا شكّ أنّ الابتلاء بموت الولد الشاب من أعظم الابتلاءات، والصبر في هذا المجال وتفويض الأمر إلى الله سبحانه آية كمال النفس، فلم يكن الهدف من الابتلاء إلاّ أن يتفتح الكمال المركوز في ذات سليمان، حتى يخرج من القوّة إلى الفعل .

قال سيد قطب عند تفسيره لحادثتي الصافنات الجياد، والجسد الّذي أُلقي على كرسي سليمان: كلتاهما إشارتان لم تسترح نفسي لأي تفسير أو رواية ممّا احتوته التفاسير والروايات عنهما، فهي إمّا إسرائيليات منكرة، وإمّا تأويلات لا سند لها. ولم أجد أثراً صحيحاً أركن إليه في تفسيرهما وتصويرهما سوى حديث صحيح في ذاته، ولكن علاقته بأحد هذين الحادثين ليست أكيدة.

وهذا الحديث هو ما رواه أبو هريرة عن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، وأخرجه البخاري في صحيحه مرفوعاً، ونصّه: «قال

سليمان:
لأطوفنّ الليلة على سبعين امرأة، كلّ واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، ولم يقل«إن شاءالله»، فطاف سليمان عليهن، فلم تحمل إلاّ امرأة جاءت بشِقّ رجل، والذي نفسي بيده: لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون».
وأضاف: وجائز أن تكون هذه هي الفتنة التي تشير إليها الآيات، وأن يكون الجسد هو هذا الوليد الشِّق، ولكن هذا مجرد احتمال. في ظلال القرآن الكريم:٢٣/٩٩.
ونحن نعجب من استراحة نفسه إلى هذا الأثر الّذي اعتبره صحيحاً في ذاته، ولم يعدّه من الإسرائيليات المنكرة!! فهو من رواية أبي هريرة، الّذي كان ـ على حدّ تعبير الشيخ محمود أبوريّة ـ أكثر الصحابة وثوقاً بكعب الأحبار، وأخذاً عنه، وانقياداً له، وقد استطاع هذا اليهودي (كعب الأحبار) ـ والكلام مازال لأبو ريّة ـ بوسائله الشيطانية أن يدسّ من الخرافات والأوهام والأكاذيب في الدين ما امتلأت به كتب التفسير والحديث والتاريخ، فشوّهتها وأدخلت الشكّ إليها، ومازالت تهدّدنا بأضرارها.( انظر: أضواء على السنة المحمّدية:١٥٦(الطبعة الثانية).)
وأمّا السؤال الثاني، أعني: ما معنى طلب المغفرة مع التمسّك بحبل العصمة؟ ـ فنجيب عنه بالقول:
لقد أشار سبحانه إلى طلب سليمان هذا بقوله: (ثُمَّ أَنَابَ): أي رجع إلى الله ممّا صدر منه، بقوله:(قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي)، والظاهر أنّ سليمان(عليه السلام)كان له في ابنه رجاء أو أُمنيّة، فأماته الله تعالى وألقاه على كرسيه، حتى يوقفه على أنّ حق العبودية تفويض الأمر إلى الله والتسليم إليه. ولعلّ هذا المقدار من الرجاء وعقد الأُمنيّة على الولد يُعدّ نحو انقطاع عن الله إلى الولد.
وهو وإن لم يكن معصية، ولكنّ الأليق بحال الأولياء غيره. ولأجل ذلك لما استشعر بوظيفته التي يوجبها مقامه، أناب إلى الله ورجع إليه وطلب المغفرة كما يقول سبحانه:(ثُمَّ أَنَابَ * قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي).
وقد ثبت في محلّه أنّ طلب المغفرة ليس دليلاً على العصيان وصدور الذنب، بل كلّ فعل أو ترك صدر من الرجال العارفين بحقّ الربوبية وعمق العبودية، وكان الأَولى والأليق خلافه، استوجب طلب الغفران، وإن لم يكن معصية وخلافاً في منطق الشرع، ولأجل ذلك نجد أولياء الله لم يزالوا مستغفرين كلّ يوم وليلة لسعة استشعارهم بعظمة الوظيفة في مقابل عظمة الخالق.
وأمّا السؤال الثالث ـ أعني: لماذا طلب الملك لنفسه ـ وهو ما أُشير إليه بقوله:(وَهَبْ لِي مُلْكًا)فربما يقال: بأنّ طلب الملك من الله سبحانه يعادل طلب التسلّط على الناس، ولا يخلو مثل هذا عن نوع تفوّق عليهم، وهذا ليس من أخلاق الأنبياء وشؤونهم؟
والجواب: أنّ المُلك الذي طلبه سليمان، لم يكن مقصوداً لذاته، لأنّ مثل هذا الملك لا ينفكّ عن الظلم والإفساد والإذلال وهضم الحقوق، وهو ما أُشير إليه في الآيتين الكريمتين:(إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ) النمل:٣٤، و (أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ
يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَة غَصْبًا) الكهف:٧٩. ، وتاريخ أكثر الملوك والسلاطين في الماضي والحاضر، يضجّ بممارساتهم القمعية والدموية، وأعمالهم الإجرامية.
إنّ سليمان(عليه السلام) لم يطلب مُلك الجبابرة هذا الغارق في الظلم والآثام، وإنّما طلب الملك الذي يقيم به منهج الله في الأرض، ذلك المنهج الّذي يُحرّر الإنسان من القهر والاستعباد، ويكفل له السعادة والعيش الكريم، ويوفّر له مصالحه الحقيقية، وفق موازين العدل، ومَن كان هذا هدفه ـ وقد أُوتي العلم والحكم وتشرّف بالنبوة والوحي ـ لا يسأل الملك لذات الملك؛ بل لتلك الغاية النبيلة.
ولأجل أنّ المتبادر من المُلك ـ في أذهان العامّة ـ هو السلطة الجائرة، نجد الذكر الحكيم عندما يصف الله بـ(المَلِك) يردفه

بـ (القُدُّوس) للإشارة إلى أنّ ملكه وسلطانه يفترقان عن ملك وسلطان غيره، فالله سبحانه في حين كونه مَلِكاً للعالَم، قدّوس منزَّه عن كلّ عيب وشَين، وعن كلّ بغي وظلم، فهو: (الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ).( الحشر:٢٣.)

نقل أهل السِّيَر أنّ النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يقول: «لست بمَلك» مع أنّه كان حاكماً إلهياً، ورئيس دولة إسلامية أسّسها منذ بدء وروده المدينة، ومراده من ذلك إبعاد نفسه عمّا يتبادر إلى أذهان العامّة عند سماع ذلك اللفظ، وأنّه ليس من تلك الزمرة، بل هو حاكم إلهي يسعى لصالح الأُمّة حسب القوانين الإلهية.

وبالجملة: ثمّة فرق بين السلطة التي تسيّرها الغرائز المادّية، والسلطة التي تديرها النبوّة، ويكبح جماحها الخوف من الله، والعشق لرضوانه، والذي طلبه سليمان في الآية إنّما هو الثاني، وهو عمل إلهي وخدمة للدين وعمل مقرّب، دون الأوّل.

ولأجل أن لا تذهب أذهان الصحابة إلى المعنى المتبادر من لفظ «الملك» قام رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) بتوضيح ما طلب سليمان لنفسه من الله سبحانه وقال: «أرأيتم ما أُعطي سليمان بن داود من ملكه؟ فإنّ ذلك لم يزده إلاّ تخشُّعاً، ما كان يرفع بصره إلى السماء تخشُّعاً لربّه». روح البيان:٨/٣٩.

وقد أوضحنا حقيقة السلطة الإسلامية التي دعا إلى إقامتها الكتاب والسنّة، وملامحها وأهدافها في موسوعتنا «مفاهيم القرآن»، فلاحظ.( لاحظ: مفاهيم القرآن:١٢/١١ـ٧٢.)

وأمّا السؤال الرابع ـ أعني: لماذا طلب ملكاً لا ينبغي لغيره؟ ـ وهو الطلب الّذي حكاه عنه تعالى بقوله: ( وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَ يَنْبَغِي لأَحَد مِنْ بَعْدِي)،وربما يقال: إنّ كلامه هذا يحكي عن البخل والضنّ، حيث إنّه يطلب ملكاً خاصّاً به ولا يكون لغيره..؟

أمّا هذا السؤال فنجيب عنه بالقول: إنّ سليمان (عليه السلام)لم يقل ذلك ضنّاً ولا بخلاً على الغير، وإنّما قال ذلك، باعتبار أنّ الملك الذي طلبه لا يصلح (في منطق العقل والشرع) أن يمارسه إلاّ هو، أو من هو نظيره في العلم والإيمان، وذلك لأنّه سبحانه يبيّن ملامح هذا المُلك، بقوله: (فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ * وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاء وَغَوَّاص *وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ * هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَاب * وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآب)فالآيات ـ الواردة بعد طلب الملك ـ بحكم «الفاء» في قوله: (فَسَخَّرْنَا لَهُ)تدلّ على أنّه لم يطلب مطلق المُلك، وهو السلطة التي يصحّ أن يمارسها المتعارف من الناس خصوصاً إذا كانوا من الصلحاء، وإنّما طلب من القدرة ما يصل بها إلى حدّ أن يسخّر له الريح والجن والطير. ومثل هذه القدرة لا تصحّ في منطق العقل أن تقع في متناول المتعارف من الناس، لأنّ وجودها في متناول غير المعصوم يؤدّي إلى الاستعلاء والطغيان وتجاوز الحدود وادّعاء الربوبيّة، إلى غير ذلك من عظيم الفساد، وإنّما تكون مقرونة بالصلاح والفلاح إذا مارسها نبي عارف بعظمة المسؤولية أمام الله أوّلاً، وأمام العقل والوجدان ثانياً، وأمام الخلق ثالثاً.

ولأجل ذلك قال:(لاَ يَنْبَغِي لأَحَد مِنْ بَعْدِي) ويريد منه الإنسان المتعارف غير المتمسّك بحبل العصمة، وغير المتحلّي بالنبوّة، فإنّ هذا الملك ـ لما عرفت ـ لا ينبغي لإنسان غير معصوم، وإنّما ينبغي لسليمان ومن يكون بمنزلته من الصيانة والعصمة.

وإلى ما ذكرنا يشير السيّد المرتضى ويقول: إنّما التمس أن يكون ملكه آية لنبوّته، ليتبين بها عن غيره ممّن ليس بنبي. تنزيه الأنبياء:١٠٠.

وقال الزمخشري : كان سليمان(عليه السلام) ناشئاً في بيت المُلك والنبوة، ووارثاً لهما، فأراد أن يطلب من ربّه معجزة، فطلب على حسب إلفه مُلكاً زائداً على الممالك زيادة خارقة للعادة، بالغة حدّ الإعجاز، ليكون ذلك دليلاً على نبوّته، قاهراً للمبعوث إليهم، وأن يكون معجزة حتّى يخرق العادات، فذلك معنى قوله: (لاَ يَنْبَغِي لأَحَد مِنْ بَعْدِي). تفسير الكشّاف:٣/٣٢٩.

ثمّ إنّ السؤال حول الآية ليس أمراً جديداً، فقد روي أنّ علي بن يقطين سأل أبا الحسن موسى بن جعفر(عليه السلام) قائلاً:

أيجوز أن يكون نبي الله بخيلاً؟ فقال(عليه السلام): «لا»، قال: فقلت له: قول سليمان(عليه السلام): (ربّ اغفِر لي وَهَبْ لي مُلكاً لا يَنبغي لأحد مِنْ بَعدي) ما وجهه ومعناه؟ فقال:

«الملك ملكان: ملك مأخوذ بالغلبة والجور وإجبار الناس، وملك مأخوذ من قبل الله تعالى كملك آل إبراهيم وملك طالوت وذي القرنين، فقال سليمان(عليه السلام): هب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي أن يقول إنّه مأخوذ بالغلبة والجور وإجبار الناس، فسخّر الله عز وجلّ له الريح تجري بأمره رخاءً حيث أصاب، وجعل غدوها شهراً ورواحها شهراً، وسخّر الله عزّ وجلّ له الشياطين كل بنّاء وغوّاص، وعُلِّم منطق الطير ومُكّن في الأرض، فعلم الناس في وقته وبعده، أنّ مُلكه لا يشبه مُلك الملوك المختارين من قبل الناس، والمالكين بالغلبة والجور».( تفسير نور الثقلين:٤/٤٦٠.)

وحاصل الكلام: أنّ الملك الذي منحه الله لسليمان ـ كما سيوافيك شرحه في الآيات التالية ـ لا يليق بغير الأنبياء، لأنّه لو كان في يد غيرهم لصار مصدراً للترفّع والتكبّر على الناس والعُجب، ثم يترتّب عليه ما يترتّب، ولذلك بيّن الله سبحانه بعد هذه الفقرة، ما منحه من عظائم النعم وكبائر المنح، وهي تتلخص في الأُمور التالية:

### أ. تسخير الريح

٣٦. (فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ):

يظهر من الآية أنّه سبحانه قد استجاب دعاء سليمان(عليه السلام) ولذلك سخّر له الريح كما يقول:(فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ): أي بأمر سليمان(رُخَاءً)ليّنة (حَيْثُ أَصَابَ): أي حيث أراد سليمان من النواحي، وحيث قصد.

لا شكّ أنّ للصفوة من عباده سبحانه ولاية تكوينية ومقدرة موهوبة على التصرّف في الكون بإذنه سبحانه لغايات مقدّسة لإثبات نبوّتهم وكونهم مبعوثين من الله سبحانه لهداية عباده أو للتوسّل بها في طريق النصر على أعدائهم. وتسخير الريح لسليمان من شُعب الولاية التكوينية، وقد ورد ذكره في غير هذه الآية أيضاً، قال تعالى: (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ التِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْء عَالِمِينَ). الأنبياء:٨١ .

وتسأل: هل ثمّة تناقض بين الوصفين، حيث وصفها في هذه الآية بالعاصفة (وهي الريح الشديدة)، وفي المقام بالرُّخاء (وهي الريح اللَّيِّنة)؟

والجواب: يجوز أن يكون الله سبحانه جعلها عاصفة تارة ورخاء أُخرى بحسب ما أراد سليمان.( مجمع البيان:٤/٤٤٧.)

ويمكن أن يقال: إنّ الريح المسخَّرة لسليمان (عليه السلام)كانت بذاتها عاصفة ولكنّها تجري رخاءً بأمره، ويشهد لذلك، أنّه سبحانه وصف الريح نفسها بالعصف في قوله: (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً) ولكنّه جعل في قوله: (فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً)، جعل وصف جريها بالرخاء معلولاً لأمره ومسبّباً عنه، فكأنّه قال سبحانه: فسخرنا له الريح العاصفة لكنّها تجري رخاءً بأمره.

فالعصف صفة للريح في الآية الأُولى، والرخاء في الآية الثانية قَيْد لجريان الريح أي تجري رخاء، وما هذا إلاّ بأمر سليمان.

ولعلّه إلى ذلك يشير العلاّمة الطباطبائي بقوله: المراد بكون الريح تجري بأمره رخاء، مطاوعتها لأمره وسهولة جريانها على ما يريده(عليه السلام) فلا يرد أنّ توصيف الريح هاهنا بالرخاء يناقض توصيفه في قوله: (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ).

الميزان في تفسير القرآن: ١٧/٢٠٦.

هذا، وللمفسّرين في كيفية هذا التسخير وفائدته، أقوال، منها:

١. إنّ الريح كانت تحمل سليمان(عليه السلام) (أو تحمله وتحمل من معه) وتنقله إلى حيث يريد. قال قتادة في تفسير قوله تعالى

في سورة سبأ: (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ)( سبأ: ١٢ ). كانت الريح تقطع به(عليه السلام)من الغدوّ إلى الزوال مسيرة شهر، ومن الزوال إلى الغروب مسيرة شهر. تفسير المراغي:٦٦/٢٢. وانظر: تفسير الكشّاف: ٢٥٣/٣، والميزان في تفسير القرآن:٣١٣/١٤، والتفسير الكاشف: ٢٥٢/٦ .

٢. إنّ الريح تجري وفق مصلحة يدركها سليمان(عليه السلام) ويحقّقها بأمر الله. أمّا قصّة بساط الريح الّذي روي أنّ سليمان كان يجلس عليه هو وحاشيته، فيطير بهم إلى الشام في فترة وجيزة، فلم يذكر القرآن شيئاً عنه، كما لم يرد ذكره في أي أثر مستيقن، وعليه فالأسلم تفسير تسخير الريح بتوجيهها ـ بأمر الله ـ إلى الأرض المباركة في دورة تستغرق شهراً، طرداً وعكساً. انظر: في ظلال القرآن:٤٧/١٧، وج ٦٨/٢٢.

٣. إنّ معنى تسخيره الريح: خلق ريح تلائم سير سفائنه للغزو أو التجارة، فجعل الله لمراسيه في شطوط فلسطين رياحاً موسمية تهبّ شهراً مُشَرّقة لتذهب في ذلك الموسم سفنه، وتهبّ شهراً مُغرّبة لترجع سفنه إلى شواطئ فلسطين.( التحرير والتنوير: ٢٧/٢٢).

ب. استخدام الشياطين للبناء والغوص

٣٧ و ٣٨ .( وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاء وَغَوَّاص * وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ):

قوله تعالى : (وَالشَّيَاطِينَ)عطف على الريح، أي وسخرنا له الشياطين من الجنّ أيضاً (كُلَّ بَنَّاء)في البرّ يبني له ما أراد من الأبنية الرفيعة (وَغَوَّاص)في البحر عن اللآلئ والجواهر فيستخرج له ما يشاء منها.

ج. حبس الشياطين المتمرّدين

قوله تعالى: (وَآخَرِينَ): أي وآخرين من الشياطين (مُقَرَّنِينَ)مربوطين (فِي الْأَصْفَادِ): أي السلاسل الحديدية، وذلك لتمرّدهم وعصيانهم، أو لسوء صنيعهم.

د. تخييره بين العطاء والإمساك بغير حساب

٣٩.(هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَاب)

ثمّ إنّه سبحانه بعدما ذكر ما وهب له من العطايا قال: (هَذَا عَطَاؤُنَا): أي ما تقدّم ذكره (فَامْنُنْ): أي امنحْ مَن تشاء (أَوْ أَمْسِكْ): أي امنع عمّن تشاء (بِغَيْرِ حِسَاب): أي لا حساب عليك لا في الإعطاء ولا في الإمساك فلا تُسأل عمّن أعطيته ولا عمّن أمسكت عنه.

هـ. منزلته الكبرى عند الله

٤٠. ( وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآب):

الآية تحكي أنّ لسليمان وراء ما وهبه الله سبحانه من النّعم الدنيوية مقاماً رفيعاً، كما قال (وَإِنَّ لَهُ): أي لسليمان (عِنْدَنَا لَزُلْفَى) أي قربى وكرامة (وَحُسْنَ مَآب) أي وحسن مرجع. أي: في الدار الآخرة، فالله سبحانه كتب له السعادة في الدنيا والكرامة في الآخرة.

إذا وقفت على ما منح الله سبحانه نبيّه سليمان من النعم والعطايا، وما منّ عليه بتلك المنزلة العليا من القرب إليه تعالى، عرفت سموّ شخصيته (عليه السلام)ومدى تحلّيه بالورع والتقوى والعفاف، وكثرة الطاعة لله، والاستقامة على منهاجه، ومن كانت هذه حاله لا يمكن أن تُقبل في شأنه تلك القصص والأخبار الّتي وردت ـ مع بالغ الأسف ـ في كتب العديد من المفسّرين والمحدّثين، والّتي تضمّنت أُموراً لا تليق إلاّ بمتّبعي الأهواء والشهوات، ولا شكّ في أنّها مأخوذة عمّن ديدنه النيل من كرامة الأنبياء والعظماء وقدسيّتهم، ونسبة القبائح إليهم، وفي مقدّمتهم اليهود .

## قصة أيّوب(عليه السلام)

الآيات ٤١ ـ ٤٤ (وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ ... نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ).

الآيات: الحادية والأربعون إلى الرابعة والأربعين

(وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْب وَعَذَابِ * ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرى لأُولِي الأَلْبَابِ * وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلاَ تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ).

### المفردات

بنُصب: النُّصْب والنَّصَب: المشقّة والتعب.

عذاب: العذاب: الإيجاع الشديد.

اركض برجلك: اضرب بها على الأرض.

مُغتَسَل: المُغتَسَل: الموضع الّذي يُغتَسَل منه، والماء الّذي يُغتسَل به .

ضغثاً: الضِّغْث: الحزمة الصغيرة من حشيش أو ريحان أو قضبان.

تحنث: الحنث (في اليمين): عدم الإيفاء بموجبها.

### التفسير

يُعدّ النبيّ أيّوب(عليه السلام) من الأنبياء الذين نصّ القرآن المجيد على الإيحاء إليهم. لاحظ سورة النساء:١٦٣.وقد ورد اسمه في القرآن الكريم أربع مرّات. لاحظ السور: النساء:١٦٣، الأنعام:٨٦، الأنبياء:٨٣، ص:٤١.

واشتهر بصبره واحتماله للمكاره حتى صار مضرب المثل في ذلك. وهو من ذرية إبراهيم الخليل (عليه السلام). لاحظ سورة الأنعام:٨٤.

والمهم في حياته قصة ابتلائه التي أُشير إليها في هذه الآيات:

٤١. (وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْب وَعَذَابِ):

يقع الكلام في موضعين:

أ. ما هو نوع البلاء الذي ابتُلي به أيوب (عليه السلام)؟

ب. ما هو المراد من إسناد النُّصب إلى الشيطان؟

أمّا الموضع الأوّل: فقد ورد في القرآن الكريم أنّه قد مسّه الضُّرّ والمشقّة والألم الشديد، قال تعالى: (وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِي الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) الأنبياء:٨٣، ولم تصرّح الآيات القرآنية بنوع الضُّرّ الذي لحقه، ولكن يبدو منها أنّه امتحن في نفسه وأهله، فلم ييأس أو يجزع أويتذمّر، بل تحلّى بالصبر الجميل على ما نابه من أرزاء ونكبات، وظلّ مستمسّكاً بإيمانه واستقامته وثقته برحمة ربّه.

وقد أسهبت طائفة من المفسّرين والمحدّثين في الكلام عمّا أصاب أيوب(عليه السلام) من أنواع البلايا ونقلوا حكايات كثيرة في هذا الشأن كوقوع الدود في بدنه، ونتن رائحته، معتمدين في ذلك على روايات وأخبار لا يصحّ الاعتماد على كثير منها، لطغيان الإسرائيليّات عليها، وهي في مجملها مأخوذة من سِفر أيوب من العهد القديم.

وممّا جاء في هذا السِّفْر:

«وضرب الشيطان أيوبَ بقَرْح خبيث من أخمص قدمه إلى قمّة رأسه، فأخذ له خَزَفَةً ليحتكّ بها وهو جالس على الرماد. فقالت له

امرأته: أإلى الآن متمسّك بكمالك؟ جَدِّفْ على الله ومُت» فقال لها: «إنّما كلامك كلام إحدى الحمقاوات، أنقبل الخير من الله ولا نقبل منه الشرّ» في هذا كلّه لم يخطأ أيوب بشفتيه.

ثم جرى حوار بين أيوب(عليه السلام) وثلاثة من أصدقائه، فقال أيوب من جملة ما قال: «قد صار نفسي خبيثاً عند امرأتي، وأمسيتُ مُنتناً لأبناء أحشائي. حتّى الصبيان ازدَرَوني. أقومُ فيتكلّمون عليّ. قد مقَتني أمناء سرّي، والذين أحببتُهم قد انقلبوا عليّ... وقد اشمأزّوا منّي وابتعدوا عنّي، ولا يحتشمون أن يبصقوا في وجهي».

أقول: إنّ الله سبحانه وتعالى يرسل الأنبياء لغايات سامية، وهذا يستلزم أن يتمتع الأنبياء بجاذبية خاصّة، وأن يكونوا بعيدين عن العوامل المنفِّرة، لأنّ وجودها لا يجتمع مع تلك الغايات السامية، فما فيها من أنّ الشيطان ضربه (بقَرْح خبيث من أخمص قدمه إلى قمّة رأسه) يضادّ تلك الضابطة الّتي يحكم بها العقل. وممّا يؤسف له أنّ تلك الإسرائيليات قد تسرّبت إلى كتب المفسّرين أُنظر : تفسير الدر المنثور:٥/٦٥٤.. والعجب أنّ ابن عاشور اعتمد على تلك القصة الإسرائيليّة، لكنّه أصلحها وحذف منها تلك الفقرة، وقال: ثم ابتلي بإصابة قروح في جسده وتلقّى ذلك كلّه بصبر وحكمة وهو يبتهل إلى الله بالتمجيد والدعاء لكشف الضرّ. التحرير والتنوير:٢١/٩٢.

وسيوافيك بيان ما ابتُلي به، عند الإجابة عن الموضع (السؤال) الثاني.

| ما هو المراد من إسناد النُّصب إلى الشيطان؟ |
|---|

لم يُذكر في سورة (الأنبياء) مصدر الضُرَّ الّذي مسّ النبيّ أيوب (عليه السلام)، قال سبحانه ـ حكاية عنه (عليه السلام) ـ : (أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ) الأنبياء: ٨٣ .، ولكنّه أسند ـ في هذه السورة (سورة ص) ـ نُصبَه وعذابه إلى الشيطان، حيث قال:(مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْب وَعَذَاب). فما هو الوجه في هذا الاختلاف؟

يمكن أن يجاب عن ذلك بالقول: إنّ المراد بالضُّر هو المرض وفقدان العافية والأهل، ومن المعلوم أنّ الضُّرّ بهذا المعنى من الله سبحانه ولا صلة له بالشيطان، أمّا المقصود بالنُّصب والعذاب، فهو ما كان يقاسيه من أذى الناس، الذين كانوا يوسوس لهم الشيطان، فيُغريهم بالقول بأنّ أيوب لو لم يكن مذنباً وعاصياً لما أصابه مثل هذا البلاء العظيم، ولو كان الله تعالى يحبّه لما لحقه مثل هذا الضُّرّ!! ومن الواضح أنّ هذا التعب والعذاب النفسي اللّذين كان يلاقيهما أيوب(عليه السلام) من هذا الكلام تصحّ نسبتهما إلى الشيطان. ويؤيّد ذلك ما روي عن الإمام الصادق(عليه السلام): «إنّ الله تعالى ابتلى أيوب بلا ذنب فصبر حتى عُيّر، وأنّ الأنبياء لا يصبرون على التعيير». بحار الأنوار:١٢/٣٤٧، نقلاً عن علل الشرائع: ١ / ٧٥ ح ٤، الباب ٦٥ .

هذا، وقد جاء في الروايات الواردة عن أئمّة أهل البيت(عليهم السلام) أنّ أيوب كان بعيداً عمّا أُلصق به من الأمراض المنفِّرة، فعن الباقر(عليه السلام): «إنّ أيوب ابتلي من غير ذنب، وإنّ الأنبياء لا يذنبون، لأنّهم معصومون مطهّرون، لا يذنبون ولا يزيغون ولا يرتكبون ذنباً صغيراً ولا كبيراً». وقال(عليه السلام): «إنّ أيّوب مع جميع ما ابتلي به لم تنتن له رائحة، ولا قبحت له صورة، ولا خرجت منه مِدّة من دم ولا قيح، ولا استقذره أحد رآه، ولا استوحش منه أحد شاهده، ولا تدوّد شيء من جسده، وهكذا يصنع الله عزّ وجلّ بجميع من يبتليه من أنبيائه وأوليائه المكرّمين عليه. وإنّما اجتنبه الناس لفقره وضعفه في ظاهر أمره، لجهلهم بما له عند ربّه تعالى ذكره من التأييد والفرج، وقد قال النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم): «أعظم الناس بلاءً الأنبياء، ثمّ الأمثل فالأمثل» وإنّما ابتلاه الله عزّ وجلّ بالبلاء العظيم الّذي يهون معه على جميع الناس لئلاّ يدّعوا له الربوبيّة إذا شاهدوا ما أراد الله أن يوصله إليه من عظائم نعمه متى شاهدوه، وليستدلّوا بذلك على أنّ الثواب من الله على ضربين: استحقاق واختصاص، ولئلاّ يحتقروا ضعيفاً لضعفه، ولا فقيراً لفقره، ولا مريضاً لمرضه، وليعلموا أنّه يُسقم من يشاء، ويشفي من يشاء، متى شاء، كيف شاء،

بأيّ سبب شاء، ويجعل ذلك عبرة لمَن شاء، وشقاوةً لمَن شاء، وسعادةً لمَن شاء، وهو عزّ وجلّ في جميع ذلك عدل في قضائه وحكيم في أفعاله، لا يفعل بعباده إلاّ الأصلح لهم، ولا قوّة لهم إلاّ به». بحار الأنوار:١٢/٣٤٨ـ٣٤٩، نقلاً عن الخصال: ٣٩٩ ـ ٤٠٠.

فإن قلت: لو كان المراد من مسّ الشيطان إيّاه بالتعب والعذاب هو وسوسة الناس فأي صلة بين دعائه بقوله: (أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ) و ما أجاب به سبحانه في الآية التالية بالاغتسال من الماء النابع بسبب ضرب الأرض برجله، بل ظاهر الآية أنّ المراد من مسّ الشيطان هو المرض لذلك عافاه الله سبحانه بالاغتسال بالماء البارد الطاهر بالإعجاز، بل ظاهر الآية على خلاف ما ذكرتم في السابق؟

قلت: لمّا كانت شماتة الناس بتحريك من الشيطان نابعة عن المرض الذي ابتلي به، فعندئذ لا مانع من أن يريد من قوله: (أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ) هو تعيير الناس، ولمّا كان خَلاصه من التعيير بشفائه من المرض، أمره سبحانه في الآية التالية بالاغتسال من هذا الماء.

## الأُسلوب الإلهي في شفاء أيوب(عليه السلام)

٤٢ و ٤٣. (ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لأُولِي الأَلْبَابِ):

لمّا عرض أيوب سوء حاله على الله سبحانه استجاب الله دعاءه، ولم تتأخّر الاستجابة فقد نظر إليه سبحانه بعين الرحمة وأزال ما به من الأوجاع والأمراض التي كان الشيطان يبعث الناس إلى تعييره بسببها، والله سبحانه يحكي دعاءه في آية أُخرى بالنحو التالي: (وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ) الأنبياء: ٨٣ ـ ٨٤..

وأمّا كيفية علاجه ممّا ابتُلِيَ به من سقم ومرض فيحكيها سبحانه بقوله: (ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ) والمعنى: اضرب برجلك الأرض، فامتثلَ (عليه السلام) الأمر، فنبعت له عين باردة، وأمره أن يغتسل فيها ويشرب منها، فبرئ من مرضه وشفي منه بإذن الله تعالى.

كما ردّ الله عليه أهله الذين تفرّقوا عنه، ورزقه مثلهم، كما قال: (وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لأُولِي الأَلْبَابِ) وقيل في معناه ـ كما ورد في بعض الروايات ـ: إنّ الله أحيا له أولاده الذين هلكوا بأعيانهم، وأعطاه مثلهم معهم.

كان لسيدنا أيوب مشكلتان:

١. ما مسّه الشيطان من نُصب وعذاب (الذي فسّرناه بشماتة الناس)، وقد عرفت أنّ جذوره هو مرضه، فشفاه الله سبحانه بالأمر بالاغتسال بالماء النابع تحت رجله.

٢. مشكلة قسمه بضرب زوجته إذ كان قد أقسم أيام مرضه أنّه لو برأ من مرضه ليجلدنّها مئة جلدة، لأمر أنكره منها، ولكن بعد ما برأ ندم على قسمه، والله سبحانه حال بينه وبين قسمه رعاية للمصاعب التي ابتلي بها عبر سنين، وهي ما سيأتي في الآية التالية:

## كيف تحلّل أيوب (عليه السلام)من يمينه

٤٤. (وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلاَ تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ):

روي أنّ أيوب قد حلف على امرأته لأمر أنكره منها؛ لئن عوفي ليضربنّها مئة جلدة، فلمّا عوفي أمره سبحانه بأن يفي بيمينه ولا يحنث به.

وأمّا كيفية الوفاء فهي أن يأخذ ضغثاً بعدد ما حلف عليه من الجلدات فيضربها به دفعة واحدة، فإذا حصل ذلك تحلّل من يمينه، وبرَّ بقسَمه، وأمّا ما هو القول أو العمل المنكر الّذي صدر منها، فللمفسّرين في ذلك أقوال، لا حاجة لذكرها هنا.

وأمّا تفسير الآية فكالتالي: (خُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا) وهو ملء الكفّ من حشيش أو قضبان وما أشبه ذلك (فَاضْرِبْ بِهِ): أي فاضربها به

دفعة واحدة (وَلاَ تَحْنَثْ) في يمينك (إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا)على البلاء الذي ابتليناه به (نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ): أي رجّاع إلى الله ومنقطع إليه.

ولا يخفى أنّه سبحانه قد وصف ثلاثة من أنبيائه بأنّهم كانوا أوّابين، أعني: داود وسليمان وأيّوب (عليهم السلام).

إكمال

بقيت هنا لنا كلمة وهي أنّ القرآن الكريم قد أنكر على بني إسرائيل احتيالهم في صيد الحيتان كما صرّحت به الآية التالية:(إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) الأعراف:١٦٣،

ومع ذلك نرى أنّه سبحانه علّم أيوب كيفية التحلُّل من يمينه وعدم حنثه بشكل يضاهي الاحتيال، فكيف الجمع بين الأمرين؟

والجواب ظاهر، وهو أنّ إعطاء الرخصة أو تشريع الحيلة الشرعية بشكل عام يضرّ المجتمع الإسلامي ويلازم التلاعب بالقانون كما هو الحال في صيد بني إسرائيل، وأمّا الاحتيال في مورد جزئي وفي مورد إنسان ابتلي خلال عدّة سنوات بمرض أنهك قواه، فالله سبحانه يجازيه على صبره وألمه ويرخّص له في الإيفاء بيمينه بشكل لا يؤذي زوجته كما ورد في الآية، وما هذا الترخيص إلاّ نوع هدية وكرامة من الله له ولزوجته الصابرة.

وهناك رواية نقلها العياشي، نحبّ أن نذكرها هنا وهي تنفع الفقهاء: روى العيّاشي بإسناده: أنّ عبّاداً المكّي قال: قال لي سفيان الثوري: إنّي أرى لك من أبي عبد الله ] الصادق[(عليه السلام)منزلة فاسأله عن رجل زنى وهو مريض فإن أُقيم عليه الحدّ، خافوا أن يموت، ما تقول فيه؟ فسألته فقال لي: «هذه المسألة من تلقاء نفسك أو أمرك بها إنسان؟» فقلت: إنّ سفيان الثوري أمرني أن أسألك عنها. فقال: «إنّ رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)أُتي برجل أحبَن (الأحْبَن: الّذي أُصيب بالحَبَن، وهو داء يعظُم منه البطن ويَرِم.) قد استسقى بطنه وبدت عروق فخذيه وقد زنى بامرأة مريضة، فأمر رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)فأُتي بعرجون فيه مئة شمراخ فضربه به ضربة، وضربها به ضربة، وخلّى سبيلهما، وذلك قوله تعالى: (وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلاَ تَحْنَثْ)». مجمع البيان: ٤ / ٤٧٨ .

والرواية تدلّ على أنّ الشريعة المتقدّمة حجّة على الشريعة المتأخّرة، ما لم يرد دليل على نسخها، ونريد بالشريعة المتقدّمة هي التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، لا في كتب العهدين المحرّفة.

## دروس وعبر في قصة أيّوب(عليه السلام)

إنّ في قصّة أيوب(عليه السلام) ـ كقصص سائر الأنبياء ـ عظات وعبر نشير إلى بعضها:

١. إنّ كثيراً ممّا يلحق الإنسان من بلايا ومصائب، ينبغي أن يُنظر إليه على أنّه امتحان وابتلاء وفتنة، ولا ينبغي اعتباره دليلاً على سخط الله وغضبه بسبب العصيان وارتكاب الذنوب والآثام، لأنّ الدنيا هي دار عمل واختبار، وإنّ الآخرة هي دار الجزاء والثواب والعقاب.

ويُشار إلى أنّ البلاء يكون أحياناً وسيلة لتفتح الاستعدادات المخزونة، وظهور الكمالات النفسية المكنونة، وقد اشتهر ـ مثلاً ـ أنّ الفقر هو بيت النبوغ وظهور الاستعداد، ويكون أحياناً أُخرى سُلّماً لبلوغ المُبتلى أعلى الدرجات، وفي هذا الإطار يأتي ابتلاء أيوب(عليه السلام) وغيره من الأنبياء والأولياء.

رُوي عن النبيّ الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه قال: «ما كرُمَ عبدٌ على الله إلاّ ازداد عليه البلاء». دعائم الإسلام:١/٢٤١.

وعن الإمام علي(عليه السلام) أنّه قال: «إنّ البلاء للظالم أدب، وللمؤمن امتحان، وللأ نبياء درجة».( بحارالأنوار:٦٧/٢٣٥، ح٥٤.)

وعن الإمام جعفر الصادق(عليه السلام) أنّه قال: «إنّ في الجنة منزلة لا يبلغها عبد إلاّ بالابتلاء في جسده». بحارالأنوار:٦٧/٢١٢، ح١٦.

وعن الإمام موسى الكاظم(عليه السلام) أنّه قال: «مثل المؤمن مثل كفتي الميزان، كلّما زيد في إيمانه، زيدَ في بلائه، ليلقى الله عزّ وجلّ ولا خطيئة له».( بحارالأنوار:٦٧/٢٤٢، ح٨٢. )

وما أروع قول أمير المؤمنين(عليه السلام) في هذا المجال، وهو يتحدّث عمّا لقيَه خاصّة أنبياء الله وأوليائه من ضُرّ ومشقّة، قال(عليه السلام): «قَدِ اخْتَبَرَهُمُ اللهُ بِالمَخْمَصَةِ، وَابْتَلاهُمْ بِالمَجْهَدَةِ، وَامْتَحَنَهُمْ بِالمَخاوِفِ، وَمَخَضَهُمْ بِالْمَكارِهِ. فَلاَ تَعْتَبِرُوا الرِّضى وَالسُّخْطَ بِالْمالِ وَالْوَلَدِ جَهْلاً بِمَواقِعِ الْفِتْنَةِ وَالاخْتِبَارِ، فِي مَوْضِعِ الْغِنَى وَالاقْتِدَارِ، فَقَدْ قالَ سُبحانَهُ وَتَعالى:(أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَال وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لاَ يَشْعُرُونَ)( المؤمنون: ٥٥ ـ ٥٦ .)، فإِنّ اللّهَ سُبحانَهُ يَخْتَبِرُ عِبادَهُ الْمُسْتَكْبِرِينَ فِي أنْفُسِهِمْ بِأولِيائِهِ الْمُسْتَضْعَفينَ فِي أَعْيُنِهِمْ». نهج البلاغة: الخطبة: ١٩٢(القاصعة). و (المخمصة): الجوع. و (المَجهدة): المشقّة. و (مَخَض): مَخَض اللبن، حرّكه ليُخرج زُبْدَه.

٢. إنّ صبر النبيّ أيوب (عليه السلام) كان صبراً في المصيبة، وقد طال أمده، ومع ذلك فإنّه لم ينبس طول هذه المدّة بكلمة شكوى أو اعتراض أو ضجر.

ولذا وصَفه سبحانه في الذكر الكريم بقوله: (إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا): أي وجدناه صابراً على البلاء الّذي ابتليناه به (نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ): أي رجّاع إلى الله منقطع إليه.

٣. إنّ الابتلاء بالمحن والبلايا ربّما يرافق فوات بعض المصالح والمنافع إلاّ أنّ الله تعالى يعوّض الإنسان ما فاته، كما نرى في قصة أيوب، حيث قال: (وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ).

٤. إنّ الإنسان المحسن الّذي خدم عائلته مدّة مديدة بفكره وجهده ربما يرتكب بعض الخلاف الّذي يستحق عليه العقوبة، إلاّ أنّ مقتضى الكرامة يوجب أن لا تُنسى خدماته الّتي بذلها في سبيل إسعاد هذه العائلة، ويُركَّز على خطئه فقط وتُترك حسناته المتقدّمة، كما هو الحال في زوجة أيوب(عليه السلام)، الّتي جاء في الأخبار أنّها خدمت زوجها سنين طويلة وإن صارت مصدراً للخلاف في بعض الأحيان، فلمّا شُفي الزوجُ، أمره سبحانه بأن لا يحنث بيمينه ولكن يؤدّيه بشكل لا يؤذي زوجته.

الآيات ٤٥ ـ ٤٨ (وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ...كُلٌّ مِنَ الأَخْيَارِ).

## الآيات: الخامسة والأربعون إلى الثامنة والأربعين

(وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ * إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَة ذِكْرَى الدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ * وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الأَخْيَارِ).

### المفردات

أُولي الأيدي: ذوي القوّة، والأيدي جمع يد كنّي بها عن القوّة لأنّها مظهرها.

الأبصار: جمع بصر، وأُريد به هنا البصيرة.

أخلصناهم: طهّرناهم من درن النفوس، فصارت نفوسهم نقية من العيوب العارضة للبشر.

بخالصة: التنكير هنا للتكبير والتعظيم.

ذكرى الدار: عطف تفسير لخالصة، أي ذكراهم الدار على نحو لا ينسَون الآخرة.

المصطفَين: من اصطفاهم الله.

الأخيار: جمع خيّر.

### التفسير

لمّا ذكر سبحانه ـ في الآيات السابقة ـ قصص ثلاثة من الأنبياء وهم داود وسليمان وأيوب (عليهم السلام)، عطف عليها ذكر ستة من أنبياء الله، وأشار إلى بعض صفاتهم السامية التي فيها عبر ودروس للآخرين، فقال سبحانه:

٤٥. (وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ):

وصف سبحانه هؤلاء الأنبياء الثلاثة بأوصاف:

أوّلها: العبودية التي تعني الاستسلام الكامل لله تبارك وتعالى، حيث قال: (وَاذْكُرْ عِبَادَنَا)، ولو أدّى رجل حقّ العبودية فقد بلغ درجة كبيرة من القرب، وقد روي عن الإمام علي(عليه السلام)قوله:«إلهي، كفاني فخراً أن تكون لي رباً، وكفاني عزّاً أن أكون لك عبداً، أنت، كما أُريد، فاجعلني كما تريد». شرح نهج البلاغة:٢٠/٢٥٥.

وثاني هذه الأوصاف وثالثها: (أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ) وقد مرّ أنّ الأيدي جمع اليد وهو اسم للجارحة ولكن كنّي بها عن القوّة في تحقيق الأهداف، كما أنّ الأبصار جمع البصر وأُريد به هنا البصيرة والإدراك الصحيح، ولعلّه سبحانه يريد أنّه يهب لهؤلاء ـ من أجل تحقيق أهدافهم ونيل مقاصدهم ـ أداة الإدراك الصحيح (الْأَبْصَارِ) والقوّة القادرة على التنفيذ (الْأَيْدِي)، ولا يمكن تحقيق الأهداف السليمة إلاّ بالتخطيط السليم، والقدرة الكافية.

قال السيد الرضيّ (رحمه الله تعالى) عن هذه الآية: وهذه استعارة، والمراد بها ـ والله أعلم ـ أُولي القوة في العبادة، والبصائر في الطاعة، ولا يجوز أن يكون المراد بالأبصار هاهنا الجوارح والحواس ؛ لأنّ سائر الناس يشاركون الأنبياء(عليهم السلام) في خلق ذلك لهم، ولا يحسن مدح الإنسان بأنّ له يداً وقدماً وعيناً وفماً، وإنّما يحسن أن يمدح بأنّ له نفساً شريفة وهمّة منيفة وأفعالاً جميلة وأخلاقاً محمودة. وقيل أيضاً:(أُولِي الْأَيْدِي) أُولو النّعم في الدين ؛ لأنّ ورود اليد بمعنى النعمة مشهور في كلامهم فكأنّهم أسدوا إلى الناس أيدياً بدعائهم إلى الإيمان وانفلاتهم من حبائل الضلال. تلخيص البيان في مجازات القرآن:٢٣٦.

٤٦. (إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ):

رابعها: أنّهم في ظلّ طاعتهم وعبادتهم وصلوا إلى مقام أخلص فيه سبحانه قلوبهم من كلّ شَين ودَرَن، ونقّى نفوسهم من الأنانية، فخلت قلوبهم من التعلّق بكلّ شيء إلاّ الله سبحانه، فقوله: (بِخَالِصَةٍ) كأنّه مفعول مطلق أُلصقت به الباء للتأكيد أي أخلصناهم خالصة. ويجوز أن تكون خالصة صفة لموصوف محذوف، والباء للسببيّة، والتقدير: أخلصناهم بسبب خصلة خالصة. ثمّ إنّه سبحانه فسّر الخالصة بقوله هي:(ذِكْرَى الدَّارِ): أي ذكراهم الدار الآخرة.

أي ما زالوا يذكرون يوم القيامة وأحوالها من جانب، ودرجات المتّقين من جانب آخر، فهذا هو الذي أخلصهم من كلّ شيء إلاّ ذكر الله سبحانه.

٤٧. ( وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ):

خامسها وسادسها: أنّهم من (الْمُصْطَفَيْنَ): أي المختارين من عبادنا للقيام بأعباء النبوة، وأنّهم من (الْأَخْيَارِ): أي المطبوعينَ على فعل الخير فلا يميلون إلى الأذى ولا إلى الصفات الذميمة. ولعلّ كونهم أخياراً أي مطبوعين على فعل الخير هو السبب لكونهم مختارين.

٤٨. ( وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ):

ذكر سبحانه في هذه الآية أنبياء ثلاثة جاء ذكرهم في الكتاب العزيز على وجه الإجمال.

أمّا الأوّل، فقد مضى ذكر صبره في سورة الصافّات حيث عرض أبوه إبراهيم عليه ذبحه في سبيل الله فأجابه بقوله: (يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ) الصافات:١٠٢..

وأمّا الثاني ـ أعني: اليسع (عليه السلام)ـ فقد ذكره في القرآن الكريم مع الأنبياء مرتين أحدهما هنا والثانية في قوله تعالى، وهو يذكر ذريّة إبراهيم (عليه السلام): (وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ) الأنعام:٨٦، والآية تدلّ على أنّه من الأنبياء لذكره في عدادهم مضافاً إلى أنّ تفضيلهم على العالمين أفضل دليل على كونهم أنبياء.

ولم يذكر القرآن الكريم شيئاً من أحواله سوى أنّه من ذرية إبراهيم الخليل(عليه السلام).

وما احتمله البعض بأنّ اليسع هو الذي التقى به موسى(عليه السلام) على ساحل البحر فطلب منه أن يعلّمه ممّا عُلِّم، أو أنّه «يوشع بن نون» وصيّ موسى(عليه السلام)، فهو لا يستند إلى دليل، ولا يمكن التعويل عليه.

ذكر (وِل ديورانت) في «قصة الحضارة»: لقد جهر اليشع في القرن التاسع قبل الميلاد بوجود إله واحد، قال: هو ذا قد عرفت أنّه ليس إله في كلّ الأرض إلاّ في إسرائيل. قصة الحضارة:٢/٣٤٣، الهامش.

وأمّا الثالث ـ أعني: نبيّ الله ذا الكفل (عليه السلام)ـ فقد ورد ذكره هنا وفي سورة الأنبياء، قال سبحانه: (وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ). الأنبياء: ٨٥ ـ ٨٦ .

والإمعان في الآيات يثبت أنّه كان من الأنبياء لذكره في عدادهم ووصفه بأنّه من الصابرين والصالحين.

وأمّا الكفل فهو بمعنى الضِّعف، قيل: سُمّي به إذ كان له ضعف ثواب غيره ممّن هو في زمانه لشرف عمله. وربّما قيل بأنّه مشتق من الكفالة والتعهّد. البداية والنهاية:١/٢٢٥.روى ابن جرير عن مجاهد أنّه قد تكفّل لبني قومه أن يكفيهم أمرهم ويقضي بينهم بالعدل فسمّي ذا الكفل.

وفي العراق مدينة باسم الكفل فيها قبر يزار ينسب إليه. يشار إلى أنّ أهل دمشق يتناقلون أنّ له قبراً في جبل قاسيون المشرف على دمشق.

وأخيراً روى الطبرسي في كتاب النبوة بالإسناد عن عبد العظيم بن عبد الله الحسني قال: كتبت إلى أبي جعفر]الجواد [(عليه السلام) أسأله عن ذي الكفل وما اسمه وهل كان من المرسلين؟ فكتب(عليه السلام): «إنّ الله بعث مئة ألف نبي وأربعة وعشرين ألف نبي، المرسلين منهم ثلاثمئة وثلاثة عشر رجلاً، وإنّ ذا الكفل منهم وكان بعد سليمان بن داود (عليهما السلام)، وكان يقضي بين الناس

كما يقضي داود(عليه السلام)، ولم يغضب قط إلاّ لله تعالى وكان اسمه عدويا بن إدارين». مجمع البيان:٤/٦٠.

وعلى كلّ تقدير فالله سبحانه يصف هؤلاء الثلاثة بقوله: (وَكُلٌّ مِنَ الأخيار): أي كلّ مطبوع على فعل الخير والإحسان، وقد مرّ أنّه هو السبب لاصطفاء الأنبياء الثلاثة المتقدّم ذكرهم أعني: إبراهيم وإسحاق ويعقوب.

الآيات ٤٩ ـ ٥٤ (هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآب ... مَا لَهُ مِنْ نَفَاد).

الآيات: التاسعة والأربعون إلى الرابعة والخمسين

(هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآب * جَنَّاتِ عَدْن مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبْوَابُ * مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَة كَثِيرَة وَشَرَاب * وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ * هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ * إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَاد).

المفردات

جنات عدن: جنّات استقرار وثبات.

قاصرات الطرف: قاصرة الطرف، هي الّتي لا تمدّ طرفها إلى ما لا يجوز. والمراد: اكتفاؤهن بأزواجهن فلا يُرِدن غيرهم.

أتراب: لِدات متساويات في السنّ.

نفاد: انقطاع.

التفسير

بعد أن أتمّ سبحانه الكلام حول الأنبياء العظام وما لهم من الصفات السامية والمقامات العالية، اقتضى المقام أن يذكر مصير المطيعين لهم ومآب الطاغين المتمرّدين العاصين لهم، ولذلك انتقل إلى الكلام عن المتّقين ثم عن العصاة المتكبّرين، فبدأ بقوله:

٤٩.(هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآب):

قوله تعالى:(هَذَا ذِكْرٌ) بمعنى أنّ ما سبق من حديث عن هؤلاء الأنبياء(عليهم السلام)فيه ذكر لمن يتذكّر وفيه دروس وعبر، ويشهد لهذا المعنى قوله سبحانه في أوّل السورة:(ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ)، وفسّر عدد من المفسّرين الذكر هنا بالشرف والثناء الجميل، وقالوا: معناه إن هذا الذي ذُكر، شرف للأ نبياء وذكر جميل وثناء حسن لهم يُذكَرون به في الدنيا.

ويظهر من صاحب الكشّاف أنّه أُتي به في المقام لغاية الانتقال من مطلب، إلى مطلب، نظير لفظة (ذَلِكَ) في قوله سبحانه: (ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ) الحج:٣٠.، أو (هذا) في قوله تعالى (في سورتنا هذه):(هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآب)، قال ما هذا لفظه: هذا نوع من الذكر وهو القرآن لمّا أجرى ذكر الأنبياء وأتمّه، وهو باب من أبواب التنزيل ونوع من أنواعه، وأراد أن يذكر على عقبه باباً آخر وهو ذكر الجنة وأهلها قال: (هَذَا ذِكْرٌ). التفسير الكشّاف:٣/٣٣١.

وعلى كلّ تقدير فقد ذكر مصير المتّقين وقال:(وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآب) مقابل الطاغين فإنّ مصيرهم ـ كما سيأتي ـ لشرّ مآب، وهل المراد من المتّقين هم الأنبياء أو المقتفون آثارهم؟ الظاهر هو الثاني لأنّه قد سبق ذكر الأنبياء بالثناء الجميل.

وعلى كلّ حال فقوله :(وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآب)تعريف إجمالي تشرحه الآيات التالية بذكر النعم السبع التي أنعم بها عليهم يوم المآب، وإليك البيان:

٥٠. (جَنَّاتِ عَدْن مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبْوَابُ):

الأُولى: يسكنون (جَنَّاتِ عَدْن) التي هي عطف بيان على قوله: (لَحُسْنَ مَآب)، والمراد من جنات عدن هو جنات الخلود، فمن دخلها يكتب له البقاء. وقد دلّت الآيات القرآنية على خلود المتّقين في الجنة، قال تعالى: (أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) الأعراف:٤٢.، فمصيرهم جنات عدن موصوفة بما يأتي.

الثانية: (مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبْوَابُ): أي من دون حاجة إلى تفتيحها، فأبواب الجنة مفتوحة للمتقين قبل مجيئهم إليها إكراماً لهم. ونظير هذه الآية قوله سبحانه: (وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ). الزمر:٧٣.أي فُتِحَت من قبلُ.

٥١. (مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَة كَثِيرَة وَشَرَاب):

الثالثة والرابعة والخامسة: الآية تحكي عن حالة من حالات أصحاب الجنة قائلة بأنّهم: (مُتَّكِئِينَ فِيهَا) الجنة، والاتّكاء كما مرّ في تفسير سورة يس (الآية٥٦): هيئة بين الاضطجاع المطلق والجلوس، وهو اضطجاع على جنب دون وضع الرأس على الفراش، وهو تعبير عن الإحساس بالراحة والهدوء والطمأنينة ، وعندئذ (يَدْعُونَ فِيهَا) الجنة (بِفَاكِهَة كَثِيرَة وَشَرَاب)بمعنى أنّه هيِّئت لهم الفواكه والأشربة. والسؤال: هل تأتيهم الفواكه والأشربة بنفسها متى أرادوا أو هناك مَن يدور عليهم بالخدمة؟ كلاهما محتملان، وسيوافيك توضيح ذلك من خلال تفسير قوله سبحانه: (وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَان) الرحمن:٥٤.، وقوله: (يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ * بِأَكْوَاب وَأَبَارِيقَ وَكَأْس مِنْ مَعِين). الواقعة: ١٧ ـ ١٨ .

وخصّ الله سبحانه الفاكهة والشراب بالذكر لأنّ أكثر غذاء أهل الجنّة هو الفاكهة والشراب.

٥٢. (وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ):

السادسة والسابعة: ثمّ ذكر سبحانه أزواج أهل الجنة ووصفهنّ بأمرين:

أ. (وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ) ذوات النظرات القصيرة، فلا ينظرن إلاّ إلى أزواجهنّ دون غيرهم حياء وعفّة.

ب. (أَتْرَابٌ): أي لِدات على سنٍّ واحدة. والظاهر أنّه وصف لعامّة نساء الجنة، وأنّ جميعهن في عمر واحد، فيكون جميعهن شابّات.

وبهذا تبيّن أنّه سبحانه ينعم على أصحاب الجنة بأُمور سبعة:

أ. (جَنَّاتِ عَدْنٍ) ب. (مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبْوَابُ)

ج. (مُتَّكِئِينَ) د. (يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ)

هـ.(وَشَرَابٍ) و.( وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ)

ز. (أَتْرَابٌ)

ثمّ إنّه سبحانه يشير إلى أنّ هذه النعم السبع موعودة لأهل الجنة، فقال:

٥٣. (هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ):

وكأنّه تأكيد لقوله تعالى: (وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ)، والتعبير عن نعم الجنة بالإشارة القريبة (هَذَا) لأجل كونها محقّقة الوقوع.

٥٤. (إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ):

أي هذا الذي أنعمنا به عليكم لرزق دائم لا انقطاع له، وقد تكرّر هذا المضمون في عدّة من الآيات، قال سبحانه: (إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ) التين:٦.أي غير مقطوع.

| |
|---|
| الآيات ٥٥ ـ ٦٤ (هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ... إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ). |
| الآيات: الخامسة والخمسون إلى الرابعة والستين |
| (هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ * هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ * وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ * هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لاَ مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ * قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لاَ مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ * قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ * وَقَالُوا مَا لَنَا لاَ نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الأَشْرَارِ * أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ * إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ). |
| المفردات |

الطاغين: جمع الطاغي، وهو المتجاوز حدود الله اعتقاداً أو عملاً.

يصلَونها: يدخلونها ويمسّون حرّها، أو يُحرقون فيها.

المِهاد: الفراش.

حميم: الحميم: الماء الشديد الحرارة.

غسّاق: ما يقطر من جلود أهل النار من قيح شديد النتن.

شكله: الشَّكل: القرب المتشابه، والشِكل ـ بالكسر ـ النظير في الحُسن.

مقتحم: الاقتحام: الدخول في الشيء بشدّة وصعوبة.

لا مرحباً بهم: روي عن عبيدة أنّه قال: العرب تقول لا مرحباً بك، أي لا رَحُبَت عليك الأرض ولا اتّسعت.

الأشرار: الأراذل الذين لا خير فيهم.

زاغت: مالت.

التخاصم: مخاصمة بعضهم بعضاً.

التفسير

لمّا بيّن سبحانه أحوال أهل الجنّة وما لهم من النعم الجسيمة والمصير الحسن، بدأ ببيان أحوال أهل النار وما أُعدّ لهم من أنواع العذاب، فقال:

٥٥. (هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآب):

قوله:(هَذَا) قد أُتي به ـ كما مرّ عن صاحب الكشّاف ـ لغاية العدول من موضوع إلى موضوع آخر، وهو إشارة إلى ما ذكر من جزاء المتّقين، ثم أخذت الآيات التالية في وصف أحوال الطاغين .

وأوّل هذه الأوصاف هو ما في قوله تعالى:

(وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآب) في مقابل:(وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآب).

٥٦. (جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ):

تشتمل هذه الآية على وصفين :

الوصف الثاني: هو (جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا): أي يدخلونها ويُقاسون حرّها، أو يحترقون فيها، في مقابل (جَنّات عَدْن).

والوصف الثالث: (فَبِئْسَ الْمِهَادُ): أي بئس المسكن والمهد، في مقابل قوله: (مُتّكِئينَ فِيها).

٥٧. (هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ):

الآية تشتمل على ذكر ما يشربه أهل جهنّم وما يأكلون.

الوصف الرابع: (هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ): أي ماء شديد الحرارة، في مقابل قوله سبحانه: (وَشَراب).

الوصف الخامس:(وَغَسَّاقٌ) في مقابل قوله:(وَفاكِهَة كَثيرة).

٥٨. (وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ):

الآية تحكي أنّ تعذيبهم لا يقتصر على ما ذكر، بل هناك ألوان من العذاب متشابهة في الشدّة لكن من أنواع متعدّدة كما يقول: (وَآخَرُ): أي ضرب آخر (مِنْ شَكْلِهِ): أي من شكل هذا العذاب الماضي ذكره وجنسه، لكنّه (أَزْوَاجٌ): أي أنواع مختلفة، والآية في مقابل نِعم أهل الجنة، كما في قوله تعالى:(فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِي لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُن). السجدة:١٧.

٥٩. (هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لاَ مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ):

حوار بين القادة والأتباع

الآية تشتمل على حوار بين القادة والأتباع، وفي ثنايا كلامهما خطاب من خزنة النار، وقد مضى نظيره في سورة الصافات. انظر: الصافات: ٢٧ ـ ٣٣.

روي عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى: (هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ)أنّ هذا الكلام حكاية عمّا يقوله خزنة النار، فكأنّ الرؤساء اقتحموا النار قبل الأتباع، فإذا لحق بهم الأتباع يقول الخزنة للقادة: (هذا فَوجٌ): أي جماعة من الناس (مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ): أي مع القادة الذين دخلوا النار قبل هذا الفوج. ولكنّ الظاهر (كما سيظهر من جواب الأتباع للقادة في الآية التالية) أنّه حكاية عن كلام القادة الذين دخلوا النار قبل الأتباع، فإذا رأوا أنّهم أيضاً يساقون إلى النار يتحادثون بينهم أنّ هؤلاء ـ أي الأتباع ـ مصيرهم كمصيرنا، فبدل أن يرحّبوا بهم يخاطبونهم بقولهم:(لاَ مَرْحَبًا بِهِمْ): أي لا أهلاً ولا سهلاً، لماذا؟ (إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ): أي داخلوها

ومُقاسون حرّها، أو محترقون بها مثلنا فلا فرح لنا في مشاركتهم إيّانا. انظر: مجمع البيان:٨/٤١٣.

٦٠. (قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لاَ مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ):

لمّا دعا القادة على الأتباع بقولهم: (لاَ مَرْحَبًا بِهِمْ) أجابهم الأتباع بالمثل و :(قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لاَ مَرْحَبًا بِكُمْ)لماذا؟ لأنّ (هَذَا) المصير المشؤوم (أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا): أي حملتمونا على الضلال الذي أوجب لنا هذا المصير (فَبِئْسَ الْقَرَارُ): أي المستقرّ لنا ولكم نار جهنم.

وفي هذه الآية ألقى الأتباع مسؤولية ضلالتهم وجرائمهم على عاتق القادة، ولكن لم يذكر في المقام جواب القادة لهم، وإنّما ذكر جوابهم في سورة الصافات، قال تعالى: (قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ * فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ * فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ) الصافات:٢٩ـ ٣٢..

٦١. (قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ):

تدلّ الآية على أنّ الأتباع يطلبون من الله سبحانه أن يزيد في عذاب القادة لأنّهم هم الذين زيّنوا لهم الضلال ودعوهم إلى ارتكاب الجرائم كما يقول:(قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا): أي من هيّأ لنا هذا العذاب (فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ)، ولعلّ العذاب الأوّل لضلالهم والعذاب الثاني لإضلال الآخرين، وقد جاء مضمون هذه الآية في موضع آخر قال تعالى: (رَبَّنَا هَؤُلاَءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ) الأعراف:٣٨..

وبذلك يتبيّن أنّ كلّ علاقة بين جماعتين إذا كانت مبنيّة على الهوى والضلال والمصالح الذاتية ستتبدّل إلى التخاصم والنزاع يوم القيامة، فيلقي كلّ طرف مسؤولية ما تبنّى من عقيدة منحرفة، أو مارس من سلوك منحرف على عاتق الطرف الآخر، ولذلك استثني المتّقون من هذا النوع من النزاع والخصومة، قال تعالى: (الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ). الزخرف:٦٧.

## حوار بين أصحاب النار

٦٢. (وَقَالُوا مَا لَنَا لاَ نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الأَشْرَارِ):

لما عرضت الآيات السابقة الحوار الّذي يجري بين القادة والأتباع والتخاصم الّذي يحصل بينهما في يوم القيامة، انتقل البيان القرآني إلى أمر آخر وهو أنّ المستكبرين في هذه الدنيا كانوا يصفون المؤمنين بالأشرار، وعلى حد تعبير صديقنا المرحوم محمد جواد مغنية: الكادحون عند المستكبرين حيوانات وأشرار... ولماذا؟ لأنّهم يأكلون من عرق الجبين، ولا يقضون الليالي الحمراء في مواخير الدعارة، وأمّا الطغاة المترفون فنبلاء وأخيار لأنّهم يفسدون، يتنعّمون على حساب [ البائسين ]والمناضلين. التفسير الكاشف: ٦ / ٣٨٦. هذا هو منطق الطغاة، فعندئذ يدور في خَلَدهم التفحّص عن هؤلاء الذين وصفوهم في الدنيا بالأشرار، هل هم أيضاً معهم في النار أو لا؟ كما يقول: (وَقَالُوا مَا لَنَا لاَ نَرَى رِجَالاً) مؤمنين (كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الأَشْرَارِ): أي الأنذال الأراذل، يقولون ذلك لأنّهم لا يجدونهم في مثواهم ومأواهم، وعندئذ ينتقل أصحاب هذا القول إلى احتمالين، كما في قوله تعالى:

٦٣. (أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ):

قوله: (أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا)في الدنيا لكن تبيّن خطأُنا وصاروا ناجين، هذا هو الاحتمال الأوّل، الذي احتمله المستكبرون.

وأمّا الاحتمال الثاني فهو: (أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ): أي عدلت عنهم أبصارنا، فلا نراهم وهم معنا في النار.

والظاهر أنّ ترديدهم بين الأمرين أمر صوري، وكأنّه استفهام صوري لأنّ يوم القيامة يوم انكشاف الحقائق وظهور البواطن فلا يشكّ أحد في شيء.

٦٤. (إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ):

الظاهر أنّ اسم الإشارة راجع إلى الحوار الدائر بين القادة والأتباع، الذي مرّ في الآيات ٥٩ إلى ٦١، ولا صلة له بزعمهم أنّ المؤمنين أشرار وأراذل، فقوله:(تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ) إمّا بدل من اسم الإشارة، أو بدل من قوله:(لَحَقٌّ)، وتشير الآية إلى أنّ تخاصم أهل النار يوم القيامة أمر واقع وهو نابع ممّا استقرّ في نفوسهم من التنازع والتشاجر كما يقول: (إِنَّ ذَلِكَ): أي التخاصم (لَحَقٌّ) ثابت يوم القيامة، لا ريب فيه.

الآيات ٦٥ ـ ٧٠ (قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَه إِلاَّ اللهُ ... أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ).

الآيات: الخامسة والستون إلى السبعين

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَه إِلاَّ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ * قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ * مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْم بِالْمَلأِ الأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ * إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ).

التفسير

لمّا ذكر سبحانه مصير الطغاة من مشركي مكّة وغيرهم، عاد البيان القرآني إلى بيان وظيفة الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) وهو أنّه نبيٌّ مرسل من الله سبحانه إلى الناس، ليهديهم إلى توحيد الله كما يقول:

٦٥. (قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَه إِلاَّ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ):

أي (قُلْ) يا محمّد(إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ) ومخوّف من عقاب الله سبحانه (وَ)اعلموا (مَا مِنْ إِلَه)في الكون (إِلاَّ اللهُ الْوَاحِدُ): أي الفرد الّذي ليس له نظير ولا مثيل (الْقَهَّارُ): أي الغالب على جميع خلقه المستعلي عليهم بسعة قدرته. وقد وصف بالقهّار من بين صفاته لوجود المناسبة بين الإنذار وكونه سبحانه قهّاراً.

٦٦. (رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ):

الآية تصف الله سبحانه بأُمور ثلاثة:

أ. (رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا): أي مدبّرهما، فعلى هذا فهو المستحقّ للعبادة دون غيره، لأنّ لازم كونه ربّاً، ورازقاً ومنعماً، أن يكون مستحقاً لها.

ب. (الْعَزِيزُ) الغالب الذي لا يُغلَب، فلا يمكن لمن عصاه أن يفرّ من قبضة قدرته.

ج. (الْغَفَّارُ) وهو صيغة مبالغة من الغفر، وهو السّتر، فالله سبحانه عزيز لا يُغلَب، وفي الوقت نفسه غفّار لمن تاب من المعاصي وأناب إليه تعالى، ولذلك صار الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) منذراً باعتبار كون الله عزيزاً، ومبّشراً باعتبار كونه سبحانه غفّاراً. ومن المعلوم أنّ الخوف والرجاء من عوامل التربية وأسباب التكامل، فليس للمعلم والمربّي أن يكتفي بأحدهما.

ثمّ إنّه سبحانه يصف ما دعا إليه النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)بقوله:

٦٧. (قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ):

وهل المراد بالنبأ العظيم هو القرآن الكريم، أو ما تحدّثت به الآيتان السابقتان عن توحيده سبحانه وربوبيّته وعزّته، أو المراد به يوم القيامة؟ الأقوى أنّ المراد هو الأوّل، بشهادة الاستدلال ـ في الآية (٦٩) الآتية ـ بالأخبار السماوية على أنّه صادر من لدنه تعالى. ولا شكّ أنّ هذا الكتاب الخالد بما يتضمّن من حقائق هامّة في مختلف الحقول لم تكن معروفة من ذي قبل أو بما ينطوي عليه من معارف في شتّى المجالات، وبما جاء به من شريعة سمحاء تمنح الإنسانية السعادة في الدنيا والآخرة، وتنقذها ممّا تعانيه من شقاء.. لاشكّ في أنّ هذا الكتاب هو نبأ عظيم، وخبر ذو فائدة جليلة جدّاً.

٦٨. (أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ):

أمّا موقف هؤلاء المعاندين المستكبرين من هذا النبأ العظيم، الّذي طلع عليهم بالهدى والنور، فهو الصدّ عنه والتولّي والإعراض، كما قال: (أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ).

ومع ذلك يحتمل أن يكون المراد بالنبأ العظيم هو يوم البعث لِما جاء في سورة النبأ، أعني قوله: (عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ * الذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ) إلى أن قال: (إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا). النبأ: ١ ـ ١٧.

٦٩. (مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْم بِالْمَلاَ الأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ):

الظاهر أنّ المراد بالملأ الأعلى هم الملائكة الذين هم من سكنة السماوات وضمير (يَخْتَصِمُونَ) يرجع إليهم، والمراد باختصامهم هو ما ستعرضه الآيات التالية من الحوار الدائر بين الله سبحانه وملائكته، وهذا الحوار هو الذي عبّر عنه بالتخاصم مجازاً، فالله سبحانه يأمر النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)بأن يقول: (مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْم بِالْمَلاَ الأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ)وإنّما اطّلعت عليه عن طريق الوحي كما يقول:

٧٠. (إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ):

ثمّ الدليل على عدم علمه بما يجري في الملأ الأعلى هو قوله: (إِنْ يُوحَى إِلَيَّ): أي ما أُوحي إليّ (إِلاَّ أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ) وليس لي أي خاصية ومسؤولية إلاّ الإنذار، ولو أخبرتكم بما يجري في الملأ الأعلى فإنّما هو من وحي الله الّذي أنزله عليّ.

ثمّ ذكر سبحانه ما أشار إليه آنفاً من اختصام الملائكة، فقال مبيّناً له :

لآيات ٧١ ـ ٨٥ (إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا ... لاَمْلاَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ):

## الآيات: الحادية والسبعون إلى الخامسة والثمانين

(إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِين * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَار وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِين * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لاَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ* إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ * قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لاَمْلاَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ):

### المفردات

فَقَعوا له: اسجدوا له.

ما منعَك: ما صرَفك.

بيديّ: اليد: الجارحة المعروفة، واستعملت هنا كناية عن العناية بخلق آدم (عليه السلام).

من العالين: المستحقّين للترفّع عن طاعة الله.

رجيم: مطرود عن كلّ خير.

لعنتي: اللَّعنة: البُعد من رحمة الله.

المنظَرين: المُمْهلين.

لأُغويّنهم: لأُضلّنّهم.

المُخْلَصين: الذين خلت قلوبهم عن التعلّق بغير الله.

### التفسير

تتضمّن هذه المجموعة من الآيات بيان عدّة أُمور:

١. نشأة آدم وخلقته والمراحل التي مرّت عليه.

٢. الأمر بسجود الملائكة لآدم واستكبار إبليس عن السجود.

٣. طرد إبليس عن ساحة الرحمة وإنظاره إلى يوم يبعثون.

٤. قَسَم إبليس على إضلال ذرية آدم إلاّ المُخلَصين.

٥. إنذار الله سبحانه لمن تبع إبليس.

وإليك بيان هذه الأُمور:

## الأوّل: نشأة آدم وخلقته

٧١. (إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِين):

مرّت خلقة آدم ونشأته إلى أن صار بشراً سوياً بمراحل ثلاث، هي:

أ. المرحلة الترابية وتوابعها.

ب. مرحلة التسوية والتصوير.

ج. مرحلة نفخ الروح.

وإليك دراسة كلّ من هذه المراحل على وجه الإيجاز.

### أ. المرحلة الترابية وتوابعها

يؤكّد القرآن الكريم أنّ الله سبحانه قد خلق الإنسان من تراب متحوّل من مرحلة إلى مرحلة، وهي:

١. التراب، قال سبحانه: (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَاب ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ). آل عمران:٥٩.

٢. الطين، قال سبحانه:(إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِين).

٣. الطين اللازب، قال سبحانه:(إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِين لاَزِب) الصافات:١١.، واللازب: هو الطين الملتصق باليد.

٤. حمأ مسنون، قال سبحانه:(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَال مِنْ حَمَأ مَسْنُون). الحجر:٢٦.

والحمأ: هو الطين الأسود، والمسنون، المتغيّر، أي خلقه من طين أسود متغيّر.

٥. سلالة من طين، يقول سبحانه:(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلاَلَة مِنْ طِين). المؤمنون:١٢.

والسلالة: هي صفوة الطين من الكدر وخلاصته، من سللت الشيء من الشيء أي استخرجته منه.

٦. صلصال كالفخّار، يقول سبحانه:(خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَال كَالْفَخَّارِ). الرحمن:١٤.

أي من طين يابس إذا نُقر صَلْصَلَ وصوّت كالخزف.

ففي المرحلة الّتي سمّيناها بالمرحلة الأُولى نرى تكامل خلقة آدم من طور إلى طور، ولكن الجميع يدور حول التراب والطين بأشكالهما المختلفة إلى أن صار جسم الإنسان أشبه بالطين اليابس الّذي إذا نقر، صوّت.

وهذه الأطوار الستة الّتي يذكرها القرآن في خلقة آدم، ربّما ينسبها إلى خلقة الإنسان كلّه، فيقول:(وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِين) السجدة: ٧ . أو يقول : (إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ)، وما هذا إلاّ لأنّ آدم أبوهم وأصلهم فصحّ أن يصف أولاده بما للأب من الأوصاف.

والإنسان المعاصر وإن كان وليد النطفة، ولكن يصحّ وصفه بهذه الأطوار أيضاً من باب وصف الشيء بحال متعلّقه.

٧٢.(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ):

تتضمّن هذه الآية بياناً للمرحلتين الثانية والثالثة، وإليك التوضيح:

**ب. مرحلة التسوية والتصوير**

لمّا انتهت خلقة الإنسان إلى أن صار جسمه طيناً يابساً له صوت إذا نُقر، جاءت مرحلةٌ ثانية هي مرحلة التسوية، كما في قوله:(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ ...)وأشار سبحانه إلى هذه المرحلة مرّة أُخرى بالتصوير وقال:(وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ)، الأعراف:١١.فقد أشارت هذه الآية إلى مرحلتين من مراحل نشأته:

الأُولى، أعني: خلقه من تراب بأطواره، وقد أشار إليها بقوله سبحانه: (خَلَقْناكُمْ) .

الثانية، وأشار إليها بقوله تعالى: (ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ). والمراد من التصوير، هو التسوية الظاهرية لجسمه.

يقول سبحانه:(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَال مِنْ حَمَأ مَسْنُون * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ) الحجر: ٢٨ ـ ٢٩، فقد أشارت الآية إلى مرحلتين من نشأة آدم وهما: التسوية، ونفخ الروح.

وبالمقارنة بين الآيتين يعلم أنّ المراد من التصوير هو التسوية، غير أنّه سبحانه ينسب التصوير في سورة الأعراف إلى الإنسان كلّه وفي سورة الحجر إلى آدم(عليه السلام)، وقد مرّ أنّ القرآن يصف كلّ إنسان بصفات أبيه آدم. فالتصوير كان لآدم (عليه السلام)، ولكن أثبته للإنسان كلّه من باب وصف الشيء بحال متعلّقه.

وعلى ضوء هذا فالتسوية والتصوير وهو التشكّل بهيئة معينة تحقّقت قبل أن ينفخ فيه الروح، وهي الصورة الّتي خلق آدم وأولاده عليها.

وأمّا الفاصل الزماني بين المرحلة الأُولى والمرحلة الثانية فيظهر من الآيات القرآنية أنّها كانت قليلة، حيث يعبر سبحانه في سورة الأعراف عن الفاصل الزماني بلفظ (ثُمَّ) فيقول: (وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ) ولكنّه يعبّر في سورة الحجر بلفظ «فـ» ويقول: (إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَال مِنْ حَمَأ مَسْنُون * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ)، وهذا يكشف عن أنّ الفاصل الزماني لم يكن شيئاً كثيراً، بل كان على وجه يصحّ فيه استعمال كلتا الكلمتين بنظرتين مختلفتين، وأيضاً تفيد الآيات أنّ خلق آدم لم يكن أمراً دفعياً بل كان تدريجياً تمّ خلال أيام أو شهور قليلة.

**ج. مرحلة نفخ الروح**

وهذه المرحلة السامية هي المرحلة الفاخرة الّتي بها تفوّق الإنسان على سائر المخلوقات، وهي مرحلة نفخ الروح (الّذي يلازم كونه إنساناً عاقلاً مفكرّاً حرّاً ذا إرادة وغرائز وميول)، الّتي بها استحقّ أن يكون مسجوداً للملائكة ومعلّماً لهم ـ كما سيوافيك بيانهما ـ .

قال سبحانه: (وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ).

وبمثل هذا التعبير عبّر مرّة أُخرى في سورة الحجر. لاحظ : الحجر:٢٩.

وقد أضاف سبحانه الروحَ الّتي نفخها في آدم إلى نفسه، وقال: (وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي)، ومن المعلوم أنّه سبحانه أجلّ من أن يكون له جسم وروح، لأنّه تعالى:(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) الشورى:١١، فإذاً تكون الإضافة هنا، إضافة تشريفية نظير إضافة البيت إلى نفسه في قوله: (أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ). البقرة:١٢٥. ومثله تسمية شهر رمضان، بشهر الله، كلّ ذلك لأجل التنويه بشرف الروح والبيت والشهر.

إلى هنا تمّ الكلام حول الأمر الأوّل ـ أعني: نشأة آدم وخلقته ومراحلها ـ وإليك دراسة الأمر الثاني الذي ورد في آيات هذه

المجموعة وهو:

الثاني: الأمر بسجود الملائكة لآدم واستكبار إبليس عن السجود

أمر الله سبحانه ـ في الآيتين السابقتين ـ الملائكة بالسجود لأبي البشر بعد تسويته ونفخ الروح فيه، فامتثل الملائكة كلّهم ذلك سوى إبليس، كما قال:

٧٣. (فَسَجَدَ الْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ):

يظهر من سياق الآيات الواردة في سورة البقرة أنّه سبحانه لمّا علّم آدم الأسماء كلّها وأمره أن ينبئ الملائكة بها، وجّه أمره ـ سبحانه ـ إلى الملائكة بالسجود لآدم إجلالاً له وتكريماً، فسجد الملائكة كلّهم إلاّ إبليس، فصار آدم مسجوداً حقيقياً لهم لا قبلة لهم، نظير الكعبة للمصلّين، ومع ذلك لم يكن الملائكة عابدين لآدم، ولا مشركين في عبادتهم لله سبحانه، ولم يكن أمره سبحانه بالسجود لآدم أمراً بعبادته. كيف والشرك ظلم عظيم(يَا بُنَيّ لاَ تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ). لقمان:١٣، وهو قبيح في منطق العقل والشرع، والله سبحانه لا يأمر به. (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِنْ شَيْء كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ... ).الأنعام:١٤٨.

وعلى ضوء ذلك يجب أن نقف على الفارق الموجود بين سجود الملائكة لآدم، الّذي يُعتبر تكريماً له لا عبادة، وبين سجود عبدة الأصنام، الّذي يُعتبر عبادة لها.

والملائكة مازالوا في صفوف الموحّدين والمسبّحين والمنزّهين لله بخلاف عبدة الأصنام الّذين هم مشركون غارقون في الشرك.

وقد ذكرنا الحدّ التام للعبادة الذي يميّزها عن التكريم والخضوع في كتابنا «القصص القرآنية». لاحظ: القصص القرآنية:١/٤٥ـ٥٢.

إلى هنا تمّ الكلام حول سجود الملائكة، وبقي الكلام في استكبار إبليس الذي أشار إليه بقوله:

٧٤.(إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ):

تدلّ الآية على أنّ إبليس استكبر ولم يسجد لآدم، وهل أنّه استكبر على آدم أو استكبر على الله سبحانه؟ ظاهر ما حكي عن إبليس أنّه استكبر على المسجود له، روى هشام بن سالم عن أبي عبدالله الصادق (عليه السلام) قال:

«أمر الله إبليس بالسجود لآدم مشافهة، فقال: وعزّتك لئن أعفيتني من السجود لآدم لأعبدنّك عبادة ما عبدها خلقٌ من خلقك». تفسير العياشي: ٣ / ٩٦ برقم ٢٦٦١ . ولكنّه في الباطن استكبر على الله سبحانه إذ لو كان مسلّماً ومطيعاً لله تعالى من صميم وجوده لما أقدم على مخالفة أمره، ولذا أبى الله تعالى أن يستجيب لطلبه بإعفائه من السجود، قائلاً ـ عزّ من قائل ـ كما في الرواية المذكورة: «إنّي أُحبّ أن أُطاع من حيث أُريد»، بحار الأنوار : ١١ / ١٤٥، الحديث ١٤ نقلاً عن قصص الأنبياء للقطب الراوندي: ٤٦ برقم ٧ . ومعنى ذلك أنّ آية التسليم هي النزول على أوامر الله سبحانه من غير فرق بين أمر وآخر. وقوله: (وَكَانَ) أي بمعنى صار من الكافرين.

٧٥. (قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ):

ندّد الله تعالى بإبليس لاستكباره وامتناعه عن السجود لما خلقه بيديه، وقال: (مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ)، وقد نسب سبحانه خَلق آدم إلى اليد تشريفاً بالاختصاص، ولغاية التكريم، كما أنّ نسبته إلى اليدين (بالتثنية) كناية عن الاهتمام التام بخلقه وصنعه.

وبعبارة أُخرى: أراد سبحانه بذلك أن يُفهم إبليس بأنّ ما أُمر بالسجود له، هو الذي صنعه وخلقه واهتمّ بخلقه، فترك السجود له يُعدّ إهانة لخالقه، وبذلك يُعلم أنّ لفظ «اليدين» قد استعمل في معناه اللغوي لكن كناية عن الاهتمام به.

وما عن أهل الحديث من الأخذ بظاهر الآية والقول بأنّ له «يدَين»، أو ما عن الأشاعرة أنّ له سبحانه «يدَين» لكن الكيفية مجهولة، كلّ ذلك نابع عن الغفلة عن مجال استعمال اليدين هنا، وفي مقام آخر ـ مثلاً ـ يقول سبحانه: (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ) الذاريات: ٤٧..

وبما أنّ الإنسان يعمل غالباً باليد فالأعمال تنسب إلى اليد، ولكن ربّما يراد المعنى الجارحي، وأُخرى تكون كناية عن معان عقلية، ترشدنا إليها مناسبات المقام، مثلاً المعنى المجازي المناسب لآيتنا (لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ)هو توبيخ إبليس بأنّه تمرّد ولم يسجد لما اهتمّ الله بخلقته مع عنايته به. كما أنّ المعنى المناسب في قوله سبحانه: (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ) هو القدرة والقوّة لأنّ بناء السماوات العظام الّتي يدهش العقل نظامها وخلقتها هو ذاك المعنى دون أن يشاركه أحد من خلقه، كما سيوافيك في هذا الجزء بيان خاص عن «وجود المجاز في القرآن الكريم» وأنّه من لوازم سمو المعنى ودقّته، فانتظر.

قوله تعالى: (أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ) هذا استفهام توبيخي، فإبليس يُسأل عن ترك سجوده هل كان نابعاً عن استكباره الذي وقع في غير محلّه، أو كان واقعاً منه لكونه من الذين يعلو مقامهم من أن يسجدوا لآدم؟ وبما أنّ الثاني باطل، فتعيّن الأوّل.

| ما تعلّل به إبليس من عدم سجوده |
|---|

٧٦. (قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَار وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِين):

يعدّ إبليس أوّل من أسّس العنصرية ومارسها، بادّعائه التفوّق على آدم (عليه السلام)، حيث تعزّز بخلقه من النار، واستوهن خلق آدم من الطين، و (قَالَ)سبب عدم سجودي هو (أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ): أي من آدم (خَلَقْتَنِي مِنْ نَار وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِين)ولمّا كانت دعواه هذه ساقطة لم يتعرّض الوحي الإلهي لردّها (لأنّ العناصر ـ أعمّ من النار والطين والماء وغيرها ـ في صف واحد، والجميع مخلوق لله ولا مزية لواحد على الآخر ؛ لأنّ لكلٍّ دوراً في استمرار الحياة) ولكنّه بدلاً من الجواب خوطب بقوله تعالى:

| الثالث: طرد إبليس عن ساحة الرحمة |
|---|

٧٧ و٧٨. (قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ):

طرد الله سبحانه إبليس عن المقام الذي كان فيه، ومعنى ذلك أنّ اللائق بكلّ من حلّ بهذا المكان أن يخلع عن نفسه رداء التكبُّر، ولذلك أمره بالخروج، وقال له:( قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ): أي مطرود من منازل الملأ الأعلى (وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي)يا إبليس، أي إبعادي من رحمتي (إِلَى يَوْمِ الدِّينِ) يعني يوم الجزاء. وقال سبحانه، في موضع آخر:(وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ). الحجر:٣٥. والظاهر أنّ اللام للعهد أي لعنة الله عليه.

| استمهال إبليس |
|---|

إنّه سبحانه بعدما طرد إبليس من رحمته استمهله إبليس بقوله:

٧٩. (قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ):

فأجابه سبحانه بقوله:

٨٠ و ٨١.(قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ):

مع أنّ إبليس طلب الإمهال إلى يوم يبعثون، لكنّه سبحانه أمهله إلى يوم الوقت المعلوم لا إلى يوم البعث، وذلك لأنّ الأحياء من الممكنات كلّها تذوق الموت في النفخة الأُولى ومنها إبليس، ثمّ إنّهم يبعثون في النفخة الثانية التي تقوم القيامة بعدها، قال سبحانه:(وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ). الزمر:٦٨.

وربما يُطرح هنا سؤال وهو: أنّه لماذا أمهل الله سبحانه إبليس بعد أن طرده عن حظيرة القدس؟

والجواب: أنّ إمهال إبليس كان لمقاصد أشار إليها الإمام عليّ (عليه السلام)بقوله: «فَأَعْطَاهُ اللهُ النَّظِرَةَ اسْتِحْقَاقاً لِلسُّخْطَةِ، وَاسْتِتْماماً لِلْبَلِيَّةِ، وَإِنْجازاً لِلْعِدَةِ». نهج البلاغة: الخطبة ١.

ومن المعلوم أنّ الله سبحانه إنّما خلق الإنسان لغاية، يكشف عنها قوله: (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) الملك: ٢ ،. وعملية الابتلاء أو الاختبار إنّما تتحقّق إذا واجه الإنسان الصراع في حياته بين الخير والشرّ.. بين الحقّ والباطل.. بين الطيّب والخبيث، وإبليس (وذريّته) إنّما يزيّن له الشرّ، ويغريه بالباطل، ويحسّن له الخبيث، فإذا انقاد له الإنسان فقد خاب وهوى، وإن امتنع منه واعتصم بربّه فقد فاز ونجا .

الرابع: قسم إبليس على إضلال ذريّة آدم إلاّ المخلَصين

٨٢ و ٨٣. (قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ):

لمّا أيقن إبليس بأنّ الله سبحانه قَبِل استمهاله، أظهر ما في نفسه من العداء لآدم وذريته والرغبة في الانتقام منهم، ولذلك أقسم بعزّة الله و(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ) ثمّ استثنى طائفة خاصّة وهم ما أشار إليهم بقوله: (إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ)، فقد اعترف بعجزه عن إغواء المُخلصين لأنّهم بالمجاهدات والرياضات الشرعية أخلوا قلوبهم عن كلّ تعلّق بغير الله سبحانه.

قال الإمام عليّ (عليه السلام): «الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي لَبِسَ الْعِزَّ وَالْكِبْرِيَاءَ، وَاخْتَارَهُمَا لِنَفْسِهِ دُونَ خَلْقِهِ، وَجَعَلَهُمَا حِمًى وَحَرَماً عَلَى غَيْرِهِ، وَاصْطَفَاهُمَا لِجَلاَلِهِ، وَجَعَلَ اللَّعْنَةَ عَلَى مَنْ نَازَعَهُ فِيهِمَا مِنْ عِبَادِهِ. ثُمَّ اخْتَبَرَ بِذلِكَ مَلاَئِكَتَهُ الْمُقَرَّبِينَ، لِيَمِيزَ الْمُتَوَاضِعِينَ مِنْهُمْ مِنَ الْمُسْتَكْبِرِينَ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ وَهُوَ الْعَالِمُ بِمُضْمَرَاتِ الْقُلُوبِ، وَمَحْجُوبَاتِ الْغُيُوبِ: (إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَال مِنْ حَمَأ مَسْنُون * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلاَّ إِبْلِيسَ)، الحجر:٢٨ـ٣٠. اعترضته الحميّة فافتخر على آدم بخلقه، وتعصّب عليه لأصله». نهج البلاغة: الخطبة ١٩٢، «القاصعة».

ربّما يقال: إذا كان هذا دور الشيطان وأنّه على إضلال الإنسان إلاّ المتعالين منهم، فما هو السبب لخلقه، أو ليس هو شراً مطلقاً والشرّ لا ينسب إلى الله سبحانه؟

والجواب من وجهين:

الوجه الأوّل: أنّ إبليس لم يكن يوم خُلق شيطاناً بالمعنى المعروف بل كان موجوداً مطهّراً كسائر المجرّدات، وإنّما السبب لانحرافه وسقوطه من ذروة القداسة إلى حضيض المهانة إنّما هو كبره على الله تعالى، يقول الإمام عليّ (عليه السلام): «فَعَدُوُّ اللهِ إِمَامُ الْمُتَعَصِّبِينَ، وَسَلَفُ الْمُسْتَكْبِرِينَ، الَّذِي وَضَعَ أَسَاسَ الْعَصَبِيَّةِ، وَنَازَعَ اللهَ رِدَاءَ الْجَبْرِيَّةِ، وَادَّرَعَ لِبَاسَ التَّعَزُّزِ، وَخَلَعَ قِنَاعَ التَّذَلُّلِ. أَلاَ تَرَوْنَ كَيْفَ صَغَّرَهُ اللهُ بِتَكَبُّرِهِ، وَوَضَعَهُ بِتَرَفُّعِهِ، فَجَعَلَهُ فِي الدُّنْيَا مَدْحُوراً، وَ أَعَدَّ لَهُ فِي الاْخِرَةِ سَعِيراً؟!». نهج البلاغة: الخطبة ١٩٢، «القاصعة».

الوجه الثاني: أنّ سلطان إبليس على الذين يتّبعونه ليس من باب الجبر والقهر، بأن يأخذ بزمام حياتهم بيده، ويُلقيهم في المهاوي والمهالك، وإنّما يتجلّى سلطانه بالإغراء والخداع، وتزويق الباطل وزخرفته، أو ما يعبّر عنه القرآن بالتزيين والهمز والوسوسة في الصدور، كما في قوله تعالى: (لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ) الحجر:٣٩، وقوله: (وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ) المؤمنون:٩٧، وقوله سبحانه: (فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ). الأعراف:٢٠.

الخامس: إنذار الله سبحانه لمن تبع إبليس

٨٤ و ٨٥.(قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ):

لمّا ابتدأ إبليس كلامه بقوله: (فَبِعِزَّتِكَ) بدأ سبحانه خطابه بقوله: (فَالْحَقُّ)، إنّما الكلام في بيان إعراب الآية فهي مركّبة من جملتين:

١. (فَالْحَقُّ).

٢.(وَالْحَقَّ أَقُولُ).

أمّا الجملة الثانية فواضح أنّ الحق مفعول قوله: (أَقُولُ) أي: أقول الحقّ.

وأمّا الجملة الأُولى فالظاهر أنّ الفاء للقسم، وإن لم يذكر النحاة ذلك، فإنّ القواعد تعرض على القرآن، لا القرآن على القواعد، والشاهد لذلك الآية التالية، أعني قوله تعالى: (لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ)، فإنّ اللاّم في قوله: (لأَمْلأَنَّ)أظهر دليل على أنّه جواب القسم المذكور قبله، وبذلك تستغني عن الوجوه الكثيرة التي ذكرها المفسّرون في تفسير هذه الجملة، فإن كان ما ذكرناه مقبولاً فبِهِ، وإلاّ فالوجه الثاني هو أن نقول: «الفاء» للاستئناف، والحقّ مبتدأ خبره: قولي أو قَسَمي، حتى يتفرّع عليه قوله: (لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ).

ثمّ إنّ معنى الآية (فَالْحَقَّ): أي قَسَماً به (وَالْحَقَّ أَقُولُ) أي أقول الحقّ ولا حاجة إلى القسَم، وإنّما حلف بالحقّ ليكون مقابلاً لحلف إبليس بقوله: (فَبِعزّتك). ثم أخبر سبحانه عن المقسم عليه وقال:(لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ)، وقد عرفت أنّ وسوسة الشيطان ليست بمعنى سلب الاختيار عن الإنسان ولذلك لا يُعدّ فعله سبحانه من ملء جهنم منه وممّن تبعه، أمراً على خلاف العدل.

إلى هنا تمّ الحوار الدائر بين الله سبحانه وإبليس. وفي نهاية الأمر يذكر ما هو شأن النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) في مجال التبليغ، وهذا ما تحكيه الآيات التالية:

| |
|---|
| الآيات ٨٦ ـ ٨٨ (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْر ...وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِين). |
| الآيات: السادسة والثمانين إلى آخر السورة |
| (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْر وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ * إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِين). |
| المفردات |
| المتكلِّفين: قال الراغب: التكلُّف على ضربين: محمود... ثم قال: والثاني: مذموم وهو ما يتحرّاه الإنسان مراءاةً، ثم ذكر الآية. المفردات للراغب:٤٣٩. <br> والظاهر أنّ التكلّف عبارة عمّا يشقّ على المرء عمله، وعلى هذا فالمتكلّف هو من يطلب ما ليس له أو يدّعي علم ما لا يعلمه. |
| التفسير |

لمّا تضمنت آيات السورة مناظرة النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) مع الكفّار وجدالهم معه في غير مورد من الموارد، صار البيان القرآني إلى توضيح مقام النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)وموقعه في تبليغ الدين، وبذلك يبرأ عمّا يلصقون به من التهم، وذكر في ذلك أُموراً أربعة، اثنان منها في قوله:

٨٦. (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْر وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ):

الأوّل: هو أنّ ما يقوم به من الإنذار والتبشير إنّما هو لله سبحانه وامتثالاً لأمره دون أن يطلب منكم أجراً من مال ومقام، وهذا شعار الأنبياء كلّهم عبر التاريخ ؛ لأنّ العمل إذا كان لله كان أجره عليه لا على غيره، وسيوافيك في تفسير قوله سبحانه: (قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى)( الشورى:٢٣.) أنّ مودّة القربى أجر صوري وليس أجراً حقيقياً وإنّما يعود نفعه إلى المحبّ قبل أن يعود على المحبوب، فإنّ حبّ ذوي القربى يجرّ الإنسان إلى أن يكون مثلهم أو مشابهاً لهم عقيدة وعملاً وإلاّ فلا يكون

الحبّ حبّاً واقعياً.

الثاني: ما أشار إليه بقوله: (وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ): أي لست ممّن يستعلي على الناس بما لا يعلم، وإنّما أقول ما أقول عن طريق الوحي. وعن «جوامع الجامع» أنّه روي عن النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم): «للمتكلّف ثلاث علامات: ينازع من فوقه، ويتعاطى ما لا ينال، ويقول ما لا يعلم». الميزان في تفسير القرآن:١٧/٢٣٣، نقلاً عن جوامع الجامع للطبرسي: ٣ / ٢٠٦ .

ويدلّ على ما ذكرنا من المعنى للمتكلّفين الآية التالية كما سيوافيك:

٨٧. (إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ):

الثالث: وهو أنّ القرآن (ذِكْرٌ)لعامّة الناس، أي يذكِّرهم بما فطرَهم سبحانه عليه، من التوحيد والعدل والأخلاق الفاضلة والانزجار عن الرذائل ومساوئ الأخلاق.

٨٨. (وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِين):

الرابع: العلم بصدق القرآن وأنّه حقّ لا ريب فيه، والظاهر أنّ الضمير في (نَبَأَهُ) يرجع إلى (ذِكْرٌ)، ثمّ المراد من قوله:(بَعْدَ حِين) إمّا بعد الموت أو بعد يوم بدر، إذ يتبيّن صدق كلامه وعلوّ مقامه وصلته بالله سبحانه، وكذب تلك الأباطيل الّتي حاولت النيل من عظمة القرآن، وصيرورتها هباءً منثوراً.

***

تمّ تفسير سورة ص

بحمد الله تعالى

## المجاز في القرآن الكريم

هذه الرسالة ألحقناها بهذا الجزء إكمالاً للبحث الوارد في الآية ٧١ من سورة يس. لاحظ ص ١١٩ .

اختلفت كلمات العلماء في وجود المجاز في الذكر الحكيم، فهم بين منكر ومثبت، ولكلّ طائفة دليلها، وقبل الورود في صلب الموضوع (وجود المجاز في القرآن) نشرح معنى المجاز وحقيقته في علم البلاغة، فنقول:

عُرّف المجاز بأنّه استعمال اللفظ في غير ما وضع له لمناسبة بين المعنى الحقيقي والمجازي، فإن كانت المناسبة هي المشابهة فالمجاز استعارة، وإلاّ فالمجاز مرسل، كاستعمال اللفظ الموضوع للجزء في الكل، مثل ما ورد في قول الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام): «عَيْنِي بِالْمَغْرِبِ كَتَبَ إِلَيَّ يُعْلِمُنِي»، نهج البلاغة: قسم الكتب، برقم ٣٣. فالعين مجاز مرسل، مناسبته (الجزئية) لأنّ العين جزء من الإنسان .

وبالعكس، أي استعمال لفظ الكلّ، والمراد منه الجزء، مثل قولك : (ضربت زيداً)، والمراد عضو منه.

وعلى قول هؤلاء يكون استعمال اللفظ في غير ما وضع له بالوضع، وحسب تحديد الواضع، حيث إنّ الواضع خصّه فيما لو كانت هناك علاقة مشابهة أو سائر العلائق البالغة إلى خمس وعشرين علاقة.

هذا هو الرأي السائد إلى يومنا هذا بين الأُدباء، ولكن لشيخ مشايخنا محمد رضا الاصفهاني (١٢٨٥ ـ ١٣٦٣ هـ) آراء مبتكرة في الأدب العربي عامّة، وفي هذا الموضوع خاصّة، حيث أثبت أنّ المجاز ـ مطلقاً ـ استعارة كان أو مرسلاً، من مقولة استعمال اللفظ في معناه، غاية الأمر بادّعاء أنّ المورد من مصاديق الموضوع له.

وبعبارة أُخرى: أنّ المتكلّم في استعمالاته المجازية لا يشير إلى معنى جديد وإنّما يشير إلى مصداق جديد.

وقد شرح نظريته في كتابه «وقاية الأذهان» وقاية الأذهان: ١٠٣ ، ونالت استحسان أساتذتنا كالسيد البروجردي، والسيد الإمام الخميني رحمهما الله.

وعلى ضوء ما ذكره، فالمتكلّم يستعمل الكلمة في كلا المثالين التاليين:

١. رأيت أسداً في الغابة.

٢. رأيت أسداً في المدرسة، بمعنى واحد بالإرادة الاستعمالية غاية الأمر أنّ التعبير الأوّل يشتمل على الاستعمال فيما وضع له فقط، وأمّا التعبير الثاني فيشمل ـ وراء الاستعمال فيما وضع له ـ ادّعاء أنّ زيداً البطل من مصاديق الأسد.

وبتعبير آخر: إنّ دور المستعمل في المثال الأوّل يتوقّف بعد الاستعمال فيما وضع له، لكن دوره في المثال الثاني لا يتوقّف، بل يستمر ببيان مصداق ادعائيّ للمستعمل فيه، والدليل على ما ذكره كالتالي:

إنّ الغاية المتوخاة من المجاز هي التأكيد على الحسن والصباحة، أو البطولة والشجاعة، أو إثارة التعجب أو رفعه، وهذه الغايات لا تتحقّق إلاّ باستعمال اللفظ في المعنى الحقيقي وادّعاء أنّ المورد من مصاديقه، وإليك بيان الأمثلة:

### ١. التأكيد على الحسن والصباحة

لما انتشر الخبر في عاصمة فرعون مصر عن تعلّق سيدة القصر بمملوكها، كما يحكي ذلك سبحانه بقوله: (وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) يوسف: ٣٠ ، فلمّا بلغها قول النسوة أقامت لهن مأدبة في قصرها، وبينما كن يتفكّهن ويستعملن السكاكين عند الأكل أمرت يوسف (عليه السلام)بأن يخرج عليهن، قال سبحانه: (فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَة مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ للهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ) يوسف: ٣١ . .

فإنّ الغاية من استعمال كلمة «مَلَك» هي بيان ما ليوسف من النضارة والصباحة، ولا يؤدى ذلك إلاّ باستعمال اللفظ في معناه الحقيقي دون المجازي، أي الإنسان الجميل وإلاّ لنزلت عن ذروة البلاغة وصارت كلاماً عادياً، كما إذا قيل: ما هذا بشراً إن هذا إلاّ إنسان جميل.

### ٢. التأكيد على الشجاعة التامّة

ربّما يتعلّق الغرض ببيان شجاعة الرجل وبطولته في الحروب وأمام الأعداء فيستخدم القائل لفظة الأسد ويقول:

لدى أسد شاكي السلاح مقذّف *** له لُبدُ أظفاره لم تقلّمِ

فلبيان شجاعة الرجل وبطولته يسمّيه أسداً ويصفه بالأوصاف التالية:

أ. شاكي السلاح، وهو مقلوب الشائك أي حديد السيف.

ب. مقذّف أي له صولات وهجمات في ساحات الوغى.

ج. له لبد أي شعر كثير على عنقه كالأسد.

د. أظفاره لم تُقلّم، أي مخالبه طويلة .

فالشاعر ببيان هذه الأوصاف يصوّر صاحبه بأنّه من مصاديق الأسد بشهادة أنّ له لبداً ومخالب، فلو استعمل الأسد في معناه الحقيقي يكون للكلام بلاغة وحلاوة خاصّة، وأمّا إذا قلت بأنّه بمعنى الرجل الشجاع فلا تجد تلك الحلاوة مهما بالغ في شجاعته وطول مخالبه .

### ٣. إثارة التعجّب

يقول الشاعر:

قامت تظلّلني ومن عَجَب *** شمسٌ تظلّلني من الشمس

إنّ الشاعر في هذا البيت يصور لنا امرأة حسناء قامت فوقه لتحجب عنه أشعة الشمس، فهو يصوّرها كالشمس في إشراقها وصباحتها، وفي الوقت نفسه فهي تظلّله من شمس أُخرى، وهذا أمر تعجب منه الشاعر إذ كيف تحجب الشمسُ الشمسَ، فإنّ إثارة التعجب فرع استعمال الشمس في معناها الحقيقي، أي ذلك النجم المنير الّذي يبعث ضوءه كلّ يوم، ولو قيل مكانه المرأة الحسناء قامت تظلّلني من الشمس فلا يثير تعجباً أبداً.

### ٤. رفع التعجّب

قال الشاعر:

لا تعجبوا من بِلى غِلالتِهِ *** قد زرّ أزراره على القمر

البِلى هو الاندراس، والغلالة ثوب رقيق يُلبس تحت الثياب، و «زرّ» القميص: شدّ أزراره وأدخلها في العُرى. فالشاعر بصدد رفع تعجّب الناظر له لأنّه تعجّب من اندثار وبلى لباسه، ولكنّه يدفع هذا التعجّب بأن قال: إنّ ثوبه يتعرّض إلى أشعة القمر، حيث إنّه وصف حبيبته بالقمر، فلو استعمل القمر في معناه الحقيقي صار لرفع التعجّب معنىً حقيقياً، وأمّا لواستعمل في المرأة الحسناء لا يصلح جواباً لرفع تعجّب الناس.

إلى غير ذلك من الغايات الّتي يتتبعها البلغاء الفصحاء في خطبهم وأشعارهم ولا تتحقّق تلك الغايات إلاّ بما ذكرنا.

### سؤال وإجابة

إنّ تلك النظرية تصحّ في أسماء الأجناس الّتي يمكن أن يتصوّر لكلّ اسم منها فردان: حقيقي، وادّعائي، وأمّا الأعلام كحاتم ويوسف فلا يصحّ فيهما، إذ ليس لهما إلاّ مصداق واحد.

والإجابة عن ذلك واضحة، فإنّ من يصف جمال أحد ويقول: هو يوسف زماننا، أو يصف سخاء إنسان ويقول: هو حاتم عصرنا، فإنّه يدّعي أنّ للّفظين مصداقين: حقيقي وادعائي، وبما أنّ الادّعاء من مقولة الاعتبار فهو خفيف المؤونة.

### سؤال آخر ما هو الفرق بين هذه النظرية وما ذكره السكّاكي في كتابه «مفتاح العلوم»؛

ما هو الفرق بين هذه النظرية وما ذكره السكّاكي في كتابه «مفتاح العلوم»، حيث قال: إنّ المعنى المجازي فرد إدعائيّ للمعنى الحقيقي ؟

والجواب: أنّ النظريتين وإن كانتا تشتركان في أصل وجود الادّعاء، لكن النظرية المذكورة تتبنّى استعمال اللفظ في معناه الحقيقي، وتطبّقه على المورد باعتبار أنّه من مصاديقه.

وأمّا السكّاكي فالمجاز عنده استعمال اللفظ في غير ما وضع له من أوّل الأمر، لكن المجوّز لاستعمال لفظ الأسد في ما لم يوضع له، هو ادّعاء كونه من مصاديق ما وضع له، وإليك نصّ عبارته: وأمّا المجاز فهو الكلمة المستعملة في غير ما هي موضوعة له بالتحقيق، استعمالاً في الغير بالنسبة إلى نوع حقيقتها، مع قرينة مانعة عن إرادة معناها في ذلك النوع . مفتاح العلوم: ١٥٣، ط . مصر: ١٣١٨ هـ.

وبذلك يُعلم أن تسمية المجاز بهذا الاسم على وجه الدقة، فإنّ المراد من المجاز هو المعبَر ومحلّ التجاوز، وكأنّ المتكلّم ينقل ذهن السامع من معنى إلى معنى، ومن حقيقة إلى حقيقة أُخرى، والمعنى الثاني وإن كان مصداقاً ادّعاه للمعنى اللغوي لكنّه في حدّ نفسه

حقيقة كسائر الحقائق.

نماذج من المجازات الواردة في الكتاب العزيز

وهنا نحن نذكر نماذج من المجازات الواردة في الكتاب العزيز على وجه لا يمكن لإنسان موضوعي إنكاره فيها:

١. قوله سبحانه حاكياً قول نسوة المدينة بعد أن خرج عليهن يوسف (عليه السلام): (مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ) يوسف: ٣١ ..

فقد وُصِفَ يوسفُ على لسانهن بأنّه مَلَكٌ مع أنّه ليس ملَكاً، وإنّما هو بشر، وما هذا إلاّ لأجل بيان غاية جماله وصباحة وجهه.

٢. قوله سبحانه حاكياً عن اليهود: (وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ).( المائدة: ٦٤ .)

لمّا كان الجواد ينفق باليد والبخيل يمسك باليد عن الإنفاق، أضافوا الجود والبخل إلى اليد فقالوا للجواد مبسوط اليد، وللبخيل مقبوض الكف، وعلى هذا فمعنى قوله: (يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ)أي مقبوضة عن العطاء ممسكة عن الرزق، كما أنّ المراد من قوله: (بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ) هو جواد. وعلى ضوء ما ذكرنا فكلمة الغلّ والبسط استعملتا في المعنى اللغوي لكن أُريد بهما الفرد الادّعائي (الجواد والبخيل) وإلاّ لما كان للآية معنى محصّل إذا أُريد المعنى اللغوي دون التجاوز به إلى معنى آخر، إذ تكون الآية بمعنى أنّ يد الله مقبوضة أو مربوطة بالغل، بل يداه مبسوطتان بمعنى مفتوحتان.

٣. قوله سبحانه: (وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ) الإسراء: ٢٩ ..

قال السيد الرضي(رحمه الله): المراد بها اليد الّتي هي الجارحة على الحقيقة، وإنّما الكلام الأوّل كناية عن التقتير، والكلام الآخر كناية عن التبذير، وكلاهما مذموم حتّى يقف كلّ منهما عند حدّه ولا يجري إلاّ إلى أمده، وقد فسّر هذا قوله سبحانه: (وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا) الفرقان: ٦٧ .. لاحظ تلخيص البيان في مجازات القرآن: ٩٨ . ومراده من الكناية، المجاز.

الفرق بين المجاز والكناية، هو أنّ القرينة في المجاز تمنع من إرادة المعنى الوضعي (الأصلي)، وهي لا تمنع منه، بشكل عام، في الكناية.

٤. قوله سبحانه: (وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ* نَارٌ حَامِيَةٌ) القارعة: ٨ ـ ١١ ..

فقد أطلق لفظ الأُم على الهاوية، وإنّما سمّاها بذلك لأنّ الإنسان يأوي إليها كما يأوي الولد إلى أُمّه، وإن شئت قلت: إنّ الأُم كافلة لولدها وملجأ له، كذلك النار فهي كافلة للكافر ومأوى وملجأ له .

٥. قال سبحانه: (وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ) البقرة: ١٨٨ ..

فإنّ المراد من الأكل هو التصرّف في أموال الناس بالظلم والغصب والوجوه الّتي لا تحل. وإنّما أطلق الأكل على التصرّف ؛ لأنّ الغاية من جمع الأموال هي العيش والالتذاذ الّذي من أبرز مظاهره الأكل .

هذه نماذج من المجازات الواردة في القرآن الكريم، وكم لها من نظير، فمن أراد الاستقصاء فعليه الرجوع إلى كتاب «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للعلاّمة الجليل السيد الرضي (رحمه الله)، فقد استقصى المجازات القرآنية (وهي أعمّ من المجاز المصطلح أو الكناية) من فاتحة الكتاب إلى سورة الناس .

***

## الكناية والتعريض في القرآن الكريم

ما مرّ عليك من الكلام كان حول المجاز، وقد عرفت حقيقته أوّلاً وروده في القرآن الكريم، وقد ذكرنا نماذج منه.

وأمّا الكناية فهي عبارة عن ذكر الملزوم لغاية الانتقال إلى لازمه فالمكنّي يستعمل اللفظ في معناه اللغوي لكنّه يتّخذه معبراً للانتقال إلى لازمه، فإذا قال: زيد طويل النجاد، أو كثير الرماد فإنّه يعني بذلك المعنى اللغوي، لكن لينتقل به المخاطب إلى لازمه، فإنّ لازم طول النجاد (حمالة السيف) طول القامة، كما أنّ لازم كثرة الرماد كثرة الضيافة، فلم يذكروا المراد بلفظه الخاصّ به ولكن توصّلوا إليه بذكر معنى آخر هو رديفه في الوجود، لأنّ القامة إذا طالت طال النجاد، وإذا كثر القِرى كثر الرماد. والعرب تعدّ الكناية من البراعة والبلاغة وهي عندهم أبلغ من التصريح، وأكثر أمثالهم الفصيحة على مجاري الكنايات . البرهان في علوم القرآن: ٢ / ٣٠٠ ـ ٣٠١.

وممّا ذكرنا يُعلم أنّ الكناية أُخت المجاز، تستعمل في المعنى اللغوي بالإرادة الاستعمالية غير أنّ الإرادة الجدّية تعلّقت بلازم اللفظ، فهناك أُمور ثلاثة:

١. الحقيقة اللغوية .

٢. المجاز اللغوي.

٣. الكناية والتعريض.

أمّا الأوّل فتتعلّق فيه الإرادة الجدية بنفس ما تعلّقت به الإرادة الاستعمالية فإذا قلت: اسقني ماءً؟ فقد تعلّقت الإرادتين بشيء واحد، وأمّا الثاني والثالث فقد تعلّقت الإرادة الاستعمالية فيهما بالمعنى اللغوي لكن لغاية الانتقال إلى مصداق من مصاديقه الادّعائية كما في المجاز، أو لازم من لوازمه كما في الكناية.

ثم إنّ الفرق بين المجاز والكناية هو أنّ المجاز يقوم على عملية الادّعاء، وأمّا الكناية فهي غنية عن الادّعاء.

ثم إنّ الكناية شائعة في كلام العرب، فهم يكنّون عن الإنسان الموصوف بالطهارة بقولهم: فلان عفيف الإزار، وعمّن يجاهر غيره بالعداوة: لبسَ له جلد النَّمر، وعمّن يغضب: ورم أنفه، كما يكنّون عن ترك الوطء بشدّ المئزر، وعن الجماع بالعُسيلة، وقد ورد أنّ النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم)قال لامرأة رفاعة القرظي: «حتّى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك» شبّه لذّة الجماع بذوق العسل، واستعار لها ذوقاً، وإنّما أُنثّ لأنّه أراد قطعة من العسل. النهاية في غريب الحديث: ٣ / ٩٦ .

وقد اختلفت كلمات العلماء في وجود الكناية في القرآن، فقد حكى صاحب البرهان عن الطرطوسي أنّه قال: قد اختلف في وجود الكناية في القرآن وهو كالخلاف في المجاز، فمن أجاز وجود المجاز أجاز الكناية، وهو قول الجمهور، ومن أنكر ذلك أنكر هذا. وبما أنّ أدلّ دليل على إمكان الشيء وقوعه،

| نماذج من الكنايات نظير ما ذكرناه في المجاز: |
|---|

نأتي بنماذج من الكنايات نظير ما ذكرناه في المجاز:

١. إنّ من عادة القرآن الكريم الكناية عن الجماع بالملامسة والمباشرة والدخول، قال تعالى: (فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ ) البقرة: ١٨٧ .فكنّى بالمباشرة عن الجماع، لما فيه من التقاء البشرتين.

وقال تعالى: (أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاءَ ) النساء: ٤٣. إذ لا يخلو الجماع عن الملامسة .

وقال تعالى: (رَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ) النساء: ٢٣ . .

٢. كنّى القرآن الكريم عن فضلة الإنسان بالغائط الّذي هو بمعنى قرارة من الأرض تحفها آكام تسترها، فأطلق هنا وأُريد منه قضاء الحاجة، قال تعالى: (أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ ) النساء: ٤٣ ..

قال الطبرسي: الغائط أصله المطمئن من الأرض وكانوا يتبرّزون هناك ليغيبوا عن عيون الناس، ثم كثر ذلك حتّى قالوا للحدث

غائط. مجمع البيان: ٣ / ٩٣.

٣. قال سبحانه: (وَلاَ يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ) الممتحنة: ١٢.وقد كنّى بذلك عن الزنا.

٤. قوله سبحانه في وصف امرأة أبي لهب: (وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ). المسد: ٤ . فقد كنى بذلك عن كونها نمّامة.

٥. قوله سبحانه: (وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً) الإسراء: ٧٢..

ظاهر الآية مع قطع النظر عن القرائن الحافّة، هو أنّ فاقد البصر في هذه الدنيا كذلك يكون حاله في الآخرة، ولكنّه غير مراد قطعاً لقوله سبحانه في ذيل الآية: (وَأَضَلُّ سَبِيلاً)، وهذا دليل على أنّ الآية كناية عن أنّ فاقد البصيرة في هذه الدنيا يحشر كذلك في الآخرة، لأنّ الدنيا مزرعة الآخرة، وما زرعه الإنسان في حياته في الأُولى يجنيه في الآخرة.

٦. قال سبحانه: (وَلَوْ تَرى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلاَئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ) الأنفال: ٥٠ ـ ٥١ ..

ترى أنّه سبحانه في هذه الآية ينسب المعاصي الّتي يقترفها الناس ـ والّتي تُفضي بهم إلى عذاب الحريق ـ إلى الأيدي، وفي آيات أُخرى، يقول سبحانه: (وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ) البقرة: ٩٥ ، إلى غير ذلك من الآيات الّتي تدلّ على أنّ العقوبة الأُخروية كلّها بسبب ما قدّمت يد الإنسان العاصي، كما أنّه سبحانه يشير إلى ذلك في آية ثالثة بلفظ آخر ويقول: (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ) الشورى: ٣٠ .فالمصائب كلّها نتيجة ما كسبت يد الإنسان الخاطئ.

هذا ومن المعلوم أنّ المعاصي كما تكتسب بالأيدي تكتسب بالأعين والأسماع والأرجل وسائر الجوارح، فما يقترفه المذنب ليس منحصراً بالأيدي فقط، بل يعمّ سائر جوارحه وأعضائه، ومع ذلك نرى أنّه سبحانه يلقي المسؤولية كلّها على الأيدي وما هذا إلاّ لأنّه كناية عن كلّ ما يقوم به الإنسان ، وإنّما خصّ الأيدي بالذكر لدورها الكبير في الأفعال والأعمال، فأغلب أعمال الإنسان تقوم به الأيدي، فأُطلقت الأيدي وأُريد بها كلّ الجوارح الّتي لها دور في الطاعة والعصيان.

٧. قال سبحانه: (وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا) الإسراء: ٢٤..

وقال سبحانه: (وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ) الحجر: ٨٨ ..

وقال سبحانه: (وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) الشعراء: ٢١٥ ..

الجَناح عبارة عمّا يطير به الطائر، يقولون: ركبوا جناح طائر، أي فارقوا أوطانهم، ويقال: ركب جناحي نعامة، أي جدّ في الأُمر وعجّل، ويقال: فلان مقصوص الجناح بمعنى كونه عاجزاً.

قال سبحانه: (جَاعِلِ الْمَلاَئِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ) فاطر: ١ . .

وذو الجناحين لقب جعفر الطيار لقّبه به رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)لما روي أنّه لمّا قطعت يداه يوم مؤتة جعل الله له جناحين يطير بهما، وجناحا الطائر بمنزلة اليدين من الإنسان، سمّيا بذلك لميلهما في شقّيه من الجنوح وهو الميل. مجمع البحرين، مادة «جنح».

هذا حول الجناح، وأمّا الذُّل بالضّم فهو: الانقياد والسهولة، أو اللين والتواضع، وتذلّل له: خضع وتواضع .

إذا عرفت ذلك فاعلم أنّ الشريف الرضي يفسّر الآية بأوضح العبارات ويذكر أنّ في الآية استعارة عجيبة، يقول: والمراد بذلك الإخبات للوالدين، وإلانة القول لهما، والرفق واللطف بهما، وخفض الجناح في كلامهم عبارة عن الخضوع والتذلّل وهما ضد العلو والتعزّز، إذ كان الطائر إنّما يخفض جناحه إذا ترك الطيران، والطيران هو العلو والارتفاع، وإنّما قال تعالى: (وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ

الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ )ليبيّن تعالى أنّ سبب الذلّ هو الرحمة والرأفة، لئلاّ يُقدّر أنّه الهوان والضراعة، وهذا من الأغراض الشريفة والأسرار اللطيفة. تخليص البيان في مجازات القرآن: ٩٨ .

وأمّا قوله تعالى: (وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ)، ففيه ثلاثة احتمالات:

الأوّل: أن يكون الخفض في الآية مأخوذاً من خفض الطائر جناحه ليجمع تحته أفراخه رحمة بها وحفظاً لها، فأمر سبحانه النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم)أن يسع برحمته ورأفته عامة المؤمنين ويجعل الجميع تحت رحمته بلا فرق بين مؤمن وآخر، كما أنّ الطائر يضمّ جميع أفراخه تحت جناحه. تفسير الميزان: ١٥ / ٣٢٩ .

الثاني: أن يكون خفض الجناح كناية عن لين الجانب والتواضع والرفق، لأنّ الطائر يخفض جناحيه حين يهمّ بالهبوط . التبيان: ٨ / ٦٧ ؛ في ظلال القرآن: ١٩ / ١١٨ .

الثالث: أن يكون كناية عن ملازمة المؤمنين، وحبس النفس عليهم من غير مفارقة، كما أنّ الطائر إذا خفض الجناح لم يطر ولم يفارق . تفسير الميزان: ١٢ / ١٩٣ .

أفهل يمكن تفسير هذه الآيات بغير طريق المجاز والكناية؟

إنّ تجريد القرآن عن المحسّنات البيانية والبلاغية جفاء له، ويجعل الآيات القرآنية في مصاف الكلام العرفي.

٨. قال سبحانه: (وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ) يوسف: ٨٢ . .

لاشك أنّ القرية هي البيوت والأزقة، الّتي لا يصح سؤالها وينتظر الجواب منها، ولذلك عاد المفسرون إلى تفسير الآية بتقدير «الأهل» وقالوا المراد: اسأل أهل القرية، ولكنّهم غفلوا عن أنّ تفسيرها بهذا النحو يوجب نزول الآية عن ذروة البلاغة، ووقوعها في عداد الكلام العادي .

ولذلك نقول: المراد من القرية هو نفس البيوت بلا تقدير كلمة الأهل ولكن القائل يدّعي أنّها أيضاً كالإنسان الصالح للسؤال والجواب مدّعياً أنّ الخبر ـ أي سرقة أخي يوسف ـ قد شاع وذاع على نحو حتّى وقفت عليه القرية أيضاً، فضلاً عن أهلها، ونظيره قول الفرزدق في حق الإمام زين العابدين (عليه السلام):

هذا الّذي تعرف البطحاء وطأته *** والبيت يعرفه والحلّ والحرمُ

أي أنّ الإمام (عليه السلام)قد بلغ من العظمة والجلالة مبلغاً حتّى عرفته البطحاء والبيت والحلّ والحرم.

٩. قال سبحانه: (يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ) يوسف: ٨٧ ..

الرَّوح: نسيم الريح الّذي يلذ شميمها ويطيب نسيمها، فشبّه الله تعالى الفرج الّذي يأتي بعد الكربة بنسيم الريح الّذي ترتاح القلوب له وتثلج الصدور به . تلخيص البيان في مجازات القرآن: ٧٠ .

١٠. قال سبحانه: (وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لاَ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ) التوبة: ١١٨ ..

قال السيد الرضي: في هذه الآية استعارة ؛ لأنّ النفس في الحقيقة لا توصف بالضيق والاتّساع، وإنّما المراد بذلك انضغاط القلوب لشدّة الكرب وبلوغها منقطع الصبر.

ولكن في الآية استعارة أُخرى لم يُشر إليها السيد الرضي وهي قوله سبحانه: (ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ)، إذ هو تعبير عن الحيرة في أمرهم كأنّهم لا يجدون فيها مكاناً يقرّون فيه، قلقاً وجزعاً ممّا هم فيه.( تفسير الكشاف: ٢ / ١٧٦ .) فالأرض نفس الأرض

لا تضيق ولا تتسع، ولكن ضيقها كناية عن تحيّر هؤلاء حيث لا يجدون مكاناً يعيشون فيه بعيداً عن القلق.

١١. قال سبحانه: (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ). الأنعام: ٥٩ .

المفتح جمعه مفاتح: آلة لفتح الأبواب.

ومن المعلوم أنّ الغيب الّذي هو ضد الشهود لم يجعل في غرفة مقفلة حتّى تكون مفاتحه عند الله سبحانه، بل المفاتح في الآية استعارة للوصلة إلى علم الغيب، فإذا شاء فتحه لأنبيائه وملائكته وإن شاء أغلق عليهم علمه ومنعهم فهمه .

فعبّر تعالى عن هذا المعنى بأنّ المفاتح بيد الله سبحانه.

١٢. قال سبحانه: (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا). آل عمران: ١٠٣ .

عبّر سبحانه عن التمسّك بأمر الله وعهده بالتمسّك بحبله، وذلك لأنّ مَن يسقط في بئر يُرسَل إليه الحبل، فإذا تمسّك به تخلّص من الخطر، ونجا من الهلاك، وهكذا المتمسك بحبل الله ينجو ممّا يخافه من العذاب. فكأنّ الأُمّة المتفرّقة كالمتردّي في البئر لا ينجيه إلاّ التمسّك بحبل الله .

١٣. قال سبحانه: (وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ). آل عمران: ٧٧ .

إنّ النظر هو تقريب العين الصحيحة في جهة المرئيّ التماساً لرؤيته، وهذا لا يصحّ إلاّ على الأجسام وما يُدرَك بالحواس، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وهذا يرشدنا إلى القول بأنّها استعارة عن أنّه سبحانه لا يرحمهم يوم القيامة، ويدلّ عليه ذيل الآية أي قوله: (وَلاَ يُزَكِّيهِمْ).

١٤. قال سبحانه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً ) آل عمران: ١١٨ . .

البطانة: ما يلي بطن الإنسان من ثيابه، ومنه بطانة الثوب، فشبّه دخلاء الرجل وخواصّه بالبطانة لأنّهم يلازمونه ملازمة شعاره لجسمه فيقفون على أسراره وضمائره .

هذه نماذج من مجازات القرآن الكريم اقتصرنا عليها تبرّكاً، ومن أراد أن يقف على المزيد فليرجع إلى كتاب «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للسيد الرضي فقد بلغ الغاية ودرس عامّة المجازات القرآنية من أوّل سور القرآن إلى آخرها.

غير أنّ إكمال البحث يقتضي دراسة أدلّة المانعين وهي ليست إلاّ شبهات وأعذاراً واهية، ورغم ذلك سوف ندرسها بموضوعية وتجرّد، فنقول:

## أدلّة النافين لوجود المجاز في القرآن

قال الزركشي: وأمّا المجاز فاختلف في وقوعه في القرآن. والجمهور على الوقوع؛ وأنكره جماعة منهم: ابن القاصّ من الشافعية، وابن خويزمنداد من المالكية، وحكي عن داود الظاهري وابنه وأبي مسلم الأصفهاني. وإليك شبهاتهم:

الشبهة الأُولى: أنّ المتكلّم لا يعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلاّ إذا ضاقت به الحقيقة فيستعير، وهو مستحيل على الله سبحانه.

وقد أجاب عنها الزركشي بقوله: وهذا باطل ولو وجب خلو القرآن من المجاز لوجب خلوّه من التوكيد والحذف، وتثنية القصص وغيرها، ولو سقط المجاز من القرآن سقط شطرُ الحُسن . البرهان في علوم القرآن: ٢ / ٢٥٥ .

أقول: الأَولى الإجابة بوجه آخر، وهو:

أوّلاً: أنّه سبحانه قد استخدم المجاز لا لأجل أنّه ضاقت به الحقيقة فالتجأ إلى المجاز، وإنّما أراد أن يكلّم الناس حسب عقولهم وحسن طبعهم، وجمال ذوقهم، ولاشكّ أنّ المجاز يعطي للكلام روعة، وبلاغة، ومعنى رائقاً وأنّ الكناية إنّ بعض العلماء اعتبر الكناية ضرباً من ضروب المجاز، ولذا أنكر وقوعها في القرآن منكرو المجاز فيه .أبلغ من التصريح، ولذلك تكلّم سبحانه على ما اعتاد عليه

الناس واستحسنوه.

ثانياً: أنّ المعترض إذا أراد من الحقيقة، الواقعية، فالمجاز أيضاً حقيقة أُخرى، فالمتكلّم جعل المعنى اللغوي جسراً إلى تلك الحقيقة، ولعلّه اغترّ بكلمة المجاز وهو ضد الحقيقة، فزعم أنّ مَن استعمل المجاز ترك الحقيقة إلى غيرها. وغفل عن أنّ المراد منه، هو كون الحقيقة قنطرة لبيان حقيقة أُخرى . وسيوافيك تفصيله عند الردّ على رسالة المنع للشنقيطي.

الشبهة الثانية: ما نقله السيوطي عن المانعين، أنّ المجاز أخو الكذب والقرآن منزّه عنه، ثم ردّه السيوطي وقال: وهذه شبهة باطلة، ولو سقط المجاز من القرآن سقط منه شطر الحسن، وقد اتّفق البلغاء على أنّ المجاز أبلغ من الحقيقة.. إلى آخر ما ذكره الزركشي في برهانه ـ كما عرفت ـ. الإتقان في علوم القرآن : ٣ / ١٠٩ .

أقول: الكذب عبارة عن الكلام المخالف للواقع وهو إنّما يتمّ إذا أراد المتكلم الفرد الادّعائي بلا قرينة، كما إذا قال : رأيت أسداً (من دون قرينة) وأراد الرجل الشجاع، مع أنّ ظاهر كلامه أنّه رأى الحيوان المفترس، وأمّا إذا قرنه بقرينة دالّة على أنّ المراد الفرد الادّعائي فأي كذب في ذلك .

الشبهة الثالثة: أنّ المجاز يجوز نفيه، ولا شكّ أنّه لا يجوز نفي شيء من القرآن.

قال ابن قيّم الجوزية: وأوضح دليل على منعه في القرآن: إجماع القائلين بالمجاز، على أنّ كلّ مجاز يجوز نفيه، ويكون نافيه صادقاً في نفس الأمر، فنقول لمن قال: «رأيت أسداً يرمي»: ليس هو بأسد، وإنّما هو رجل شجاع، فيلزم على القول بأنّ في القرآن مجازاً، أنّ في القرآن ما يجوز نفيه، ولاشكّ أنّه لا يجوز نفي شيء من القرآن . منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز: ٢٤٠، المطبوع في ذيل «أضواء البيان».

أقول: إنّ المتكلّم إذا استعمل اللفظ الموضوع لمعنى، وأراد منه المصداق الادّعائي فهناك معنيان:

أ. المعنى الحقيقي وقد تعلّقت به الإرادة الاستعمالية دون الجدية، وإنّما استخدم الإرادة الأُولى لغاية العبور إلى معنى آخر ونصب لذلك قرينة في كلامه.

ب. مصداق ادّعائي تعلّقت به الإرادة الجدية بشهادة وجود القرينة.

فلو أُريد نفي المعنى الأوّل فلا مانع، وبما أنّه لم تتعلّق به الإرادة الجدية فليس من القرآن في شيء، ولا بأس بنفيه .

وإن أراد نفي المعنى الثاني فنمنع من جواز نفيه، كيف وقد أراده سبحانه وخصّه بالقرينة.

وقد اغترّ باذر الشبهة بظاهر لفظ الأسد حيث إنّه يمكن نفيه لعدم تعلّق الإرادة الجدية بالحيوان المفترس، مع أنّه لا يمكن نفي شيء من القرآن، لكنّه غفل عن أنّ المعنى الحقيقي ليس مراداً للمتكلم، ومن ثمّ ليس هو من القرآن قطعاً بشهادة القرينة، أعني قوله: «يرمي»، وسيوافيك تفصيل النقد في آخر المقال.

الشبهة الرابعة: أنّ لابن القيّم هنا كلام مسهب أطال فيه البحث عن دلائل شيخه في إنكار وجود المجاز في القرآن، وأنهى الوجوه الّتي استند إليها ـ دعماً لمذهب شيخه ـ إلى خمسين وجهاً، في رسالة أسماها «الصواعق المرسلة على الجهميّة والمعطّلة».

قال: «وإذ قد علم أنّ تقسيم الألفاظ إلى حقيقة ومجاز، لا منشأ له شرعياً ولا عقلياً ولا لغوياً، وإنّما هو مصطلح حادث ابتدعته المعتزلة ومن شايعهم من الجهميّة والمتكلّمين» . مختصر الصواعق: ٢ / ٥ .

يلاحظ عليه: بأنّه من أتفه الشبهات حيث إنّه خلط بين حدوث التقسيم وبين واقع الأقسام.

فإنّ استعمال اللفظ على كلتا الصورتين كان شائعاً بين البلغاء والعظماء، على النحو الّذي قررنا، غير أنّهم لم يطلقوا عليه

مصطلحاً معيّناً، ولكن بعد أن انتشرت الحضارة الإسلامية وشرع العلماء بتفسير القرآن الكريم واضطروا إلى تأسيس علوم تُعين المفسّر، لم يجدوا بدّاً من وضع المصطلحات والتقسيم، فهناك مئات الاصطلاحات في الصرف والنحو والبديع والبيان والعروض والقوافي، لم يكن لها أثر قبل الإسلام ولا في أيامه الأُولى، وإنّما حدثت حينما تأسّست العلوم الأدبية لغاية فهم القرآن والحديث.

ثم إنّ ابن القيّم لم يكتف بما ذكر؛ بل قال: وخلاصة القول: إنّ القول بالمجاز ـ بالمعنى الاصطلاحي ـ في القرآن، بل في اللغة، قول باطل، لم يتكلّم به النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، ولا عرفه أصحابُه ولا التابعون ولا علماء الأوائل، ولا أحد من أهل القرون الثلاثة المفضّلة، وإنّما هو اصطلاح حادث ابتدعته المعتزلة، ثمّ أخذه المتأخّرون، حتّى صار مألوفاً عندهم، ولم ينتبهوا إلى خطورة القول بالمجاز، ممّا أدّى بكثير منهم إلى تحريف كلام الله عن مواضعه. مقدمة رسالة الشنقيطي: ٢١ ـ ٢٨.

وما أشار إليه ابن القيّم في كلامه هذا بأنّ القول بالمجاز أدّى إلى تحريف كلام الله هو ما سنذكره في الشبهة التالية:

الشبهة الخامسة: وهي أنّه عن طريق القول بالمجاز في القرآن توصّل المعطّلون لنفي كثير من صفات الكمال والجمال عن ذاته تعالى... فقالوا: لا يَدَ، ولا استواء، ولا نزول، ونحو ذلك في كثير من آيات الصفات... نظراً لأنّ حقائق هذه الصفات غير مرادة عندهم، بل هي مجازات، فاليد مستعملة ـ عندهم ـ في النعمة أو القدرة، والاستواء في الاستيلاء، والنزول نزول أمره، ونحو ذلك... فنفوا هذه الصفات (حقيقة اليد والاستواء والنزول) الثابتة بالوحي، نفياً عن طريق القول بالمجاز، وارتكاب التأويل، ثم قال: مع أنّ الحقّ الّذي هو مذهب أهل السنّة والجماعة إثبات هذه الصفات (بحقائقها حسب ظاهر التعبير) حيث أثبتها الله تعالى لنفسه، ويلزم الإيمان بها من غير تكييف ولا تشبيه، ولا تعطيل ولا تمثيل. منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز: ٢٤٠.

أقول: كان على ابن قيّم الجوزيّة وشيخه ابن تيمية وأتباعهما ـ كالشيخ الشنقيطي ـ أن يبحثوا، بأُسلوب علميّ، عن وجود المجاز في القرآن أو عدمه، فيدرسوا الآيات الّتي ادّعى القائلون بالمجاز أنّها من هذا القبيل، وعندئذ يصحّ لهم أن يبدوا رأيهم، ولكن القوم عكسوا الأمر، فاتّخذوا من عقيدتهم في الصفات الخبرية وأنّها تجري على الله سبحانه بمعانيها اللغوية، دليلاً على عدم جواز المجاز في القرآن، وما هذا إلاّ لأنّ القول به ينافي عقيدتهم، أعني: وصفه سبحانه بهذه الصفات بلا تأويل.

وإن شئت توضيحاً أكثر، نقول: قسّم الباحثون صفاته سبحانه إلى: صفات ذاتية، وصفات خبرية، فالعلم والقدرة والحياة ـ مثلاً ـ من الصفات الجمالية الذاتية، وقد دلّ عليها العقل قبل النقل، ولو وردت في النقل فهي تأكيد لما دلّ عليه العقل.

وأمّا الصفات الخبرية فممّا لا يدلّ عليها العقل وإنّما أخبر عنها سبحانه في كتابه العزيز كالعلو واليد والعين، أو جاءت في السنّة الشريفة كالرجل والنزول، وقد اختلفت كلمتهم في تفسير الصفات الخبرية، وطال الجدال حولها عبر القرون، بحيث صار ذلك هو الشغل الشاغل بين المحدّثين وغيرهم.

وبينما هم يتنازعون في تفسير معانيها ظهرت جماعة تنكر أصل الصفات أو تنكر أصل وجود الصانع، فبدل أن يبذلوا جهودهم في مواجهة العلمانية والإلحاد والمناهج المستوردة، أخذوا يصرفون أعمارهم في تفسير هذه الصفات.

وقد صار القوم على مناهج:

الأوّل: المثبتون للصفات بمعانيها الحرفية

ذهب قسم من المحدّثين تبعاً للمشبّهة والمجسّمة من الكرّامية أنّ هذه الصفات تجري على الله سبحانه بنفس معانيها المرتكزة في أذهان الناس من دون أي تصرف فيها، فزعموا أنّ لله سبحانه عينين ويدين ورجلين مثل الإنسان.

قال الشهرستاني: أمّا مشبّهة الحشوية فقد أجازوا على ربّهم الملامسة والمصافحة، وأنّ المسلمين المخلصين يعانقونه في الدنيا

والآخرة، إذا بلغوا في الرياضة والاجتهاد إلى حدّ الإخلاص. الملل والنحل: ١ / ١٠٥.

الثاني: المثبتون بلا كيف

ثم إنّ ابن تيمية وتلميذه ابن القيّم ومن تابعهما من أتباع محمد بن عبدالوهاب لمّا رأوا أنّ القول بذلك يشينهم ويلحقهم بالمجسِّمة والمشبّهة، ويكونوا أتباعاً للكرّامية حاولوا الفرار من ذلك بتقييد الإثبات بقولهم: «بلا كيف» فقالوا: إنّ له وجهاً بلا كيف، وإنّ له يدين بلا كيف، وإنّ له عيناً بلا كيف، وذلك في تفسير قوله تعالى: (وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ) الرحمن: ٢٧، وقوله سبحانه: (لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ) ص: ٧٥، وقوله: (بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ) المائدة: ٦٤، وقوله سبحانه: (تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا)( القمر: ١٤).

وقد سبقهم إلى ذلك الإمام الأشعري، الذي كان معتزلياً ثم رجع عن الاعتزال والتحق بما عُرف بأهل الحديث وعلى رأسهم أحمد بن حنبل، وحاول الجمع بين عقيدة أهل الحديث وأهل التنزيه فقال: إنّ الصفات الخبرية تجري على الله سبحانه بنفس معانيها لكن بلا تكييف ولا تشبيه الإبانة: ٩٢.. فبالجزء الأوّل من كلامه ـ أعني: (تجري بنفس معانيها) ـ أراد إرضاء أهل الحديث، وبالجزء الثاني (بلا تكييف ولا تشبيه) أراد إرضاء أهل التنزيه، لكنّه غفل عن أنّ الجمع بين العقيدتين كالجمع بين المتناقضين، وذلك :

أوّلاً: أنّ هذا التوجيه يخالف نصوص المتشدّدين من أهل الحديث، فإنّهم يجرون الصفات الخبرية على الله بنفس معانيها من دون تقييد بما ذكره، قال القرطبي في تفسير قوله سبحانه: (ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) الأعراف: ٥٤.: وقد كان السلف الأوّل ـ رضي الله عنهم ـ لا يقولون بنفي الجهة ولا ينطقون بذلك ، بل نطقوا هم والكافّة بإثباتها لله تعالى كما نطق كتابه وأخبرت رسله، ولم ينكر أحد من السلف الصالح أنّه استوى على عرشه حقيقة. تفسير القرطبي: ٧ / ٢١٩.

فعلى هذا، فالمتشدّدون من أهل الحديث يصفونه سبحانه بمعاني هذه الصفات بلا ضمّ ضميمة.

ثانياً: أنّ اليد والرجل والعين تتقوّم بالكيفية الموجودة فيها، على نحو لو جرّدت منها لا تصدق عليها هذه الأسماء، فاليد عندهم عبارة عن الجارحة ذات الأصابع، وهكذا العين عبارة عن الجارحة الخاصّة الّتي تتقوم بالقرنية والقزحية والشبكية، فلو جردت من هذه المكونات فلا يصدق عليها اسم العين، وعندئذ فالجمع بين الفقرتين جمع بين المتناقضين، وإطلاق هذه الصفات على الله بنفس معانيها اللغوية يستلزم إثبات هذه الخصوصيات المقوّمة لهذه الأعضاء، وتقييدها (بلا كيف) يستلزم نفي هذه الخصوصيات، وبالتالي يلزم عدم إجرائها على الله بنفس معانيها اللغوية، وما هذا إلاّ جمعاً بين النقيضين.

وإن شئت قلت: إنّ إجراءها بنفس معانيها اللغوية يقتضي حفظ الكيفية لأنّها في اللغة موضوعة للعضو الواجد لها، وتقييد إجرائها بقولهم بلا كيف يعني نفي الكيفية، ومن ثمّ نفي المدّعى، أعني: إجراءها بالمعاني اللغوية، فالتناقض هنا هو الجمع بين النفي والإثبات.

إلى هنا تبيّن أنّ المنهجين باطلان جدّاً، لأنّ الإجراء بنفس المعاني تشبيه وتجسيم، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً، حيث قال: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) الشورى: ١١..

كما أنّ الإجراء بنفس المعاني مقيّداً بنفي الكيفية، هو أشبه بالجمع بين النفي والإثبات.

بقي هنا ثلاثة مناهج أُخرى:

الثالث: منهج التفويض

وحاصله: الإيمان بكلّ ما جاء في القرآن والسنّة من الصفات الّتي وصف الله تعالى نفسه بها إجمالاً وتفويض التفصيل إليه. وهم بهذا قد أراحوا أنفسهم من الغور في هذه المباحث.

إنّ التفويض هو شعار من لا يتعرض للأبحاث الخطيرة، ولا يقتحم اللجج الغامرة، ويرى أنّه يكفيه في النجاة قول رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «بُني الإسلام على إيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان» صحيح البخاري: ١ / ٧، كتاب الإيمان.، وعند ذلك يرى أنّ التفويض أسلم من الإثبات الّذي ربما ينتهي ـ عند الإفراط ـ إلى التشبيه والتجسيم المبغوضين، أو إلى التعقيد واللغز الّذي لا يجتمع مع سمة سهولة العقيدة.

ونحن لا نلومهم على ذلك، فربما يظنون أنّهم غير مكلّفين بتفسير هذه الصفات، فاكتفوا بالتفويض كما هو الحال في كثير ممّا يرجع إلى القيامة ومواقفها وأحوالها، فإنّ كثيراً من الصالحين يفوّضون معانيها إلى الله سبحانه، ولكنّ القرآن الكريم دعا المؤمنين إلى التدبّر في الآيات لغاية فهم معانيها وحقائقها، فقال سبحانه: (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ) القمر: ١٧..

وعلى ذلك فتعطيل العقل عن سبر المعارف الواردة في القرآن الكريم، نوع بخس وظلم للعقل السليم، كيف وهو سبحانه يقول: (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ) النحل: ٨٩. وحاشا أن يكون القرآن تبياناً لكلّ شيء ولا يكون تبياناً لنفسه.

## الرابع: منهج التأويل

المعتزلة هم الذين أوّلوا اليد بالنعمة والقدرة، والاستواء على العرش بالاستيلاء وإظهار القدرة، وهكذا سائر الصفات الخبرية، غير أنّ هذا المنهج غير صحيح ـ كسائر المناهج السابقة ـ فإنّ ظاهر كلامهم أنّ ظاهر القرآن يخالف العقل الصريح، ولذلك يجب ترك النقل لأجل صريح العقل، ومن المعلوم أنّ هذا كلام ساقط، إذ الكتاب العزيز والسنّة الصحيحة منزّهان عمّا يخالف صريح العقل.

وما يُتداول على ألسنة طلاب العصر من أنّ ظاهر الكتاب إذا خالف العقل يؤوَّل الظاهر ويؤخذ بالعقل، أمر باطل جدّاً، إذ يستحيل أن يخالف الوحي حكم العقل الحصيف قدر شعرة. أفيمكن أن يحثّ الكتاب على التدبّر في الآيات ويمدح العاقلين ويذم المخالفين، ومع ذلك يأتي في غضون الآيات بما يخالف صريح العقل والبرهان؟ هذا أمر لا يصدر عن الحكيم المطلق.

نعم ما يُتداول على الألسن أُلصق بالكتاب المقدّس، فإنّ الآباء اليسوعيين كلّما وقفوا في آيات العهد الجديد أو القديم على ما يخالف حكم العقل أو النتائج العلمية حاولوا التصرّف في ظاهر الكتاب وتأويله ليصونوا بذلك الكتاب المقدس عن النقد، لكنّ الكتاب الخاتم الّذي نزل على النبي الخاتم (صلى الله عليه وآله وسلم)تعالى عن هذه الوصمة، وهذا ما يبعثنا إلى أن نحلّل مسألة الصفات الخبرية بوجه آخر.

## الخامس: الأخذ بالظهور التصديقي دون التصوري

إنّ الذين انزلقوا إلى حضيض التشبيه والتجسيم إنّما أخذوا بالمعاني اللغوية لهذه الالفاظ، والظهور الإفرادي لها، وغفلوا عن أنّ الظهور المتبع ليس هو الظهور الإفرادي، بل المتبع هو الظهور الجملي أو الظهور التصديقي.

كما أنّ المؤوّلين لها سقطوا أيضاً في هذه الوهدة بزعمهم لزوم الأخذ بالمعنى الإفرادي، ولذلك عادوا إلى التأويل لكي يتخلّصوا من التشبيه.

وكذلك المفوّضة الذين تركوا الغور في مفاد هذه الآيات صدروا عن زعم باطل، وهو أنّ ظاهر الآيات هو التشبيه والتجسيم المخالف للعقيدة الإسلامية، فلم يجدوا مخلصاً إلاّ تعطيل العقول وإرجاع معانيها إلى الله سبحانه.

وبالجملة كلّ هذه المناهج بين مثبت مطلقاً، ومثبت مع نفي التكييف، أو مؤوّل، أو مفوّض معناها إلى الله سبحانه ولذلك عرفوا بالمعطّلة، وإنّما لجأوا إلى هذه المناهج المختلفة لأجل تسليم أصل وهو الأخذ بظهور المفردات أي الظهور التصوّري، فعند ذلك كلٌّ أخذ مهرباً.

وأمّا المنهج الصحيح، فهو اتّباع الظهور الجملي والمتبادر التصديقي، أي التدبّر في الآية صدرها وذيلها وما في معنى الآية من آيات

أُخرى، والأخذ بما هو المحصّل.

ومن المعلوم أنّ هذا النوع من الظهور لا يخالف حكم العقل قدر شعرة، ومن الظلم الواضح تسمية هذا النوع من التفسير بالتأويل.

وإن كنت في ريب من هذا فلاحظ لفظ (الأسد) في قول القائل: رأيت أسداً يرمي.

فله بإفراده ظهور في الحيوان المفترس، وله في نفس الجملة ظهور في الرجل الشجاع. فحمله على المعنى الثاني ليس تأويلاً ولا حملاً على خلاف الظاهر.

وعلى ضوء ذلك فالآيات الّتي وردت فيها الصفات الخبرية لها هذا الشأن، فالنظر إلى مفرداتها مجرّدة من القرائن الحافة بالآية، يجرّنا إلى التشبيه والتجسيم، لكن النظر إليها في إطار الآية وما في معناها من آيات، يسوقنا إلى حيث لا تشبيه ولا تجسيم.

ولنأت بمثال توضيحي:

قال سبحانه: (وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا) الإسراء: ٢٩ .، فالغلّ والبسط بمفردهما ظاهران في قبض الجارحة وفتحها، لكن هذا الظهور الإفرادي ليس بمراد ؛ لأنّ الغرض من الآية هو الدعوة إلى الاقتصاد ونبذ الإسراف والتقتير، فبسط اليد كناية عن الإنفاق بلا قيد، كما أنّ جعل اليد مغلولة إلى العنق كناية عن البخل والتقتير، ولا يعد هذا التفسير تأويلاً للآية، ولو صحّ إطلاقه فإنّما هو حسب مفردات الآية لا بالنسبة إلى الجملة التامّة، بل هو معنى حقيقي للآية.

وعلى هذا المنهج تفسّر الآيات الّتي تتضمّن الصفات الخبرية، فمن اغترّ بمفردات الآيات تاه في متاهات التشبيه والتعطيل والتأويل، وأمّا من أخذ بالمعنى الجملي والمفاد التصديقي يرى أنّ الآية لا تمتّ بصلة إلى التشبيه (كما عليه أهل الظاهر)، ولا إلى التشبيه بلا تكييف (كما عليه الأشعري)، ولا إلى التفويض (كما عليه المعطّلة) ولا إلى التأويل، بل الآية فوق هذه المناهج بشرط أن تدخل «البيوت من أبوابها».

***

| نموذج آخر |
| --- |

لقد عرفت أنّ الضابطة الصحيحة في تفسير القرآن الكريم هو اتّباع ظهوره التصديقي بلا تأويل وتصرّف، وأنّ السائرين على درب التشبيه والتجسيم، أو التفويض والتعطيل، أو التأويل والتصرّف في ظهور الآية، قد تنكّبوا عن الجادّة، ولو أنّهم قدّروا للقرآن ما قدّره الله سبحانه لما تورّطوا في هذه المسالك غير الصحيحة. وها نحن نذكر نموذجاً آخر لما ذكرناه آنفاً، من أنّ المتَّبع هو الظهور الجملي والمعنى التصديقي وأنّ الأخذ بذلك، لا يمتّ لهذه المسالك بصلة.

قال سبحانه: (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ) القيامة: ٢٢ ـ ٢٥ ..

قد أصرّ المتشدّدون من أهل الحديث على تفسير الآية بحرفيّتها وقالوا بكلمة واحدة: إنّ المؤمنين يرون الله سبحانه بأعينهم وأبصارهم، غير أنّ أهل التنزيه بين مفوّض ومعطّل، أو مؤوّل يذهب إلى أنّ «ناظرة» هنا بمعنى منتظرة.

ولكن عامّة المسالك خاطئة ؛ لأنّ حجر الأساس لهذه المسالك هو الظهور الإفرادي، ولاشكّ أنّ كلمة «ناظرة» تعني ما عليه أهل الحديث من النظر إلى الله بالأبصار، يقول الشيخ أبو الحسن الأشعري:

«إنّ النظر في الآية لا يمكن أن يكون نظر الانتظار، لأنّ الانتظار معه تنقيص وتكدير، وذلك لا يكون يوم القيامة، لأنّ الجنّة دار نعيم وليست دار ثواب أو عقاب، ولا يمكن أن يكون نظر الاعتبار، لأنّ الآخرة ليست دار الاعتبار بل دار ثواب أو

عقاب، ولا يمكن أن يكون نظر القلب، لأنّ الله تعالى ذكر النظر مع الوجه، فاتّضح أنّه نظر العينين، وإذا بطلت هذه المعاني للنظر لم يبق إلاّ آلة واحدة وهي نظر الرؤية». اللمع: ٦٤ .

يلاحظ عليه: أنّه لا دليل على أنّ الآيات تحكي أحوال المؤمنين بعد دخول الجنّة والكافرين بعد الاقتحام في النّار، بل قوله سبحانه: (تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ)دليل على أنّهم يظنون ذلك قبل دخولهم النّار، فلا يكون مثل هذا الانتظار تكديراً وتنقيصاً. ثم إنّه سبحانه ينسب النظر إلى الوجوه لا إلى العيون، فلو كان المراد هو الرؤية لكان اللازم أن يقول: عيون يومئذ ناظرة، ثم إنّ أهل التنزيه فسّروا قوله «ناظرة» بالانتظار لا الرؤية، قائلين بأنّ هذه الكلمة إذا استعملت مع (إلى) تأتي بمعنى الانتظار. يقول الشاعر:

وجوه ناظرات يوم بدر *** إلى الرحمن يأتي بالفلاح

ونحن نقول: سواء أقلنا بأنّ النظر في الآية بمعنى نظر العين أم بمعنى الانتظار فإنّه لا صلة للآية بمسألة الرؤية، وذلك لأنّ النظر حسب الظهور الإفرادي والتصوّري وإن كان بمعنى نظر العين، لكنّه حسب الظهور الجملي والتصديقي له معنى آخر، وليس لنا إلاّ الأخذ بهذا الظهور ولا يوصف مثله بالتأويل، وذلك يُعلَم بالمقارنة كما يأتي:

إنّ الآية الثالثة تقابل الآية الأُولى، والرابعة تقابل الثانية، وعند المقابلة يُرفع إبهام الثانية بالرابعة، وإليك تنظيم الآيات حسب التقابل:

أ. (وُجُوهٌ يَوْمَئِذ نَاضِرَةٌ)يقابلها قوله:(وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذ بَاسِرَةٌ )

ب. (إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) يقابلها قوله: (تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ )

فبما أنّ المقابل للآية الثانية واضح المراد، وهو أنّ المجرمين آيسون من رحمة الله ويترقّبون العذاب الفاقر للظهر، فيكون قوله: (إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)ضدّ هذا المعنى، وهو أنّ المتّقين راجون رحمة ربّهم.

وبعبارة أُخرى: معنى قوله: (تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ) أنّ هذه الطائفة العاصية تتوقّع نزول عذاب يكسر فقارها ويقصم ظهرها، فيكون المراد ـ ممّا يقابله ويواجهه ـ عكس هذا المعنى وضدّه ، وهو أنّ الطائفة المؤمنة مستبشرة برحمته، متطلّعة إلى فضله وكرمه، فليست الرؤية إلى جماله وذاته، إذاً، مطمحاً للنظر وإلاّ لخرج المتقابلان عن التقابل .

وعلى هذا فنحن نسلّم أنّ النظر في الآية بمعناه اللغوي لكن نظر المؤمنين إلى الله يوم القيامة مثل «نظر» الفقير إلى الغنيّ، ونظر العائلة إلى يد الأب، والموظف إلى يد الرئيس، فالنظر في عامّة هذه الموارد استعمل في المعنى اللغوي أي المشاهدة، ولكن أُريد به رجاء رحمة وترقب نعمة، فليس هناك إلاّ رجاء الرحمة وانتظار الفرج، يقول الشاعر:

إنّي إليك لما وعدتَ لناظرٌ *** نظر الفقير إلى الغني الموسر

وبهذا تقدر على تفسير عامّة الصفات الخبريّة الواردة في القرآن الكريم، دون أن تدقّ باب أحد هذه المناهج.

## الشبهة السادسة

عقد ابن تيمية في كتاب الإيمان فصلاً في أنّه هل في القرآن مجاز أو لا؟ نقله جمال الدين القاسمي في تفسيره المسمّى «محاسن التأويل»، وجاء فيه أكثر ما تقدّم من الشُّبه وآخر ما استند إليه أنّه ردّ على أهل التنزيه القائلين بأنّ ألفاظ المكر والاستهزاء والسخرية المضافة إلى الله تعالى من باب المشاكلة، وقال في ردّه: وليس كذلك بل مسمّيات هذه الأسماء إذا فعلت بمن لا يستحق العقوبة كانت ظلماً له وأمّا إذا فعلت بمن فعلها بالمجني عليه، عقوبة بمثل فعله كان عدلاً، ثم سرد عدة آيات نسب فيها المكر والسخرية إلى الله، وقال: قال تعالى: (إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا) الطارق: ١٥ ـ ١٦ .وقال: (وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ * فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ) النمل: ٥٠ ـ ٥١ .وقال: (الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ

يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ) التوبة: ٧٩ . فلهذا كان الاستهزاء بهم فعلاً يستحق هذا . محاسن التأويل (تفسير القاسمي): ١ / ٢٤١ ـ ٢٤٢ .

يلاحظ عليه: أنّ الاستهزاء فعل الجاهلين، ولذلك لمّا أمر موسى الكليم (عليه السلام)بني إسرائيل في مسألة ذبح البقرة قائلاً: (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ) قال بنو إسرائيل: (أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا) فأجابهم موسى (عليه السلام)بقوله: (أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ) البقرة: ٦٧ ..

فإذا كان الاستهزاء عمل الجاهلين، فهل تصح نسبته إلى الله أو إلى نبيه أو إلى سائر المؤمنين؟ وما قاله: (إذا فعلت بمن فعلها بالمجني عليه عقوبة كان عدلاً) غفلة عن واقع الاستهزاء، فإنّ عمل الجهلة لا يصبح عدلاً في حين، وظلماً في حين آخر، فإنّ الفحشاء ذميمة مطلقاً ابتداءً كانت أو انتهاء وعقوبة.

ثم إنّ المكر والحيلة فعل العاجز، فحيث لا يقدر على عقاب المخالف مباشرة، يلجأ إلى المكر والحيلة، والله سبحانه أرفع من أن يكون عاجزاً (وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ) الأنعام: ٩١ . والحقيقة أنّ مرجع هذه الشبهة هو إنكار التحسين والتقبيح العقليين، فصار هذا سبباً لتصحيح نسبة هذه الأُمور الذميمة إلى الله سبحانه على الحقيقة.

ولو كان الرجل من أهل الفصاحة والبلاغة وعارفاً بأساليب كلام البلغاء لما أنكر ما ذكره أهل التنزيه من أنّ الجميع من باب المشاكلة الّتي تعني ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته .

وها نحن نذكر بعض موارد المشاكلة في الذكر الحكيم، وفي خطب أمير البيان علي (عليه السلام)، وأشعار البلغاء.

أمّا في الأوّل، فنظير :

١. قوله سبحانه: (وَجَزَاءُ سَيِّئَة سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ) الشورى: ٤٠ ..

فإنّ الثانية لكونها حقّة لا تكون سيئة، لكن وقوعها في صحبة الأُولى صحّ التعبير عنها بالسيئة.

٢. قوله سبحانه: (فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ) البقرة: ١٩٤. ومن الواضح أنّ من يُقابل المعتدي بمثل فعله لا يكون معتدياً، ولكنّه عبّر عنه بذلك للمشاكلة.

٣. قوله سبحانه: (تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ) المائدة: ١١٦ . المراد: ولا أعلم ما عندك، فعبّر بالنفس للمشاكلة .

وأمّا في الثاني: فقوله (عليه السلام): «اجْعَلُوا مَا افْتَرَضَ اللهُ عَلَيْكُمْ مِنْ طَلَبِكُمْ، وَاسْأَلُوهُ مِنْ أَدَاءِ حَقِّهِ مَا سَأَلَكُمْ» نهج البلاغة: الخطبة ١١٣ ..

والمراد من قوله «سألكم» أي أمركم وفرضه عليكم، لأنّ السؤال وظيفة الأدنى من الأعلى، وشأن الأعلى من الأدنى هو الأمر والإلزام، لكنّه عبّر بلفظ السؤال لوقوعه في صحبة الأوّل.

وقال (عليه السلام): «وَايْمُ اللهِ لَئِنْ فَرَرْتُمْ مِنْ سَيْفِ الْعَاجِلَةِ ، لاَ تَسْلَمُوا مِنْ سَيْفِ الاْخِرَةِ» نهج البلاغة: الخطبة ٢٤ .، ومن الواضح أنّه لا سيف في الآخرة، وإنّما عبّر به للمشاكلة، والمراد النار وغضب الجبار.

وأمّا في الثالث: فقول الشاعر:

قالوا اقترح شيئاً نُجِدْ لك طبخه *** قلت اطبخوا لي جبّة وقميصا

يحكي الشاعر عن أحبته وأعزته أنّهم اقترحوا عليه طبخ غذاء مرغوب لديه، وكان فقيراً لا يملك كسوة تقيه البرد، فأجابهم بأن لكم أن تطبخوا لي جبّة وقميصاً، مكان أن يقول: أن تخيطوا لي جبّة وقميصاً، فذكر الخياطة بلفظ الطبخ لوقوعه في صحبته .

وقول الشاعر الآخر:

من مبلغ أفناء يعرب كلها *** أني بنيت الجار قبل المنزِلِ
فبناء الجار إن جاز لوقوعه في صحبة بناء المنزل وهو متأخّر عنه .

الشبهة السابعة:

إنّ العدول عن الحقيقة إلى المجاز يقتضي نسبة الحاجة أو الضرورة أو العجز إلى الله تعالى، وهذا محال على الله.

وهذه الشبهة أثارها الشيخ سليمان بن صالح بن عبدالعزيز الغصن في رسالته: «موقف المتكلّمين من الاستدلال بنصوص الكتاب والسنّة ـ عرضاً ونقداً» الّتي قدّمها إلى كلية أُصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عام (١٤١٣ هـ)، ونال بها شهادة الدكتوراه بدرجة الشرف الأُولى .

أقول: هذا ليس أمراً جديداً، بل هي نفس الشبهة الأُولى باختلاف في الالفاظ، والإجابة عنها واضحة، فنقول:

إنّ العدول عن الحقيقة ليس دليلاً على الحاجة أو العجز، بل كلّ ذلك لغاية إفهام الناس وهدايتهم، فقد كتب سبحانه على نفسه أن يخاطب الناس عن طريق الوحي بلغتهم ويحاورهم بكلامهم وأساليبهم، قال سبحانه: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُول إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) إبراهيم: ٤ ..

الشبهة الثامنة:

إنّ الله تعالى لو خاطب بالمجاز لصحّ وصفه بأنّه متجوّز، ومستعير، وهو خلاف الإجماع.

وجواب هذه الشبهة: أنّه لاملازمة بين كونه مستعملاً للمجاز وجواز وصفه سبحانه بأنّه متجوّز أو مستعير، لأنّ أسماء الله توقيفية، ويشهد لذلك أنّ أفعال العباد عند أهل السنّة مخلوقة لله سبحانه، ومع ذلك لا تصحّ تسميته سبحانه بكونه آكلاً، شارباً، ضارباً، قاتلاً .

ثم إنّه سبحانه يصف نفسه بقوله: (أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ) الواقعة: ٦٤، فهل تصحّ تسميته زارعاً، ودعوته في مقام الدعاء «يازارع»؟!.

الشبهة التاسعة:

إنّ المجاز لا يفهم معناه بلفظه دون قرينة، وربّما تخفى، فيقع الالتباس على المخاطب فلا يفهم مراد الله، وهذا يخالف حكمة الخطاب.

وجواب هذه الشبهة: أنّ من شرط استعمال المجاز احتفافه بالقرينة الواضحة، فاستعمال اللفظ مجازاً مع اختفاء القرينة يضادّ البلاغة، وهو لا يناسب كلام البلغاء، فكيف يقع ذلك في كلام الله تعالى؟

إلى هنا تمّ بيان الشبهات الّتي حاكها ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية ومن تبعهما من الظاهريين والقشريين الذين لا يهمهم إلاّ متابعة الظواهر من دون تعقّل ولا تفكير.

وقد عرفت ما هو الحق، ولأجل إكمال البحث نشير إلى بعض المجازات النبوية لتكون أقوى شاهد على أنّ المجاز ليس كذباً ولا مبالغة خارجة عن الحدّ ولا شيئاً آخر .

## المجازات في الأحاديث النبوية

قد عرفت نماذج من المجازات في الذكر الحكيم، وها نحن نذكر شيئاً ممّا ورد منها في كلام سيد المرسلين (صلى الله عليه وآله وسلم)، وقد قام السيد الشريف الرضي(رحمه الله)بجمع قسم منها في كتاب خاص أسماه «المجازات النبوية» وها نحن نقتبس من

هذا الكتاب نماذج لتكون شاهداً على أنّ المجاز ليس كذباً ولا غلوّاً وإنّما هو إضفاء جمالية على الكلام، وإعطاءه روعة ورونقاً :

١. اليد العليا خير من اليد السفلى صحيح البخاري: ٢ / ٢٣٤؛ صحيح مسلم برقم ١٣٣ ..

وهذا القول مجاز ؛ لأنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) أراد باليد العليا يد المعطي وباليد السفلى يد المستعطي، ولم يرد على الحقيقة أنّ هناك عالياً وسافلاً وصاعداً ونازلاً، وإنّما أراد أنّ المعطي في الرتبة فوق الآخذ .

٢. هذه مكّة قد رمتكم بأفلاذ كبدها النهاية في غريب الحديث: ٣ / ٤٧٠، مادة «فلذ»..

وهذه من أنصع العبارات وأرفع الاستعارات، وقد قال (صلى الله عليه وآله وسلم)ذلك عند خروجه إلى بدر للقتال، وقد خرجت قريش من مكّة مجلبةً عليه ومحلبةً إليه، وكان المسلمون قد ظفروا ببعض فرّاطهم، فأتى به النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)فسأله عمّن خرج في ذلك الجمع من علية قُريش، فقال: فلان وفلان، وعدد قادتهم وذادتهم الذادة جمع ذائد وهو الحامي الدافع. لسان العرب: ٣ / ١٦٨، مادة «ذود».، والوجوه والسادات منهم، فقال (صلى الله عليه وآله وسلم)ذلك الحديث .

٣. أنتم الشعار والناس الدثار. صحيح مسلم: برقم ١٠٦١ .

قاله (صلى الله عليه وآله وسلم)في كلام للأنصار، وهذا مجاز، لأنّه (صلى الله عليه وآله وسلم)أراد إنّكم أقرب الناس منّي وأشدّهم اشتمالاً عليّ، فأنتم لي كالشعار وهو الثوب الّذي يلي بدن الإنسان، والناس كالدثار لأنّهم أبعد منّي، وأنتم بينهم وبيني.

٤. الآن حمي الوطيس. صحيح مسلم: برقم ١٧٧٥ .

قاله (صلى الله عليه وآله وسلم)ذلك يوم حنين يوم رأى مجتلد القوم، فقوله (صلى الله عليه وآله وسلم)ـ الآن حمي الوطيس وهو يعني حمس الحرب حمس الحرب أي اشتدت. النهاية لابن الأثير: ١ / ٤٢٣، مادة «حمس». وعظم الخطب ـ مجازٌ، لأنّ الوطيس في كلامهم حفيرة تحتفر، ويوقد فيها النار للاشتواء وتجمع على وُطس، ولا وطيس هناك على الحقيقة وإنّما المراد هو حرّ القراع وشدّة المصاع المصاع: المجالدة والمضاربة بالسيف. النهاية لابن الأثير: ٤ / ٣٣٧، مادة «مصع».، والتفاف الأبطال واختلاط الرجال.

٥. الحمّى رائد الموت. سند الشهاب: ١ / ٦٩ .

قال (صلى الله عليه وآله وسلم)ذلك تشبيهاً للحمّى برائد الحيّ الّذي يتقدّمهم فيرتاد لهم مساقط السحاب ومنابت الأعشاب فيكون ارتحالهم على خَبَره، وإقامتهم إلى نَظَره، ومنه الحديث: «الرائد لا يكذب أهله» فكأنّه (صلى الله عليه وآله وسلم)جعل الحمّى مقدّمة للموت، وطليعة للحتف.

٦. المؤمن مرآة المؤمن. سنن الترمذي: برقم ١٩٢٧ .

هذا القول مجاز واستعارة والمراد به أنّ المؤمن الناصحَ لأخيه المؤمن يبصّره مواقع رشده ويطلعه على خفايا عيبه، فيكون كالمرآة له ينظر فيها محاسنه فيستحسنها، ويزداد منها، ويرى مساوئه فيستقبحها وينصرف عنها.

٧. الحياء نظام الإيمان. صحيح البخاري: ١ / ٦٩ (قريب من معناه) ؛ وسنن الترمذي: برقم ٢٠١٠ .

النظام كلّ خيط يسلك فيه لؤلؤ، وهذا الكلام استعارة، والمراد أنّ الحياء يجمع خلال الإيمان كما يجمع السلك فرائد النظام، لأنّ الإنسان الكثير الحياء، يُحجم عن مواقعة المعاصي ومطاوعة المغاوي، فإذا قلّ حياؤه تفرق جُمّاع إيمانه، فأشبه السلك في أنّه إذا انقطع تهافتت خرز نظامه.

٨ . أوثق العُرى كلمة التقوى. سنن الترمذي: برقم ٣٢٦١ .

وهذه استعارة ؛ لأنّه (صلى الله عليه وآله وسلم)جعل التقوى كالعروة التي يُتعلّق بها وتنجي من المزالّ والمزالق، لأنّ المتّقي لله سبحانه يأمن من نقماته وينجو من سطواته، فيكون كالممسك بعروة الحبل المتين والمستند إلى النضد الأمين.( الجبل.)

٩. الناس معادن.( صحيح مسلم: برقم ٢٦٣٨ .)

هذه استعارة ؛ لأنّه (صلى الله عليه وآله وسلم)شبّه الناس بالمعادن التي تكون في قرارات الأرض، فلا يحكم على ظواهرها حتّى يستخرج دفائنها، فكذلك الناس لا يجب أن يحكم على مجاريهم ولا يقطع على بواديهم حتّى يُخبَروا ويُعرَفوا، فيخرِج البحثُ جواهرَهم ويمحّصُ الامتحانُ مخابرَهم.

١٠. من أتاكم وأمركم جُمعٌ يريد أن يشقّ عصاكم ويفرق جماعتكم فاقتلوه. صحيح مسلم: برقم ١٨٥٢ .

قوله (صلى الله عليه وآله وسلم): «يُريد أن يشق عصاكم» استعارة، والمراد به تفريق أمرهم وتشتيت جمعهم، فشبّه ذلك بشقّ العصا، لأنّ عن شقّها يكون تشظيها وتطاير الصدوع فيها.

١١. حُبُّك الشيء يعمي ويصمّ. مسند أحمد: ٥ / ١٩٤ .

وهذا مجاز ؛ لأن حبّ الشيء على الحقيقة لا يعمي ولا يُصمّ، وإنّما المراد أنّ الإنسان إذا أحبّ الشيء أغضى عن مواضع عيوبه كأنّه لا ينظرها، وأعرض عن الملاوم والمعاتب من أجله فكأنّه لا يسمعها، فصار من هذا الوجه كالأعمى والأصمّ لتغاضيه لتغابيه.

١٢. قيّدوا العلم بالكتاب. المستدرك على الصحيحين: ١ / ٢٠٦ .

وهذه استعارة ؛ لأنّه (صلى الله عليه وآله وسلم)جعل ضروب العلم بمنزلة الإبل الصعاب الّتي تشرد إنْ لم تُعقَل، وجعل الكتاب لها بمنزلة الأقياد المانعة والعقل اللازمة.

١٣. الصوم جُنّة والصدقة تطفئ الخطيئة. مسند أحمد: ٥ / ٢٣١ .

وهاتان استعارتان أحدهما قوله (صلى الله عليه وآله وسلم): «الصوم جُنّة»، والمراد أنّ الصائم الّذي يخلص في صومه ويستكمل آخر يومه يكون بالإخلاص في ذلك الصوم كأنّه قد لبس جُنّة من العقاب وأخذ أماناً من النار. والاستعارة الأُخرى في قوله(صلى الله عليه وآله وسلم): «والصدقة تطفئ الخطيئة»، حيث جعل الخطيئة بمنزلة النار من حيث كانت مفضية إلى عذاب النار وجعل الصدقة مطفئة لها إذا كثرت فأثرت في سقوط عقابها.

١٤. العلم رائد، والعدل سائق، والنفس حَرون. بحار الأنوار: ٧٤ / ١٧٤ .

وهذا الكلام مجاز وذلك أنّه (صلى الله عليه وآله وسلم)شبّه علم الإنسان بالرائد الّذي يتقدّم أمام الحي فيدلّهم على المنزل الوسيع والمرعى المريع، وشبّه العقل بالسائق لأنّه يحثّ الإنسان على سلوك النهج الأسلم، ويحمله على الذهاب في الطريق الأقوم، وشبّه النفس بالدّابة الحرون لأنّها تتقاعس عن مراشدها، وتلذع بسوط الأدب حتّى تسلك طرق مصالحها.

***

إلى هنا قدمنا لك ـ أيها القارئ الكريم ـ نماذج من أروع المجازات في كلام النبي الخاتم (صلى الله عليه وآله وسلم)حتّى تكون شاهداً على أنّ المجاز أمر ذائع ومطلوب ولولاه لما جنح إليه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، فإنّ القرآن والسنّة كلاهما من وحي الله سبحانه غير أنّ القرآن وحي بلفظه ومعناه، والسنّة وحي بمعناه دون لفظه، فلو كان في المجاز شيء من الشَّين لما وجدت له أثراً في كلام سيد المرسلين (صلى الله عليه وآله وسلم)، وقد ذكر السيد الرضي في كتابه «المجازات النبوية» ٣٧٥ حديثاً نبوياً اشتمل على مجازات ناصعة، أضفتْ على كلامه روعة وجمالاً، وقد صدرنا فيما ذكرناه من المجازات في الحديث الشريف عن هذا الكتاب القيّم، راجع المجازات النبوية: ٣٥، ١٣، ٤١، ٤٥، ٥٧، ٧٩، ١٠٥، ١٣٣، ١٣٤، ١٦١، ١٧٥، ١٧٩، ١٨٩ و ٢٠٤ .رحم الله مؤلّفه.

عود على بدء... أوقد رسالة الشيخ الشنقيطي

نقد رسالة الشيخ الشنقيطي

لمّا فرغت من تحرير ما سبق من الكلام ، وقفت على نص رسالة الشيخ الشنقيطي الّتي أسماها «منع جواز المجاز في المنزَل للتعبّد والإعجاز» والّتي طبعت في ذيل الجزء العاشر من كتابه «أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن» فرأيت أنّ الكاتب من المتحمّسين لفكرة المنع الّتي ورثها من ابن تيمية وتلميذه ابن قيّم الجوزية ومن لفّ لفّهما، وقد نقلنا شيئاً منها في المقال الماضي عن طريق كتاب «التأويل» لصديقنا الراحل العلاّمة محمد هادي معرفة «رضوان الله عليه» لكن رأيت فيها وجوهاً أُخرى للمنع فأحببت أن أُتابع الموضوع مجدّداً، وإن استلزم التكرار في بعض الموارد.

قال الشيخ: فإنّا لمّا رأينا جلّ أهل هذا الزمان يقولون بجواز المجاز في القرآن ولم يتنبّهوا إلى:

١. أنّ القول فيه ذريعة لنفي كثير من صفات الكمال والجلال .

٢. أنّ هذا المُنزَل للتعبّد والإعجاز كلّه حقائق وليس مجازاً.

٣. أنّ نفي ما ثبت في كتاب أو سنّة لاشكّ في أنّه محال.

وكيف يمكن أن يكون شيء منه غير حقيقة، وكلّ كلمة منه بغاية الكمال جديرة حقيقة، إنّه لقول فصل وما هو بالهزل، أخباره كلّها صدق وأحكامه كلّها عدل.

والمقصود من هذه الرسالة نصيحة المسلمين وتحذيرهم من نفي صفات الكمال والجلال الّتي أثبتها الله لنفسه في كتابه العزيز بادّعاء أنّه مجاز وأنّ المجاز يجوز فيه لأنّ ذلك من أعظم وسائل التعطيل. ملحق أضواء البيان: ١٠ / ٢٣٧ .

***

أقول: الجدير بالباحث الموضوعي أن يدرس الآيات الّتي ادّعى أكثر أهل هذا الزمان وجود المجاز فيها، ثم يخرج بنتيجة خاصّة، من النفي والإثبات، ولكن الرجل تجاوز القاعدة فتبنّى العقيدة أوّلاً ـ ليس في القرآن مجاز ـ ثم درس الآيات في ضوء هذه العقيدة، ومن المعلوم أنّ دراستها على ضوء العقيدة الّتي تبنّاها من قبل، لا تنتج إلاّ النفي والردّ.

والشاهد على أنّه لم يبحث الموضوع متجرّداً عن عقيدته، أنّه نفى المجاز في القرآن لغاية حفظ تطرّق المجاز إلى الآيات الواردة حول الصفات الخبرية (لا صفات الكمال والجمال كما زعم) الّتي لو أُجريت على معانيها اللغوية، لاستلزم التجسيم والتشبيه والجهة والحركة، وإنْ كنت في شكّ من ذلك، فلاحظ الآيات التالية :

١. العين، كقوله سبحانه: (وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي). طه: ٣٩ .

٢. اليمين، كقوله سبحانه: (وَالسّموَاتُ مَطْوِيّاتٌ بِيَمِينِه). ( الزمر: ٦٧ .)

٣. الاستواء، كقوله سبحانه: (الرَّحْمنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوى). طه: ٥ .

٤. النفس، كقوله سبحانه: (تَعْلَمُ ما فِي نَفْسي وَلا أَعْلَمُ ما في نَفْسِكَ).( المائدة: ١١٦ .)

٥. الوجه، كقوله سبحانه: (فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ). البقرة:١١٥.

٦. الجنب، كقوله سبحانه: (عَلَى ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللّهِ).( الزمر:٥٦.)

٧. القرب، كقوله سبحانه: (فَإِنّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدّاعِ) البقرة:١٨٦.

٨. المجيء، كقوله سبحانه: (وَجاءَ رَبُّكَ). الفجر:٢٢.

٩. الإتيان، كما قال سبحانه: (أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ). الأنعام:١٥٨.

١٠. الغضب، كما في قوله: (وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِم) الفتح:٦..

١١. يد الله كما في قوله سبحانه: (يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ ) المائدة: ٦٤ .

١٢. يديّ كما في قوله سبحانه: (مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ) ص: ٧٥ ..

إلى غير ذلك من الصفات الخبرية التي وردت في القرآن الكريم وأخبر عنها الوحي، فللجميع ظواهر غير مستقرة لا تلائم الأُصول الواردة في محكمات الآيات، ولكن بالإمعان والدقة يصل الإنسان إلى مآلها ومرجعها وواقعها.

إنّ الرجل ـ تبعاً لأُستاذ منهجه: ابن تيمية الحرّاني، وابن قيّم الجوزية ـ أصرّ على نفي المجاز في هذه الآيات ليتسنّى له إثبات هذه الصفات على الله سبحانه بنفس معانيها، فصارت العقيدة أساساً لتفسير الذكر الحكيم، فهو مكان أن يعرض العقيدة عليه، فسّر القرآن وفق معتقده.

وأعجب من ذلك قوله ثانياً: «إن كلّ ما في القرآن حقائق وليس مجازاً». حيث زعم أنّ المراد من المجاز ضد الواقع الّذي يلازم الكذب، وغفل عن أنّ المقصود هو اتّخاذ اللفظ معبَرَاً وجسراً لتجاوز معنى إلى معنى آخر، والخروج من أمر واقعي إلى أمر واقعي آخر، ومن حقيقة إلى حقيقة أُخرى، وليس المعنى الثاني ضد الأوّل ولا هو معنى مكذوب، بل المتكلّم يتخذ اللفظ وسيلة للتعبير عن معنى آخر له كمال المناسبة مع المعنى الأوّل، وذلك بنصب قرينة واضحة.

ومنه يظهر الخلل في قوله ثالثاً: «لا يمكن أن يكون شيء منه غير حقيقة» وذلك لأنّ المعنى الثاني أيضاً حقيقة كالمعنى الأوّل، غير أنّه أفاد المقصود باللفظ الموضوع للمعنى الأوّل بمناسبة واضحة بين المعنيين، وعلى هذا فكلّ ما في القرآن أُمور واقعية، لكن ربّما يعبَّر عنها باللفظ الموضوع لها لغة، وربّما يعبَّر عنها بغير الموضوع له ويستعان في تفهيمه بالقرينة، وسيظهر لك تفصيل ما ذكرنا في البحوث الآتية.

وجه آخر:

ثم إنّه أضاف إلى الوجوه الثلاثة وجهاً آخر وقال: وأوضح دليل على منعه في القرآن، إجماع القائلين بالمجاز على أنّ كلّ مجاز يجوز نفيه ويكون نافيه صادقاً في نفس الأمر فنقول لمن قال: رأيت أسداً يرمي، ليس هو بأسد وإنّما هو رجل شجاع، فيلزم على القول بأنّ في القرآن مجازاً: أنّ في القرآن ما يجوز نفيه، ولا شكّ أنّه لا يجوز نفي شيء من القرآن. ملحق أضواء البيان: ١ / ٢٤٠.

يلاحظ عليه: أنّ الكبرى أمر مسلَّم لا ريب فيه، فلا يجوز لمسلم مؤمن بأنّ القرآن كتاب سماوي نزل من الله على قلب سيد المرسلين أن ينفي شيئاً منه حتّى النُّقط، إنّما الكلام في الصغرى فإنّ الوارد فيه هو ما تعلّقت به الإرادة الجدّية والغرض الحتمي الّذي لأجله سيق الكلام وهو غير منفي، وإنّما المنفي هو ما تعلّقت به الإرادة الاستعمالية الّتي استخدمت لإفادة المعنى الثاني.

وبعبارة أُخرى: أنّ المتكلّم إذا قال: رأيت أسداً يرمي، فقد استعمل لفظة «أسد» في الحيوان المفترس، لكنّه تعلّقت الإرادة الجدّية بالمصداق الادّعائي منه ـ أعني: الرجل الشجاع ـ فقد أُريد المعنى الأوّل ليكون وسيلة لإفهام المعنى الثاني بالقرينة المفهمة، فنفي الحيوان المفترس المتجسّد في الأسد في الغابات لا يضرّ لأنّه ليس مقصوداً، وإنّما المقصود بالأصالة ـ أعني: الرجل الشجاع ـ فهو غير منفي، وعلى هذا:

فما هو المقصود بالأصالة ليس منفياً.

وما هو منفيٌّ فليس مقصوداً بالأصالة.

وبعبارة ثالثة: أنّ لكلّ جملة ظهوراً وهو حجّة عند العقلاء، وهذا ما لا يجوز نفيه لا في كلام الله ولا في كلام غيره، والجملة المذكورة ظاهرة في الرجل الشجاع لا في الحيوان المفترس. ولا يمكن نفي ما هو ظاهر فيه وما ذلك إلاّ لأنّ المتَّبع هو الظهور الجملي، لا الظهور الإفرادي، فللأسد، بمفرده ظهور فهو غير متبع، ولا يحتج به ولا يضرّ نفيه، وله ظهور آخر في ضمن الجملة وهو المتّبع ولا يجوز نفيه.

والكاتب لم يميّز بين الظهور الإفرادي والظهور الجملي.

***

وجه خامس: أنّ الكاتب طرح سؤالاً عن جانب القائلين بالمجاز، ثم أفاض الكلام في ردّه مع أنّ السؤال ممّا لا يحتجّ به أحد من القائلين بالمجاز في القرآن .

قال: فإنْ قيل كلّ ما جاز في اللغة العربية جاز في القرآن، لأنّه بلسان عربي مبين. ثم أجاب بأنّ هذه كلمة لاتصدق إلاّ جزئية.

أقول: إنّ القائل بالمجاز في القرآن إنّما يحتج : بالآيات الدالّة على أنّ القرآن نزل بلسان عربي مبين، قال سبحانه: (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَان عَرَبِي مُبِين) الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٥ . وممّا لا يشكّ فيه ذو مسكة أنّ المجاز من الوسائل البيانية في اللسان العربي، وعلى هذا فلا وجه لمنع جوازه، في القرآن، وأمّا ادّعاء أن كلّ ما جاز في اللغة العربية جاز في القرآن، فلم يعتمده أحد حتّى يردّ عليه.

وبذلك يُعلم أنّ ما أطنب به في ردّ كلية القاعدة، إطناب مملّ.

النزاع في اللفظ والتسمية

يظهر من بعض كلمات المؤلّف أنّه لا ينكر واقع المجاز في القرآن لكنّه يسمّيه بأنّه أُسلوب من أساليب اللغة، وإنّما يمنع تسمية الأُسلوب بالمجاز، وإن كنت في شكّ ممّا نقوله، فلاحظ كلامه:

وكلّ ما يسمّيه القائلون بالمجاز مجازاً، فهو عند من يقول بنفي المجاز أُسلوب من أساليب اللغة العربية.

فمن أساليبها إطلاق الأسد مثلاً على الحيوان المفترس المعروف، وأنّه ينصرف إليه عند الإطلاق وعدم التقييد بما يدلّ على أنّ المراد غيره.

ومن أساليبها إطلاقه على الرجل الشجاع إذا اقترن بما يدلّ على ذلك. ولامانع من كون أحد الإطلاقين لا يحتاج إلى قيد، والثاني يحتاج إليه ؛ لأنّ بعض الأساليب يتّضح فيه المقصود فلا يحتاج إلى قيد، وبعضها لا يتعيّن المراد فيه إلاّ بقيد يدلّ عليه، وكلّ منهما حقيقة في محلّه. وقسّ على هذا جميع أنواع المجازات. ملحق أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن : ١٠ / ٢٣٩ .

ثم يقول: والّذي ندين الله به، ويلزم قبوله كلّ منصف محقّق، أنّه لا يجوز إطلاق المجاز في القرآن مطلقاً على كلا القولين .

نحن لا نعلّق عليه بشيء لوضوح أنّ النزاع ليس في التسمية، بل في المسمّى وواقع المجاز كما ترشد إليه الوجوه الّتي احتجّ بها، فعلى ما ذكر يكون النزاع في التسمية غير لائق للبحث والنقاش .

زلّة لا تستقال

ثمّ إنّ المؤلّف لمّا أحسّ اشتراك الكناية مع المجاز في أنّ المعنى الموضوع له غير مراد، بل المراد هو لازم المعنى في الكناية دون الملزوم، حاول أن يفرق بينهما فقال: الكناية هي اللفظ الّذي أُريد به لازم معناه، ولكن من تمام تعريفها جواز إرادة المعنى الأصلي، وبذلك تفارق المجاز كقول الشاعر :

فما يك فيّ من عيب فإنّي *** جبان الكلب مهزول الفصيل

وقول الخنساء في صخر:

طويل النجاد عظيم الرما *** د ساد عشيرته أمردا

فإنّ جبان الكلب، ومهزول الفصيل، وعظيم الرماد كنايات عن الجود، وطويل النجاد كناية عن طول القامة، مع أنّه يجوز في كلّها قصد المعنى الأصلي، لأنّ الجواد مهزول الفصيل لنحره أُمّه وصرفه اللبن عنه في الحقوق (كذا والظاهر الضيوف).

وكذلك هو جبان الكلب لكثرة غشيان الضيوف بيته.

وكذلك هو كثير الرماد لكثرة وقود الحطب لِقِرى الضيف، وطويل القامة طويل النجاد أيضاً، فلا مانع من قصد هذه المعاني الأصلية، وإن كان المراد الانتقال منها إلى لوازمها. ملحق أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن : ١٠ / ٢٤٥.

أقول: ما ذكره زلة أدبية لا تستقال إذ لم يقل به أحد، لأنّ المقصود بالأصالة هو المعنى المكنّى عنها، بل ربّما يخرج الكلام عن المدح إلى الذم إذا أراد المعنى المكنّى به، فقوله: فلان كثير الرماد، إذا أُريد واقعاً كثرة الرماد في بيته، لعاد الكلام، ذماً وأنّ بيته مملوء بالنفايات.

بل ربّما لا يكون للمعنى المكنى به موضوع، فربّما لا يملك كلباً، ولا فصيلاً، ولا رماداً، ومع ذلك يصحّ التعبير عن سخائه بهذه التعبيرات.

نقضت غزلها أنكاثاً

لقد فسّر المؤلّف قسماً من الآيات عن طريق المجاز، ولكنّه وصفه بأنّه أُسلوب من أساليب العربية، يقول في تفسير قوله تعالى: (نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ) العلق: ١٦.:

أسند الكذب في هذه الآية الكريمة إلى ناصية هذا الكافر، وهي مقدّم شعر رأسه، مع أنّه أسنده في آيات كثيرة إلى غير الناصية كقوله: (إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ).( النحل: ١٠٥.)

والجواب ظاهر، وهو أنّه هنا أطلق الناصية، وأراد صاحبها على عادة العرب في إطلاق البعض، وإرادة الكلّ، وهو كثير في كلام العرب، وفي القرآن، فمن أمثلته في القرآن هذه الآية الكريمة المتقدمة، وقوله تعالى: (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ) المسد: ١. يعني أبا لهب.

وقوله: (ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ) آل عمران: ١٨٢ . يعني بما قدّمتم. ومن ذلك تسمية العرب، الرقيبَ عيناً.( ملحق أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن : ١٠ / ٢٢٧ .)

ترى أنّه تشبّث في رفع التعارض المتوهم، بين الآيات، باستعمال اللفظ الموضوع للبعض في الكلّ ووصفه بأنّه كثير في كلام العرب وفي القرآن. وليس هذا إلاّ المجاز المرسل.

وفي الختام: نعطف نظر القارئ الكريم إلى نكتة مرت في صدر المقال: وهي أنّ نفاة المجاز في القرآن، من العرب الأقحاح الّذين يرتجلون خطباً وقصائد ملؤها المجاز والكناية، ومع ذلك تجدهم ينفون وجود المجاز في القرآن!! وما هذا إلاّ لأنّ الغاية من نفيه، هو إجراء الصفات الخبرية على الله سبحانه بنفس معانيها الّتي لا تنفك عن التجسيم والتشبيه والجهة. ولولا ذلك لما أصرّوا على نفي وقوعه في القرآن الكريم .

الحمد لله أوّلاً وآخراً

وظاهراً وباطناً

تمّ الكلام في المجاز في القرآن الكريم وبه تمت الرسالة

في يوم الجمعة الموافق ٢٤ صفر المظفر

من شهور عام ١٤٢٢هـ

جعفر السبحاني

الفهرس